Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحمد عمران

القرآن والمسيحية في الميزان

Bibliotheca Alexandrina
0425725

الدار الإسلامية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

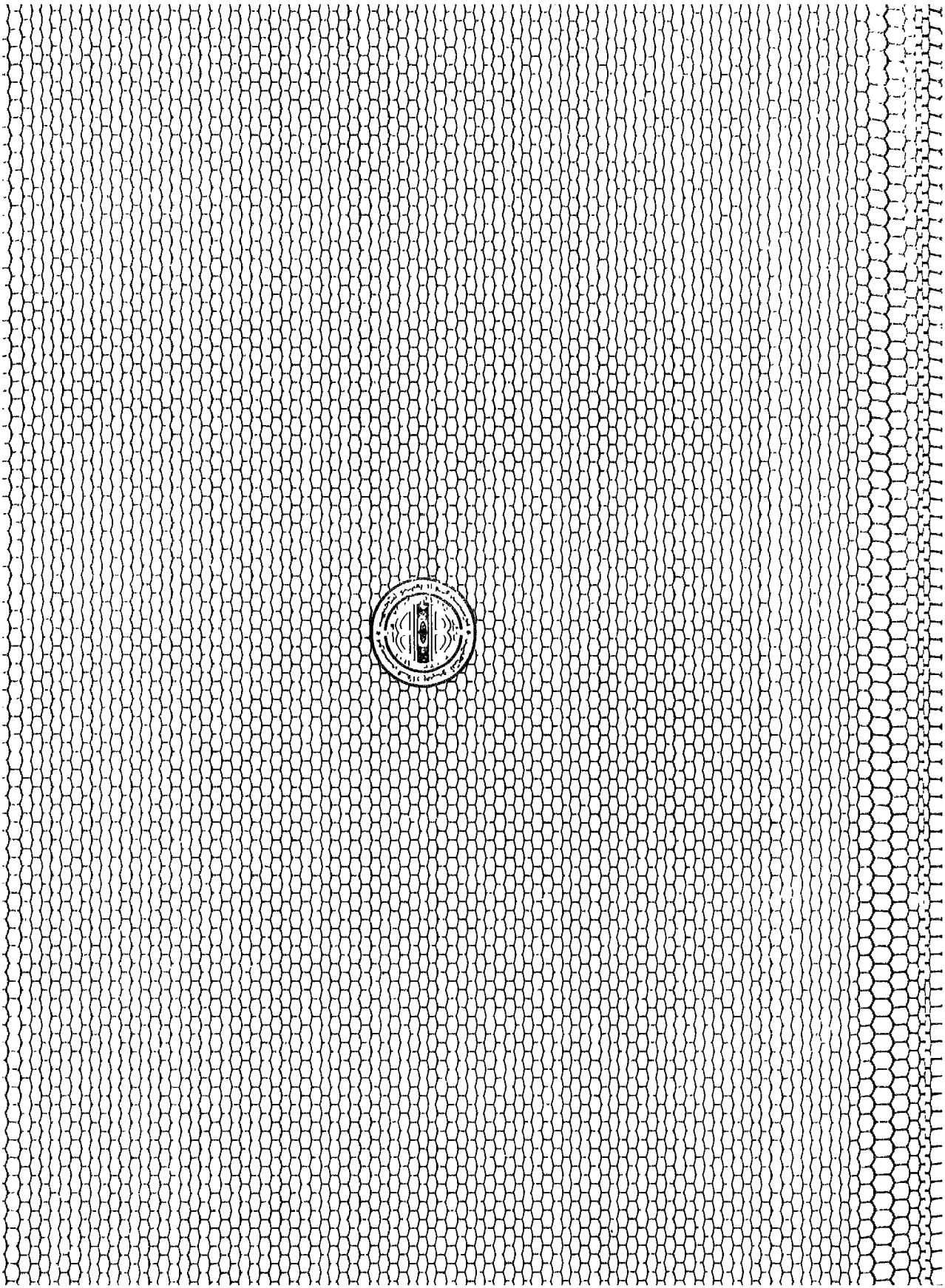

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرآن والمسيحية
في الميزان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحامي أحمد عمران

القرآن والمسيحية في الميزان

الدار الإسلامية
بيروت ـ لبنان

حقـوق الطبــع محفوظـة

الطبعة الأولى

١٩٩٥م ـ ١٤١٦هـ

كورنيش المزرعة ـ بناية الحسـن سـنتر ـ طابـق ثـانـي
هاتف : ٦٢٧ ٨١٦ ـ ص.ب: ١٤/٥٦٨٠ ـ تلكس: ٢٣٢١٢ غدير
حارة حريك ـ شارع دكاش ـ هاتف : ٦٧٠ ٨٣٥ ـ ص.ب: ٢٥/٢٠٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم: بقلم
سماحة آية الله السيد محمد حسين فضل الله

الحمد لله والسلام على عباده الذي اصطفى.

وبعد: للحوار في الإسلام الدور الكبير في عملية الدعوة إلى الله، للوصول إلى المعرفة التفصيلية في القضايا التي يختلف فيها الناس في شؤون العقيدة والشريعة والمنهج والحياة، لأنه هو السبيل الأمثل للحصول على كل مفردات الفكر الملائم والفكر المضاد في حركة الصراع الفكري بالطريقة التي تثير عمق العناوين المتنوعة فتدقق في كل جزئياتها لتطل على الخطوط الكلية من أجل الوصول إلى العقيدة في وضوح من الرؤية، وعمقٍ في النظرة وامتدادٍ في المعرفة وهذا هو الذي يمثل المنهج السليم لحماية الفكر الإسلامي من الفكر المضاد لأن فقدان المعرفة للآخر لا يتيح لك الفرصة للاطلاع على نقاط قوته وضعفه، كما أن فقدان الوضوح للرؤية للإسلام يتيح للآخرين أن يدخلوا في الإسلام ما ليس فيه من الباطل الذي يحوّله الجهل في ذهنية المسلمين إلى شيء إسلامي، وبالتالي فهو يمنع المسلم من الأخذ بأسباب القوة للدفاع عن الإسلام لأنّ أوّل شروط الدفاع بما تملكه من الأسلحة أن تعرف طبيعة سلاح العدوّ.

وهذا هو الذي جعل من القرآن كتاب الحوار مع الآخرين ملحدين أو مشركين أو أهل كتاب أو منافقين لأنّ الله سبحانه مركز الدعوة على العقل وأراد للناس أن يدركوا الإسلام من خلال عناصر الفكر العقلي والمعرفة العلمية ولن يستطيع العقل أن يعرف الإيجاب إلاّ إذا عرف السلب، كما لا يملك أن يفكر بالشيء إلاّ إذا اكتشف ضده،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولهذا كانت مفردات الفكر والعقل والحجة والبرهان والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في دائرة الجدال بالتي هي أحسن هي المفردات التي تحرّك بها النبي (ص) في أسلوب الدعوة وحركيتها، بالإضافة إلى شخصيته الغنية بالروح والعقل والخلق واللطف الإلهي العميق.

* * *

والحوار الإسلامي ـ المسيحي هو من بين مفردات الحوار القرآني في حديثه مع النصارى في الجانب العقيدي المتصل باللاهوت وفروعه وقد رأيناه يعنف تارة ويرقّ أخرى وينفتح بطريقة حميمة ثالثة لأنّ القضية لم تكن منطلقة لديه من الرغبة في تدمير الآخر بل كانت منطلقةً من إقناع عقله في خطاب فكره، والحصول على صداقته في انفتاح قلبه، والوصول معه إلى الكلمة السواء في التفاصيل بعد الانطلاق من الكلمة السواء في المبدأ.

وقد تحركت التجارب الحوارية ـ الجدلية في الدائرة الثقافية في الجانب الإسلامي مما تركه المسلمون من تراث في مناقشة النصرانية ومحاكمتها، وفي الجانب النصراني مما تركه النصارى من نقد الإسلام والاعتراض عليه، لأن الواقع الديني كان يفرض على كلٍّ منها أن يحمي مواقعه الدينية على صعيد الفكر والواقع بعد أن انفتحت ساحة الصراع على المستويات الفكرية والسياسية والعسكرية، وخيّل لكل منها أن الآخر يعمل على إبادته ومصادرة وجوده وحريته لا سيما بعد التجارب التي كان الصراع فيها قاسياً شديداً بحيث أدى إلى إلغاء الآخر بالكلية من ساحته كما حدث للمسلمين في الأندلس وفي أماكن أخرى، مما لم يحدث ما يماثله في سنوات الإسلام مع النصارى. لأن الإسلام يلتقي مع النصارى في الإيمان بالله الواحد وبالرسل وبعيسى عليه السلام وبأمه مريم، وباليوم الآخر وبالإنجيل كما يلتقي معهم في الإيمان بالتوراة، مما يجعل هناك أكثر من موقع لقاء، وأكثر من كلمة سواء وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون﴾.

ولذلك كان العيش المشترك مع أهل الكتاب، ولا سيما النصارى، أساساً في التشريع الإسلامي مع ملاحظة بعض التحفظات الفقهية التي كثر الجدل حولها كنظام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهل الذمة ونحوه. وهذا ما يجعل المجتمع الإسلامي، في دائرة التشريع مجتمعاً متنوع الأفكار الدينية في نطاق الحريات المسؤولة، ويمنع المسلمين من التفكير في إلغاء الآخر بالقوة إذا لم يقم بأي عدوان ضد المسلمين. ويبقى للفكر والحوار في خط الدعوة، أن يأخذا بكل الوسائل الثقافية الموضوعية لإقناع الآخر.

* * *

وقد يكون من مقومات الحوار الموضوعي أن يعرف كل فريق من أطراف الحوار فكر محاوره من مصادره الأصيلة، مما يفرض عليه أن يدرس هذه المصادر ليتفهم مدلولها الفكري على النهج الذي يفهمه أصحاب الفكر الآخر، ثم على النهج العلمي المستقل الذي ينطلق من تجربته الفكرية الخاصة، لأنّ فهم الآخرين خلال منهجه، يمنحك فرصة حركة الفكرة في وجدانه الديني وذهنيته الثقافية، كما أن فهمك لمصادره من خلال تجربتك الفكرية قد يوحي إليك ببعض الأفكار التي قد تكون حجة عليك بحيث تأخذ الحجة لفكرك من خلال مصادره مما يجعله ملزماً ـ من الناحية الفكرية ـ أن يلتقي معك في فكرك من خلال الحجة الدافعة تبعاً لالتزامه بأن مصادره تمثل الحقيقة النهائية الحاسمة.

وفي ضوء ذلك، نجد أن الدراسات المقارنة للإسلام والنصرانية قد تفتح المجال الواسع للقاء الفكري، وللقناعة الذهنية من خلال التأكيد على نقاط اللقاء والخلاف مما يهيىء الجو العلمي للبحث الموضوعي القائم على أساس من وضوح الرؤية وعمق المعرفة.

وقد حاول المسلمون أن يستفيدوا، في دراستهم للإنجيل، الأفكار التي تؤكد عقيدتهم في البشارة بالنبي محمد (ص) من قبل عيسى عليه السلام وفي إبطال التثليث وغير ذلك بحيث تكون الحجة إنجيلية.

كما حاول بعض المسيحيين الاستفادة من القرآن في دعم الخط العقيدي المسيحي في شخصية السيد المسيح الإلهية وفي غير ذلك.

ومن هؤلاء «الأستاذ الحداد»، وهو من علماء النصارى في لبنان، الذي ألّف موسوعة فكرية تتصل بالقرآن وبالإسلام في تجربة للفهم المسيحي للقرآن بحيث يبعد القرآن عن تكفير المسيحية ليصل إلى نتيجة حاسمة، وهي أن القرآن لم يوجه نقده إلى المسيحية لأنه لم يلتق بها في مجتمعه بل التقى «باليعقوبية» التي واجهها في وفد نجران

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع «جماعة الراهب أبي عامر» ومع «أهل مؤتة وتبوك» فتكفيرات القرآن للمقالات الأربع تقتصر على بدعة يعقوبية مارقة من الدين المسيحي ومطرودة من الكنيسة، لذلك فإن أي خطاب موجه إليها لا يمس المسيحية ولا يعنيها.

ونلاحظ أن غاية الأستاذ الحداد توضحت من وراء دعوته إلى الحوار الإسلامي ـ المسيحي وذلك عندما عرض «إليه الحوار» ورسم «فضاءها الفكري» فهو لا يرى في الإسلام والمسيحية رسالتين سماويتين يقوم بينهما الحوار على أساس من تبادل الإقرار بصدق كلٍّ منهما ثم ينطلقان سويّةً إلى البحث عن القواسم الجامعة وهي: «وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك» و«عن الزوجة والولد» و«حقيقة المعاد وقيام الساعة».

ولكنه يرى رسالة واحدة هي «المسيحية» ويرى الإسلام دعوة نصرانية انشطرت عن المسيحية انشطاراً فرضته السياسة وأحقاد الحروب، لذلك تقع على عاتق الحوار مهمة العودة بهذا الشطر إلى أرومته التي انبثق عنها. وبذلك فقد تتحقق الوحدة التي دعا إليها القرآن تحت راية الدين الواحد و«الشهادة الواحدة لله والمسيح».

وقد إعتمد على القرآن اعتماداً يكاد يكون كليّاً، واستعان في فهم آياته على مراجع من التاريخ والفقه لها موقعها المميز عند المسلمين كافة مثل «الاتقان للسيوطي» و«كتاب المصاحف للسجستاني» و«السيرة لابن هشام» و«تفسير الطبري» و«البيضاوي» و«ابن كثير» و«الرازي» و«الجلالين» و«طبقات ابن سعد».

* * *

ولعلّ من الطبيعي أن يرى المسلمون في هذا النهج الذي يحول أن يجعل من الإسلام بدعة نصرانية، يعمل الحداد على إرجاعها إلى قاعدتها الأصيلة وهي المسيحية الأم «خطورة كبرى على تصورهم للإسلام والتزامهم به لأن المسألة هي استنطاق القرآن فيما يريده الحداد من تأكيد فكرته.

وهذا هو الذي دعا الأستاذ المحامي أحمد عمران إلى مناقشة كتاب الحداد «القرآن والمسيحية» في كتابه هذا «القرآن والمسيحية في الميزان» من أجل نقد علمي وتاريخي مرتكز على القراءة العلمية المتأنية الدقيقة البعيدة عن الانفعال والعاطفة في استقراء دقيق للمفردات التاريخية واللغوية والفقهية في مراجعها الموثوقة عند المسلمين حيث استطاع اكتشاف «اللعبة الفكرية» و«الانحراف بالنص عن معناه بالكثير من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التكلف» بحيث أظهر الوجه الحقيقي للأسلوب الضبابي الذي اعتمده مما يبعد الكتاب عن «الصفة العلمية» والمنهج الموضوعي.

انني أشهد لهذا المؤلف المحقق أنه قد نجح في تأكيد موضوعيته الفكرية وأسلوبه العلمي في النقاش والحوار من خلال قراءتي لبعض نصوص الكتاب، وهو كثير، ورأيت فيه الحجة البالغة والنقد المتزن والنظرة الشاملة، مما أرجو للمسلمين أن يروا فيه الكتاب الذي يكشف حقيقة اللعبة الفكرية في كتابه «القرآن والمسيحية» وطبيعة المنهج الذي اعتمده الحداد في كتبه الأخرى، كما آمل أن يتسع له صدر المفكرين المسيحيين الذين يمكن لهم أن يجعلوا من هذا الكتاب تجربة حوارية وأساساً لحوار علمي موضوعي جديد من خلال النتائج التي وصل إليها وهي أن الإسلام دين مستقل لم ينفصل عن المسيحية في موقع البدعة، ولا يلتقي معها في أفكارها العقيدية التي يعتبرها كفراً وضلالاً في الوقت الذي يدعو فيه المسلمين إلى الكلمة السواء في الخطوط العامة للعقيدة التي ينطلق البحث في التفاصيل من خلال الروحية التي تتحرك منها نحو اللقاء.

ويبقى الحوار الإسلامي ـ المسيحي حاجةً على مستوى الواقع الإنساني كله في مواجهة تحديات المادية التي يرفضها الفريقان والاستكبار العالمي الذي يحارب الدين كله، في الإسلام وفي المسيحية، لتكون تلك المواجهة للتحديات المادية والاستكبارية هي الكلمة السواء.

ويبقى للمؤلف الفاضل أنه كان ناقداً موضوعياً في فكره ومنهجه وأسلوبه، فله منا التحية والتقدير، والدعاء بالنجاح لمؤلفه في الفائدة العامة والانتشار الكبير حيث يجد فيه القرّاء، من مسلمين ومسيحيين، الفائدة الكبيرة في فهم الإسلام والمسيحية بطريقةٍ علمية رائدة.

والحمد لله ربّ العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بيروت

١٩/٣/١٤١٥هـ

محمد حسين فضل الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التمهيد

يقع التمهيد في الكتاب ما بين الصفحات ٣ ـ ٧ وقد أراده المؤلف عنواناً معبراً عما سوف يطرحه من الأفكار والمواضيع فبدأه: بأن ثمَّة ظاهرات ثلاث في القرآن ـ أوهمت الناس ـ وخاصة المسلمين ـ بأنها وجهت التكفير إلى المسيحية. في حين أن القرآن بريء من ذلك.

أما الظاهرات الثلاث فهي الآتية:

أولاً : تحدث القرآن عن النَّصارى في عدد من السور. ولكنه لم يتحدث عن المسيحية ولم يشر إليها بكلمة ومع ذلك أجمعت تفاسير المفسرين على أن آيات القرآن تخص جميع أتباع المسيح، دون تفريق. كما أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين سارت على أساس هذا التفسير.

ثانياً : في القرآن، تتجلى ظاهرة بارزة، هي ظاهرة التخصيص في معرض التعميم ٥/ ٦٥ والتعميم في معرض التخصيص (٣/ ١٩٩ و٣/ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ١١٣ ـ ١١٤ و٧/ ١٨٥ و١٤/٦١) وهذا ما أوقع الناس في الاستدلال الخاطىء، الذي قادهم إلى المواقف الخاطئة في نظرتهم إلى المسيحية وتعاملهم معها.

ثالثاً : وفي الثالثة تكمن الطامة الكبرى ألا وهي «التكفير الصريح» للمسيحيين كافة (٥/ ١٩ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ١١٦ و٤/ ١٧١) وذلك عن طريق دحض «عقيدة التثليث» و«إلهية المسيح» التي اعتنقتها المسيحية ولا تزال حتى اليوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع أن الجدل القرآني الذي استتبع التكفير، محصور في وفد نجران، الذي كان على «البدعة اليعقوبية» تلك البدعة التي كفرتها الكنيسة وحرّمت مقالتها منذ أوائل القرن الخامس الميلادي.

لذلك:

يقدم الأستاذ الحداد كتابه إلى طلاب الحقيقة ومحبيها. مؤكداً أنه حصيلة جهود استقصائية واستقرائية طويلة مكثفة. وأن غايته من وراء ذلك «نفي الظلم عن القرآن» ورفع «الظلامة» عن المسيحيين. ويضع، سلفاً، مُلفتاتٍ ثلاثاً لنظر القارىء وهي شهادات يمكن الوقوف عليها في القرآن وتاريخ السيرة.

فالشهادة الأولى:

التي تنتهي إليها القراءة المنصفة الواعية للقرآن هي: إنه دعوة نصرانية لا دعوة مسيحية وأن ما أغدقه من الثناء على أهل الكتاب مع تكرار دعوتهم إلى الوحدة في الدين والأمة، هو موجه إلى النصرانية التي كانت شيعة متميزة بشعائرها وعقيدتها وظلت قائمة منتشرة في سوريا وفلسطين والجزيرة ومشارف الشام طيلة الفترة ما بين الإنجيل والقرآن إلى أن ذابت في الإسلام.

والشهادة الثانية:

هي إن الإسلام لم يتّصِل إلاّ مع اليعقوبية التي واجهها في وفد نجران ومع «جماعة الراهب أبي عامر» ومع «أهل مؤتة وتبوك».

فتكفيرات القرآن للمقالات الأربع تقتصر على: بدعة يعقوبية: مارقة من الدين المسيحي ومطرودة من الكنيسة. لذلك فإن أي خطاب موجه إليها لا يمس المسيحية ولا يعنيها.

والشهادة الثالثة:

إن واقع القرآن والدعوة، وتاريخ السيرة النبوية شهود من الواقع على عدم الاتصال بالمسيحية الرسمية، لذلك خلا القرآن من أي نص مباشر أو غير مباشر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضدها، ولم يذكرها إلاّ في موقفٍ إيجابي مرة واحدة. هو في الآية الأولى والثانية من سورة الروم.

على المقولات التي يعتبرها المؤلف ـ ثوابت، يعتمد المؤلف ليقول:

بقراءة القرآن قراءة علمية حيادية، نرى أن حواره مع البدعة اليعقوبية في المناسبات الأربع لا يعني المسيحية ولا ينسحب عليها. وأن ما جاء في الآية ٣١ ـ من سورة (التوبة ـ براءة) إنما هو مقصور ومحصور بتحريض المسلمين على غزوة تبوك لا يتخطاها.

أما الجدل الذي تحول فيما بعد إلى صراع عقائدي كلامي، فقد فرضته ظروف الفتح وعواطف الفاتحين، ولا يعود تاريخياً إلى عام الوفود مع النبي سنة ٦٣١م بل وضع فيما بعد موته، لذلك فهو حوار فاسد في روحه وغايته لأن أهل الإنجيل وأهل القرآن هم أهل الكتاب فلا يصح قيام الحوار بينهم إلاّ على أساس الآية ٢٩/ ٤٦ ـالعنكبوت وعلى هذا الأساس. يصوغ المؤلف كتابه على شكل «خيوط تحقيقية» يستنطق فيها القرآن لغةً وتفسيراً ومناسبات ليستخرج حقيقة الرؤية القرآنية للمسيحية وكيفية التعامل معها. فيتتبَّع، مسيرة الدعوة الإسلامية منذ أوّل خطوة، ويتحرك مع مناسبات الآيات وظروفها وأسبابها، ثم يفسر المعاني على مقاس «أهدافه وغاياته».

ويقول في خاتمة التمهيد قولاً، يضعه موضع النتيجة الحاسمة:

«فقد آن لنا أن ننتقل من الجدال في الكلام إلى الحوار في الإيمان لنعرف أن الإسلام والمسيحية هما ملّتان من أمة واحدة على دين واحد، وشهادةٍ لله وللمسيح، مهما اختلف التأويل لحرف التنزيل (الأنبياء ٢١/ ٩١ والمؤمنون ٢٣/ ٥٣).

وبالرغم من أن الأفكار التي طرحها المؤلف في التمهيد، هي التي سوف يصبُّ الكتابُ جميع جهوده في تفصيلها وتحليلها، فلن يفوتنا ونحن في موقع الناقد المحاور هنا، أن نقول فيها كلمات مختصرة، دون أن يمنعنا ذلك من مواجهتها ونقدها فيما سوف يأتي من فصول.

ففي التمهيد، وخاصة في العبارة الأخيرة منه، توضحت غاية المؤلف من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراء دعوته إلى الحوار الإسلامي المسيحي وذلك عندما عرض «آلية الحوار» ورسم «فضاءها الفكري».

فهو لا يرى في (الإسلام والمسيحية رسالتين سماويتين يقوم بينهما الحوار على أساس من تبادل الإقرار بصدق كل.منهما ثم ينطلقان سوية إلى البحث عن القواسم الجامعة وهي: «وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك»، و«عن الزوجة والولد» و«حقيقة المعاد وقيام الساعة).

ولكنه يرى، رسالة واحدة هي «المسيحية» ويرى الإسلام دعوة نصرانية انشطرت عن المسيحية انشطاراً فرضته السياسة، وأحقاد الحروب، لذلك تقع على عاتق الحوار مهمة العودة بهذا الشطر إلى أرومته التي انبثق عنها. وبذلك فقط تتحقق الوحدة التي دعا إليها القرآن تحت راية الدين الواحد «والشهادة الواحدة لله والمسيح». (الأنبياء ٢١/ ٩ والمؤمنون / ٢٣/ ٥٣).

وقد أدرك المؤلف أن هذا طرح شديد وأن الناس عامة والمسلمين خاصة. بعد أن يكتشفوا أبعاده ومراميه سوف يجابهونه بالرفض والاستنكار إن لم يدعَّم بالحجة الباهرة والبينة القاهرة.

لذلك، اعتمد على القرآن، اعتماداً يكاد يكون كلياً. واستعان في فهم آياته على مراجع من التاريخ والفقه لها موقعها المميز عند المسلمين كافة مثل «الاتقان للسيوطي» و«كتاب المصاحف للسجستاني» «والسيرة لابن هشام» و«تفسير الطبري» و«البيضاوي» و«ابن كثير» و«الرازي» و«الجلالين» و«طبقات ابن سعد».

وبذلك حدد المؤلف طريقه وطريقته، كما حدَّد الطريق والطريقة لقارئيه وناقديه، حيث يستطيع القارىء أن يُبقيَ على مطال يده، جميع هذه المراجع، بما فيها القرآن والكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ليضع موضع التمحيص مقولات المؤلف ويستوثق من مدى صحة قراءته للآيات وصدق استدلاله بالمراجع.

والآن: كيف قرأ الآيات واستخرج منها الأحكام والمفاهيم والمعاني التي طرحها في كتابه؟.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولاً: المسيحية والإسلام هما كلمتان من أمة واحدة على دين واحد وشهادة واحدة هي الله والمسيح:

لقد وضع المؤلف هذه المقولة معتمداً على الآيتين ٩٢ ـ الأنبياء، ٥٢ ـ المؤمنون.

فالآية: **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾**.

والآية ٢٣/ ٥٢: **﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾**.

غير أن قراءة هاتين الآيتين وفهمهما على ضوء موقعهما من السورة يوقفنا على معناهما الحقيقي. فالآية ٢١/ ٩٢ وردت خاتمة وتتمة ونتيجة لآيات بدأت من الآية (٤٨) متحدثة عن النبيين موسى وهارون ثم عن إبراهيم من الآية ٥١ ـ حتى الآية ٧١ ـ إذ نجَّاه الله ولوطاً إلى الأرض التي **﴿باركنا فيها للعالمين﴾** ثم عن إسحاق ويعقوب حتى الآية ٨٤ ـ ثم عن إسماعيل وإدريس وذا الكفل حتى الآية ٨٦ ـ ثم عن ذي النون حتى ٨٨ ـ ثم عن زكريا حتى الآية ٩٠ ـ ثم الآية ٩١ ـ عن مريم وابنها عيسى **﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾** ثم تأتي الآية ٩٢ ـ التي اعتمدها المؤلف **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾**.

إن أي قارىء لهذه الآيات، لن يحتاج إلى كتب التفسير ليدرك أن وحدة الأمة في الآية لا تعني «أتباع الدعوة الإسلامية» و«أتباع الدعوة المسيحية» تحت شعار واحد هو شعار المسيحية وشهادة واحدة هي الشهادة للمسيح وحده بل تعني أن الأمة، هنا، هي الدين الواحد الذي جاء به الأنبياء جميعاً، بدءاً من نوح حيث اتخذ صيغته وعنوانه على يد أبي الأنبياء إبراهيم الخليل وهو الإسلام بمعناه الحقيقي الذي هو التسليم لله بالفطرة التي فطر عليها الناس.

وكذلك الآية ٢٣/ ٥٢ ـ المؤمنون.

فقد جاءت في خاتمة عدد من الآيات التي تحدثت عن الأنبياء والرسل. بدءاً من نوح من الآية ٢٣ ـ ٣٠ ثم قصة هود حتى الآية ٤١ ـ ثم الآيات من ٤٢ ـ ٤٤ التي تحدثت عن القرون التي تلت والرسل التي أرسلت ثم قصة موسى وهارون من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآية ٤٥ ـ ٤٩ ثم عن ابن مريم وأمه في الآية ٥٠ ـ ثم الآية ٥١ ـ التي لخّصت الخطاب وبينت حكم الله إذ توجهت بهذا النداء: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيّبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ ـ ٥١. ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ ـ ٥٢.

بعد هذا نرى أننا لسنا في حاجة إلى أي جهد آخر لإثبات خطأ استدلال المؤلف بالآيتين ٩٢ و٥٢.

ثانياً: القرآن يذكر النّصارى تارة بالثناء عليهم وطوراً بالتكفير لهم:

هذه المقولة هي أيضاً إحدى الاستنتاجات التي جاء بها المؤلف أخذاً من الآيات الثلاث (١٤ ـ ٨٥ ـ ٨٨) من سورة المائدة لذلك عدنا إلى الآيات المذكورة فوجدناها كالآتي:

ـ الآية ٥/ ١٤، ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾.

جاءت هذه الآية بعد الآيتين ١٢ و١٣ اللتين تحدثتا عن بني إسرائيل الذين أخذ الله ميثاقهم وقال لهم إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً ولكنهم نقضوا الميثاق وحرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به فلعنهم وجعل قلوبهم قساة، ثم جاءت الآية ١٤ ـ لتتحدث أيضاً عن قسم من النصارى بقولها: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى...﴾ وهي عود بالذاكرة إلى الذين أجابوا عيسى (عليه السلام) بقولهم ﴿نحن أنصار الله﴾.

هؤلاء الذين يدّعون أنهم نصارى بالمعنى المذكور، ولكنهم بنسيانهم الحظ الذي ذُكّروا به، ونقضهم للميثاق استحقوا ما أوقع الله بينهم من العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

والحظ الذي نسوه، هو الإيمان بالنبي محمد، كما وضحت الآيتان ١٥ و١٦: ﴿يا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا. . .(١٥) يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السّلام. . .(١٦)﴾.

ثم ينتهي الحديث معهم إلى الآية (١٧): ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. . .﴾.

وذلك:

لأن ثمة تفريقاً بين من يقول: ﴿إن الله هو المسيح﴾ وبين من يقول: ﴿إن المسيح هو الله. . .﴾ فهما ـ أي القولان ـ في عداد الكفار إلاّ أن القول الأول يندرج في مقولة بعض النصارى الذين روّجوا أن الله تعالى حلّ في بدن المسيح. منفردين عن الباقين الذين يقولون: «إن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام. فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو لا يكون فإن كان ذاتاً فإن ذات الله تكون قد حلت في عيسى واتحدت به فيكون عيسى هو الإله على هذا القول وإن كان الأقنوم صفة فإن انتقال الصفة من ذات إلى ذات بجعل الذات الأولى معطلة منه. وبما أن أقنوم الكلمة هو أقنوم العلم فإن تعطيل ذات الله منه هو نفي للعلم منها. وبذلك يسقط الاحتجاج بألوهية المسيح، (تفسير الرازي).

أما ثناء القرآن على النصارى في سورة المائدة فإنه يقع في الآيات ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥ التي جاءت مباشرة بعد الآيات التي تحدثت عن لعن اليهود على لسان داوود وعيسى بما عصوا وكانوا يعتدون، ولا يتناهون عن منكر فعلوه (٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١).

ليصل القرآن بعدها إلى آيات الثناء، ولكنه يبدؤها بالتحذير من اليهود الذين هم أشد الأعداء على الذين آمنوا: ﴿لتجدن أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين (٨٣). . .﴾.

ولنلاحظ بإمعان:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ان الآية أوردت اليهود عامة وقدمت عداءهم للمؤمنين على عداء المشركين.

ـ في حين أنها تحدثت عن النصارى بقولها: ﴿الذين قالوا إنّا نصارى﴾ أي ليس جميع النصارى بل الذين جاهروا بهذه الصفة. وهؤلاء: إما أن يكونوا هم الذين جاهروا بنصرة المسيح عندما دعا إلى نصرة الله فلم يبالوا بغضب اليهود وسخطهم. وإما ـ كما هو عليه أغلب أهل التفسير ـ أن يكونوا «النجاشي وأصحابه» الذين بكوا عندما قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم.

ـ ان وجه التفاوت بين اليهود والنصارى الآخرين الذين لم يكونوا المعنيين بهذه الآية هو أن كفر اليهود ناجم عن منازعتهم في النبوة (نبوة عيسى ومحمد) في حين أن كفر النصارى ناجم عن منازعتهم في النبوة (نبوة محمد) ومنازعتهم في الألوهية (بقولهم إن المسيح هو الله) لذلك يرى الكثيرون من أهل التفسير أن كفر اليهود هو الأخف.

ولكن الله طردهم وخصهم بالمزيد من اللعن. بسبب حرصهم على الدنيا وإقدامهم على إيصال الشر إلى من يخالفهم في الرأي الديني. أما النصارى فإن الإيذاء والشر محرمان عندهم وهم مأمورون بالإعراض عن الدنيا والإقبال على الله وترك الترفع والتكبر.

وفي الحديث الشريف مثل ما في القرآن إذ قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

ثالثاً: التخصيص في معرض التعميم والتعميم في معرض التخصيص:

قال المؤلف: هذه الظاهرة تتكرر في القرآن فيتمسك الغافلون بظاهر الحرف فيتشابه عليهم المعنى ومثال ذلك: التّعميم الوارد في الآية ٦٥ ـ من سورة المائدة التي يشمل ظاهر لفظها جميع أهل الكتاب ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ في حين إن الآية ١٩٩ ـ من آل عمران تتحدث عن إيمان أهل الكتاب: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله. . .﴾.

وكذلك التعميم الوارد في الآيتين ٩٨ ـ ٩٩ من آل عمران ﴿قل يا أهل الكتاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تكفرون بآيات الله. . . قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن. . .﴾.

الذي تنقضه الآيتان ١١٣ ـ ١١٤: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل. . . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . .﴾.

وهذه الأمة المعنية هي «الأمة الكتابية» التي ورد تعريفها الكامل في الآيتين ١٥٨ ـ من الأعراف و١٤ ـ من الصف.

أقوال المؤلف هذه أخضعت إلى المناقشة التالية:

١ ـ الآية ٥/ ٦٥ ـ المائدة مرتبطة بالآية (٦٦) التي تليها وبقراءتهما سوية يتبيَّن المقصود الحقيقي بكلماتهما وليس ظاهر الألفاظ فقط، كما قال المؤلف:
﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم(٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون(٦٦)﴾.

فالضمير في «أنهم» يعود إلى أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ولم يتقوا ولم يقيموا التوراة والإنجيل ولا ما أنزل إليهم من ربهم. ولو فعلوا لنالوا الثواب والجزاء الذي وصفته وعددته الآية (٦٦) فالإشارة إلى أن إيمانهم غير مقبول. إلاّ بإقامة الكتابين وما أنزل إليهم. أي إن الذي أنزل بعد الكتابين للناس كافة هو القرآن» تلك الإشارة هي تصريح بوجوب إقامة الكتب الثلاثة والإشارة إلى التوراة والإنجيل بالاسم تصريح بأن «أهل الكتاب في الآية ـ ٦٥» هم اليهود والنصارى الذين يقوم حديث الآية عنهم.

والإقامة تعني الإقرار بصحة الكتب والإيمان بما تضمنه الكتابان من التبشير ببعثة النبي (ص) هذه الصيغة التي وردت عامة:

لا تنفي صحة إيمان من آمن من أهل الكتاب. فالدعوة الإسلامية انتشرت بين الناس كافة فقبلها وآمن بها عدد من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس. لذلك يكون قول المؤلف: باختلاط الرؤية عند قارىء الآية ٥/ ٦٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ المائدة و٣/ ١٩٩ ـ من آل عمران هو قول يندرج في المماحكة الكلامية. لأن أيَّ قارىء للآية ١٩٩ ـ لن يشك في أنها تعالج حالة خاصة:

«﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾.

فسواءٌ أفهمها القارىء بتفسير من قال إنها نزلت بعد أن صلّى النبي صلاة الغائب على النجاشي أم إنها في عبد الله بن سلام وأصحابه. أم إنها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام وأسلموا أم إنها نزلت ـ كما قال مجاهد ـ في مؤمني أهل الكتاب كلهم».

فهي لا تتناقض ولا تتعارض مع صيغة العموم في الآية (٦٥) لأنها وضعت صفات هذه الفئة من أهل الكتاب وهي «الإيمان بالله» و«الإيمان بما أنزل على النبي ـ القرآن» و«بما أنزل إليهم قبل القرآن وهي التوراة والإنجيل وما تركه الرسل». و«كونهم خاشعين لله» و«أنهم لا يشترون بآياته ثمناً قليلاً».

وغني عن البيان أن التناقض المدعى به، كان يمكن أن يكون. فيما لو جاءت الآية ١٩٩ ـ بصيغة العموم حيث تكون آنذاك آيتان بصيغة واحدة تتحدثان عن أهل الكتاب بوصفين مختلفين.

٢ ـ وكذلك هي الحال في التعميم الوارد في الآيتين ٩٨ و٩٩ المنقوض بالتخصيص الوارد في الآيتين ١١٣ ـ ١١٤ فالآيتان ٩٨ ـ ٩٩ وردتا بعد آيات تحدثت عن المحلل والمحرم من الطعام عند بني إسرائيل وعن حج البيت ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ـ ٩٧﴾.

﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون (٩٨) قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عِوَجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (٩٩)﴾.

ولقد قيل في تخصيص أهل الكتاب هنا:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن ما سبق من آيات كانت أدلة عليهم من التوراة والإنجيل، لذلك اقتضى تخصيصهم لاستمرار سياق الكلام في حين أن من يكفر بآيات الله ويصدّ عن سبيله من آمن به ينطبق عليه النص القرآني ولكن التخصيص هنا بأهل الكتاب اقتضته ضرورة السرد القرآني.

بعد ذلك ننتقل إلى الآيتين ١١٣ و١١٤ من آل عمران.

﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين (١١٤)﴾. فقد تعددت حالات الاستدلال هنا عن «أهل الكتاب» و«الأمة القائمة» فقالوا:

قد يكون المراد بأهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه. وقد يكون المراد، الأربعين رجلاً من نجران والثلاثة من الروم والاثنين والثلاثين من الحبشة الذي أسلموا. وقد يكون المقصود كل من أوتي الكتاب من أهل الأديان، فيكون المسلمون في جملتهم. وهذا أيده ابن مسعود بما رواه عن النبي (ص) أنه أخّر الصلاة وخرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما إنه ليس من أهل الأديان أحدٌ غيركم يذكر الله في هذه الساعة» وقرأ الآية (١١٣). من آل عمران.

أما الأمة القائمة فهي المستقيمة العادلة كقولك «قومت العود فقام أي فاستقام» والقائم بالدين هو المتمسك به والثابت عليه. وقال الفراء «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» أي مواظبة على الدين ثابتة عليه. ومنه الحديث الشريف «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فإن لم يفعلوا فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم» ـ لسان العرب ـ مادة ـ قَوَمَ».

وقد جاءت أوصاف هذه الأمة بما جعلها تستحق لقب «الأمة القائمة» وهذه الأوصاف هي: «تلاوة آيات الله آناء الليل» و«الصلاة بركوعها وسجودها» و«الإيمان بالله واليوم الآخر» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و«المسارعة إلى أعمال الخير».

وهي بالمدلول القرآني:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنطبق على كل أمة تحققت فيها هذه الأوصاف، سواء أكانت ﴿من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ ٧/ ١٥٩ ـ الأعراف أم كانت التي عنتها الآية ٦١/ ١٤ ـ الصف ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾.

بقي أن نقول كلمة في المدلول القرآني للأمة: فهذا التعبير «وإن كان ينبىء عن الكثرة ويقتضيها إلاّ إنها وردت في بعض آيات القرآن مقابلة مع مجموعة مما اقتضى أن تَرِدَ بلفظها، حتى ولو أنبأت عن العدد القليل كقوله تعالى في سورة النحل ١٦/ ١٢٠ ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين﴾ وقوله في آل عمران ٣/ ١٠٤ ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ فقد فسر البعض أن «منكم» هي للتبعيض.

بعد هذا نستطيع أن نقول:

لو قرأ المؤلف تلك الآيات قراءة معمقة، ولو نظر فيها نظرة حيادية ـ كما يقتضي العلم ـ لما وجد فيها تناقضاً، ولما كان وجد حالة الالتباس والغموض والتعارض بين العموم والخصوص ـ كما عبر عن ذلك ـ ولكنه مع الأسف، ابتزّ من الآيات معانيَ وأهدافاً ليست منها، وليست فيها، ورأى تشويشاً واضطراباً هي خالية منهما تماماً.

رابعاً: الطامة الكبرى ـ التكفير.

أشار المؤلف إلى أن القرآن بعد أن عرض في الآيات ٥/ ١٧ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ من سورة المائدة مَوْقِفَهُ وتقييمه للنصارى عاد في الآيات ٥/ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥ من ذات السورة فأثنى عليهم ووصفهم بأنهم الأقرب مودة للذين آمنوا. وأن منهم القسيسين والرهبان وأنهم لا يستكبرون. وأن عيونهم تفيض من الدمع إذا ما سمعوا ما أنزل إلى النبي وذلك مما عرفوا من الحق.

ولقد كنا في الفقرة «ثانياً» قرأنا آيات الثناء، وعدنا إلى ظرفها التاريخي وبيّنا أن الرسول (ص) أبلغها إلى الناس مخصوصة ومحصورة في مناسبة خاصة وفئة خاصة من النصارى الذين توافرت فيهم تلك المواصفات ولم يتعامل المسلمون معها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أنها براءة لجميع عقائد التثليث والإشراك وقد جاءت الآيات متلاحقةً كيلا يقع الناس في الالتباس مثلما حصل مع المؤلف الذي لم يدرك المغزى من تتابع هذه الآيات فقرأها مستقلة، بعضها عن بعض.

ولكي تكون الفكرة أكثر وضوحاً نرى من المفيد أن نقرأها متتابعة بأرقامها:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ (٥/ ١٧) **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم عليه الله الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾**(٥/ ٧٢) **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد...﴾** (٥/ ٧٣) **﴿ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾** (٥/ ٧٥) **قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾** (٥/ ٧٦).

ثم تأتي الآيات ٥/ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ لتعدد الأسباب التي أوجبت لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى وهي إنهم، «عصوا» و«كانوا يعتدون» و«كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه» و**﴿يتولَّون الذين كفروا﴾** (٨٠). **﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء، ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾** (٨١).

بعد هذه الآيات جميعها، بدءاً من ٧٢ حتى ٨١. جاءت آيات الثناء، استثناءً مما تقدم، لتصف الذين قالوا إنا نصارى بأنهم عرفوا الحق فاتبعوه، وأنهم انعتقوا من الميراث العقائدي والطقوسي الخاطىء، وتابوا عن الغلوّ في المسيح، وآمنوا به رسولاً قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ويعيشان مثل الناس بين الناس.

فقالت عن هؤلاء: إنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا:

- لا نجد في آيات التكفير ما يدلّ على تخصيص النصارى.

- بل نجد كلمة «نصارى» دون تخصيص أو تعريف.

- ونجد التكفير مبنياً على قواعد، لها صفة الدوام، دون أن يختص بها جيل أو عهد أو فئة وهذه القواعد هي تكفير كل من قال «بأن الله هو المسيح» أو «أن الله ثالث ثلاثة» لأن ذلك القول هو عنوان الشرك والدليل على المشركين، وهو لا يلتقي مع التوحيد في صدر واحد. لذلك: يظل قول القرآن قائماً يدفع كل من يقول هذا القول مهما تتالت السنون وأيّاً كان القائل.

- ثم نجد المؤلف وقد سقط في التناقض إذ مادام يؤكد على أن النصارى - سواء أكانوا قليلي العدد أم العكس - ملتزمون بعقائد الإسلام. لأنهم والإسلام أُمَّةً واحدة لا يتناقضان ولا يتعارضان، ويؤكد على عدم اعتقادهم بألوهية المسيح أو بنوته من الله.

ومادام أن التكفير في القرآن أطلق على من يعتقدون هذا المعتقد. دون غيرهم من النصارى فإن إسقاط المؤلف لآيات التكفير على النصارى، هو فهم خاطىء منه إن لم يكن هذا الفهم مبنياً على قصد غير كريم.

- وأيضاً سواء أكانت الآيات (الطامة) نزلت على أثر الجدال مع وفد نجران أم لا فإنها أوضحت نظرة القرآن إلى كل من يغالي في السيد المسيح أو يجعل مع الله شريكاً في الألوهية أو العبادة. وهي نظرة ثابتة متلازمة مع كل مسلم، بحيث لا يكون مؤمناً - بنظر الإسلام - ما لم يكن مؤمناً بتنزيه الله عن الولد والشريك.

وبذلك يكون الخطاب القرآني، خطاباً عاماً يتجاوز الزمان والمكان ليكون إحدى القواعد الإسلامية الراسخة في العقيدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما قول المؤلف: إن الآيات نزلت، حصراً، في وفد نجران الذي كان على البدعة اليعقوبية والتي كانت الكنيسة قبل القرآن قد كفرتها وطردتها وحرّمت مقالتها، فهو قول «ديماغوجي» أكثر منه علمي، وسوف نلتقي مع المؤلف في أمكنة عديدة من كتابه يكرر هذا الرأي ليلقي ما لديه من سلبيات على اليعقوبية، وليخرج المسيحية من حقل الرماية القرآني.

ونحن وإن كنا سوف نتصدى لفكره، عقائدياً وتاريخياً، نضع في هذا التمهيد مختصراً شديداً من القول عن اليعقوبية، كيلا نترك أقوال المؤلف حرة من الاعتقال ولو إلى حين.

إن الكنيسة لم تختلف مع اليعقوبية حول بُنُوّة المسيح من الله. إن كلتاهما ترفضان «نبوّته» وتؤمنان «ببنوّته» الطبيعية من الله. ولكن يعقوب البرادعي الذي تبنى آراء الكنيسة المصرية والذي سميت هذه الشيعة باسمه. بسبب قوة حجته. وديناميكية شخصيته. قال: باتحاد الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في المسيح وأن الإيمان المسيحي الحقيقي هو في هذا الاتحاد الذي قام سر تجسده، دون اختلاط أو امتزاج أو تبلبل. وكان من قبله الراهب نسطوريوس، بترك أنطاكية، قال بتكون شخصية المسيح من الطبيعتين معاً. فالله الكلمة، والإنسان يسوع، هما شخصيتان منفصلتان ومستقلتان تماماً ولهذا لا يمكن بحسب رأيه أن يقال: «الله وُلد» بل الذي ولد من مريم هو الإنسان. كما لا يقال «الله صُلب وتألم» بل الإنسان. ونظراً إلى أن القول بالطبيعتين، سواء أكان القول بأسلوب نسطور أم بأسلوب يعقوب ينتهي إلى نكران سر تجسد الله الكلمة، وفداء الجنس البشري بآلام وموت الرب يسوع، فقد قررت الكنيسة طرد وحرمان وتكفير نسطور في مجمع أفسس بعام ٤٣١م ويعقوب في مجمع خلقيدونيا بعام ٤٥١م. (تاريخ الكنيسة المسيحية ـ مترجم عن الروسية بعام ٩٦٤م ص ٢٥٢ ـ وما بعدها لمطران حمص الكسندروس).

فكِلتاهما النسطورية، واليعقوبية لم تكونا على شيء من العقائد التي نسبها المؤلف إلى فئة النصارى التي اعتنقت الإسلام. وخاصة لجهة التوحيد ونبوة عيسى المسيح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

القرآن في حوار مع بني إسرائيل من يهود ونصارى

توطئة: الهدف الثاني للقرآن دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام

قال المؤلف: للقرآن هدفان أولهما: دعوة العرب إلى دين الكتاب (٤٢/ ١٣) الشورى. ودين الكتاب هو الإسلام الذي شهد عليه «الله» و «أولوا العلم»: (٣/ ١٨ ـ ١٩) آل عمران.

والهدف الثاني: دعوة أهل الكتاب إلى هذا الإسلام ٥/ ١٩ ـ المائدة لذلك يقول للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد أهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد.

وهذا الإسلام قائم قبل دعوة النبي (ص) وتدين به أمة من أهل الكتاب قبل نزول القرآن ٢٨/ ٥٢ ـ ٥٣ القصص. وهي التي حددها القرآن بالآيتين ٧/ ١٥٨ ـ الأعراف و ٦١/ ١٤ ـ الصف.

ويخلص المؤلف إلى النتيجتين التاليتين:

١ ـ إن أهل الكتاب الذين توجه إليهم خطاب القرآن هم «اليهود والنصارى من بني إسرائيل ٢٧/ ٧٦ ـ النحل.

٢ ـ القرآن هو دعوة لهؤلاء إلى الإسلام الذي يؤمن بالمسيح والإنجيل «على شريعة» من الأمر ـ ٤٥/ ١٧ الجاثية.

لذلك: بات علينا أن نقسم فقرات المناقشة على المواضيع المطروحة في هذه التوطئة.

أ ـ ليس صحيحاً أن الهدف الأول للقرآن هو دعوة العرب إلى دين الكتاب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتلك مغالطة من المؤلف تنفيها شمولية الدعوة الإسلامية.

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً...﴾ ٧/ ١٥٨ ـ الأعراف.

﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم...﴾ ٨/ ٢٤ ـ الأنفال.

﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم...﴾ ٤/ ١٧٠ ـ النساء.

﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين...﴾ ٣٣/ ٤٠ ـ الاحزاب.

والآية التي أعتمد عليها المؤلف هي ١٣ ـ من سورة الشورى ـ لا تفيد تخصيص العرب بدعوة القرآن، خاصة وقد ورد النفي المطلق في الآية ٣٤/ ٢٨ ـ من سورة سبأ: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (وهو نفي صريح للتخصيص).

فالآية ١٣ ـ من سورة الشورى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾.

هي توضيح بأن دين الأنبياء واحد، ولكن شرائعهم هي المختلفة فقط. باختلاف الزمان والمكان ومدارك الإنسان. وفي الحديث الشريف: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن أختلفت الشرائع وتعددت المناهج لقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ ٥/ ٤٨ ـ المائدة.

ب ـ وليس صحيحاً أيضاً قول المؤلف: «ودين الكتاب هو الإسلام الذي يشهد به أولوا العلم قائما بالقسط... ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (٣/ ١٨ ـ ١٩ ـ آل عمران).

فإن لم يكن من جدال في القرآن أن الإسلام هو دين كل كتاب سماوي ـ للوحدة الأزلية بين الأنبياء فإن خطأ المؤلف يكمن في ربط: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ بالآية السابقة لها وعرفهما كآية واحدة ليصل من ذلك إلى أن الإسلام الذي دعا إليه النبي(ص) يحتاج دوماً إلى شهادة أولي العلم بحقه وصدقه، وأن شهادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هؤلاء مقرونة بشهادة الله وملائكته. وأن أهل العلم هم النصارى.

ذلك من المؤلف كان دوراناً بلغ حدَّ الترنّح.

ـ فالآية ١٨ ـ هي آية مستقلة: بدأت بمقدمة وأنتهت بنتيجة. ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾ أي إن الشهادة هي لوحدانية الله العزيز الحكيم.

ـ والآية الثانية ١٩ ـ هي مستقلة أيضاً وفيها ابتدأ الكلام بأن ذات الهمزة المكسورة. لكي توضح أن الإسلام هو الدين عند الله وأنه هو دين أهل الكتاب عامة من يهود ونصارى ومسلمين وأنهم لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات والعلم.

﴿**إن الدين عند الله الاسلام وما أختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب**﴾ ٣/ ١٩.

ج ـ أما خطاب القرآن لأهل الكتاب في الآية ٥/ ١٩ ـ المائدة. فلا يفهم منه أن دعوة الإسلام أستهدفتهم دون سواهم. بل ليوضح لهم أن التحريف والتغيير تطرقا إلى الشرائع خلال الفترة بين الرسل لطول الزمان وبعد العهد. فاختلط الحق بالباطل والصدق بالكذب. (قيل: كانت الفترة بين محمد وعيسى ستماية سنة أو أقل أو أكثر قليلاً. وبين عيسى وموسى ألفاً وسبعماية سنة وألفي نبي وكان بين عيسى ومحمد أربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب هو خالد بن سنان العبسي ـ تفسير الرازي للآية ١٩ من سورة المائدة).

ولكن ابن كثير ينفي الأنبياء بين عيسى ومحمد بالأستناد إلى حديث رواه أبو هريرة وأثبته البخاري (أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي).

د ـ أما وجه إحتجاج المؤلف بالآية ٢٠/ من آل عمران وقوله: إنها خطاب من القرآن إلى أهل الكتاب جاء بصغية الصراخ ـ كما قال المؤلف ـ فهو إحتجاج مرفوض. أدباً وتفسيراً ومناسبة.

ـ لأنه يبتعد عن أدب الجدال مع القرآن الذي هو أعظم كتاب قرأه الناس. ولأن أسلوب الآية ١٩ ـ وما قبلها وما بعدها هو أسلوب هادىء عميق بعيد عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنفعال ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن أتبعنِ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتهم فإن أسلموا فقد أهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾.

ـ ولأن المفسرين متفقون على أن هذه الآية تناولت جميع المخالفين والمناهضين لدعوة النبي من يهود ونصارى ومشركين ومجوس وسواهم.

فلا يصح أعتماد هذه الآية دليلاً على تخصيص الدعوة بأهل الكتاب من بني إسرائيل. خاصةً وقد تعددت الآيات في شمولية الدعوة وشمولية القرآن.

﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾٢٥/١.

وقد جاء في مختصر ابن كثير عند تفسير الآية ٣/٢٠ ـ آل عمران «في الصحيحين وفي غيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه (ص) بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيِّهم وأميِّهم أمتثالاً لأمر الله بذلك وقد روي عنه أنه قال «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار ـ رواه مسلم عن أبي هريرة». وقال: «كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ـ أخرجه البخاري وأحمد».

هـ ـ والآيتان ٢٨/٥٢ ـ ٥٣ من سورة القصص: نزلتا في وفدٍ من القسيسين أرسلهم النجاشي إلى النبي فقرأ عليهم سورة (يّس والقرآن الحكيم) فجعلوا يبكون وأسلموا وقالوا: إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أي موحدين خالصين ومستجيبين لله فجاءت الآية ٢٨/٥٤ ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ أي إنهم إستحقوا الأجر مرتين لأنهم آمنوا بالكتاب الأول وبالكتاب الثاني.

و ـ ولقد أخطأ المؤلف في إستدلاله بالآيتين ٧/١٥٩ الأعراف و ٦١/١٤ ـ الصف.

فالآيتان تحدثتا عن مناسبتين تستقلان في الزمان والمكان.

وهما لا تبرتبطان بالآيتين ٥٢ ـ ٥٣ من سورة القصص. لذلك أخطأ المؤلف عندما قال: «إن الأمة التي تحدثت عنها آيتا سورة القصص ٥٢ ـ ٥٣ هي الأمة التي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحدثت عنها وحددتها الآيتان ٧/ ١٥٩ الأعراف و ٦١/ ١٤ الصف وذلك:

ـ لأن آيتي سورة القصص لا تتحدثان بكلمة عن الأمة.

ـ ولأن الآية ٧/ ١٥٩ الأعراف تحدثت عن أمة من قوم موسى: **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾**.

ـ ولأن الآية ٦١ ـ ١٤ الصف تحدثت عن الطائفة التي أستجابت إلى دعوة عيسى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾**.

وللدلالة على أن الأنصار الذين دعاهم النبي محمد (ص) هم غير الأنصار الذين دعاهم المسيح وَرَدَ في الصيغة اللغوية ما يفيد هذا التفريق. فعيسى قال من أنصاري إلى الله وهو قول جاء في صيغة السؤال الذي كان جوابه من الحواريين نحن أنصار الله. أما أنصار الدعوة الإسلامية فقد ورد الإخبار عنهم بصيغة الأمر والوجوب لذلك لم يقتض منهم جواباً.

البحث الأول

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على العموم

قال المؤلف: إن اصطلاح «أهل الكتاب» يشمل اليهود والنصارى على العموم. غير أن تحديد هوية الفريق الذي خاطبه القرآن بهذا المصطلح يعتمد على القرائن اللفظية واللغوية في الاسلوب القرآني.

فأهل الكتاب وإن كانوا فريقين ضمن مصطلح واحد فإن موقف القرآن محدَّد تجاه كل منهما:

ـ فالفريق الأول هم اليهود وصفوا في القرآن بصفات لم يشترك فيها الفريق الثاني: «فهم أول كافر به» ٢/ ٤٠. وهم «الذين نبذوا ما جاءهم من الرسول» ٢/ ١٠١. و«الذين يودون أن يردوا المؤمنين عن إيمانهم» ٢/ ١٠٩ وقد أطلق القرآن عليهم صفة «أولي العلم» ٣/ ٧ و٤/ ١٦١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أما الفريق الثاني ـ النصارى. فهم الذين ينصرف إليهم كل ثناء يغدقه القرآن على أهل الكتاب ـ ٥/ ٨٥. لا يشترك معهم في هذا الثناء غير العدد القليل الذي أَسلم من اليهود[١].

وعبارات الثناء تأتي في عدد من المصطلحات التي خصهم بها: «المحسنين» و«المقسطين» و«المسلمين من قبله» وحيثما وردت كلمة النصارى في آية تذمُّ مواقف أهل الكتاب ـ تكون مدسوسة دسّاً لأن التعريض القرآني لم يقع إلا على اليهود والمشركين العرب. (تلك خلاصة عن أفكار المؤلف).

ويقدم المؤلف مثالاً على أقواله: الآية ٢/ ١٢٠ ـ البقرة التي إذا ما قرئت مع الآية ٢/ ١٢ تبيّن أن كلمة «ولا النصارى» المعطوفة على اليهود مدسوسة في الآية ـ استجابةً لظروف السياسة والحروب التي كانت في عهد جمع القرآن تحت إشراف عثمان قد تحكمت في عواطف الناس ـ لم ينج منها أَحَدٌ حتى أعضاء لجنة جمع الكتاب.

تلك المقولات أطلقها المؤلف على أنها مسلَّمات وأحكام لاتحتاج لأي مرجع. لذلك اعتمد في صياغتها وبناء أحكامه عليها، على فهمه الخاص لآيات القرآن. حتى إنه بالغ في الإعتداد بالذات مبلغاً جعله في أحيان ـ كما سوف يمر معنا ـ لا يتقيد باللغة. ولا بالأصل العربي للكلمة. فهو يشتق منها معاني لغوية. ومفاهيم قرآنية. كما يشاء، لا كما يشاء القرآن وتشاء مراجع اللغة.

لذلك:

وبما أن مسلماته ليس لها جذور مرجعية بات من السهل مناقشتها وبيان الزيف والضلال فيها، خاصة وإن مادة الرأي والرأي المضاد، هي في القرآن وأن القرآن مفتوح الدفتين منذ أربعة عشر قرناً لكل قارىء ومفسر ومدقق ودارس. وتتلخص مناقشتها بالآتي:

---

(١) وعبارات الثناء تأتي في عدد من المصطلحات التي خصهم بها «المحسنين» و«المقسطين» و«المسلمين من قبل».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ إن أهل الكتاب لم يكونوا فريقين فحسب بل أربعة فرقاء: «اليهود الذين آمنوا بالإسلام» و«اليهود الذين كفروا وعارضوا» و«النصارى الذين كفروا» و«النصارى الذين آمنوا».

ومن المستحيل أن نجرد الذين أسلموا من اليهود والنصارى، من هذه التسمية. لأن القرآن تحدث عنهم في عدد من الآيات ووصفهم بالهدى والإيمان. كما تحدث عن إسلامهم بمعناه الشمولي حتى قبل نزول القرآن ٣/ ٥٢ و٥/ ١١١ و٢٩/ ٤٦ و٢٧/ ٤ و٢٨/ ٥٣.

٢ ـ **﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به﴾** (٢/ ٤١ البقرة).

هذه الآية توجَّهت إلى يهود المدينة محذرةً إياهم من أن يكونوا أول كافر بالقرآن والإسلام. فهي لا تدل على أن اليهود هم فعلاً أول الكفار بالدعوة. خاصة وفي الوقائع التاريخية وفي تسلسل أزمنة النزول ما يدل على أنَّ أول من كفر وعارض وعاند هم المشركون من قريش.

وقد فسَّر القراء «مقاصد ـ أول كافر به» فأتفقوا إلا القليل منهم على أنها تحذير لليهود من أن يكونوا أول الكافرين من أبناء ملّتهم فيقتدي بهم البقية وينتشر الكفر بينهم جميعاً.

ـ و**﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾** ٢/ ١٠١ البقرة.

في هذه الآية وخاصة عبارة «نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب» دليل على أن القرآن لم يطلق صفة الكفر على جميع الذين أوتوا الكتاب من اليهود. وقد أتفق المفسرون على أن هذا الفريق المخصوص بالآية هم طائفة من اليهود كان يتولاهم «لبيد بن الأعصم».

وقد روي أن مالك بن الصيف قال حين بعث رسول الله (ص) فذَّكر اليهود ما أخذ عليهم من الميثاق وما عُهد إليهم في محمد: «والله ما عُهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاق» فأنزل الله: **﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾**.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونبذه، هنا تعني نقضه، فأصل النبذ هو الطرح والإلقاء. ومنه سمي اللقيط منبوذاً وكذلك التمر والزبيب نبيذاً إذا طرحا في الماء. وقال أبو الأسود الدُّؤلي:

نظـــرت إلـــى عنـــوانـــه فنبـــذتـــه كنبـــذك نعـــلاً أخلقـــت مـــن نعـــالكـــا

- ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً. حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق. . . .﴾ (٢/ ١٠٩: البقرة).

إن عبارة «كثير من أهل الكتاب» دلت على أن القرآن لم يخصص اليهود كلهم بعبارة «أهل الكتاب» ففي هذه الآية مثل ما في الآية ٢/ ١٠١ ما يدل على أن القرآن لم يعمم صفة الكفر على جميع اليهود بل قصرها على الذين كابروا وعاندوا وظلموا وظلوا على عدائهم للدعوة.

وقد روي عن عبد الله بن عباس قوله: كان حُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود حسداً وكانا جاهدين في ردِّ الناس عن الإسلام ما أستطاعا، كما كان كعب بن الأشرف شاعراً وكان يهجو النبي (ص) فنزلت هذه الآية (ابن كثير).

٣ - وفي تخصيص النصارى جميعاً بآيات الثناء - كما زعم المؤلف - نستعيد قراءة الآيات التي أعتمدها في مقولته لنكتشف مدى الصحة في أقواله:

- ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون(٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين(٨٣)﴾ (المائدة٥).

هاتان الآيتان والآيات التالية لهما(٥/ ٨٤ - ٨٥) نزلت كما نقل عن ابن عباس - في النجاشي وصحبه حيث فاضت عيونهم بالدمع تأثراً وإيماناً عندما تلا عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم.

وفي رواية أخرى أن تلك الآيات نزلت في فئة من النصارى كانت على المنهاج الصحيح للإنجيل، لذلك وصفهم القرآن في آيات عديدة بالرأفة والخشوع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(وجعلنا في قلوب الذين أتبعوه رأفة ورحمة). (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليهم خاشعين لله. . .).

أي إن هذه الفئة أستحقت وصفها بهذه الأوصاف لأنها آمنت بالله وما أنزل على النبي (ص) القرآن وما أنزل إليهم ـ الإنجيل ـ إيماناً صادقاً خاشعاً لله.

﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ ١٢/ ٢٢ نزلت في النبي يوسف ﴿إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ (١٢/ ٧٨) نزلت في النبي يوسف أيضاً ﴿سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ (٣٧/ ١٢٠ ـ ١٢١). ﴿سلام على آل ياسين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين﴾ (٣٧/ ١٣٠ ـ ١٣١). ﴿إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما أتاهم ربُّهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ (٥١/ ١٥ ـ ١٦) أي كانوا في الدنيا محسنين. ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ (٤٩/ ٩) و﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾ (٥/ ٤٢).

لقد روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله (ص) قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش. الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وماولوا. . . أخرجه النسائي وابن أبي حاتم: (ورد هذا الحديث، في مختصر ابن كثير، بتفسير الآيتين ٦٠/ ٧ ـ ٩).

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ (٢/ ١٢٨).

وردت هذه الآية على لسان إبراهيم وإسماعيل بدليل الآية ٢/ ١٢٧: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم﴾. ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني.إن الله أصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (٢/ ١٣٢).

وهكذا تبين من شرح الآيات أن الصفات «المسلمين من قبل» و«المحسنين» و«المقسطين» و«آيات الثناء» وردت في القرآن مرتبطة بشروط إيمانية إذا توافرت في أي شخص أو أية فئة نالت ونال هذه الصفات. فهي ليست مخصصة بالنصارى كما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن إطلاق صفة «الكفر» على جميع أهل الكتاب من اليهود دون أستثناء المؤمنين منهم فيه تجاوز على القرآن وقصور عن فهمه.

البحث الثاني

القرآن يقصد بأهل الكتاب اليهود والنصارى من بني إسرائيل

تحت هذا العنوان طرح المؤلف الأفكار الآتية:

١ ـ الدعوة التي أطلقها القرآن بصوت صارخ، موجَّهة إلى أهل الكتاب وهم في عرفه «اليهود والنصارى» حصراً. والنصارى هم فئة من بني إسرائيل تَبِعت المسيح لذلك كان المسيحيون الأمميون خارج صراع الدعوة وبعيدين عن أهدافها (٢٧/ ٧٦ النمل).

٢ ـ طائفة النصارى من بني إسرائيل، هي التي أيدتها الدعوة الإسلامية وقالت بمقالتها وبذلك يكون أنتصار الإسلام هو «الإظهار» الذي كانت قد وعدت به، على الذين كفروا (٦١/ ١٤ الصف).

٣ ـ القرآن، هو دعوة نصرانية، توجهت إلى بني إسرائيل لأنهم أهل الكتاب والحكمة (التوراة والإنجيل) ٤٥/ ١٦ ـ ١٧ فالبينات والعلم آلا إليهم مع المسيح بالإنجيل، فلما كفروا لعنهم، ثم جاء القرآن فصدق لعنة المسيح على اليهود ٥/ ٧٨.

٤ ـ لقد حدد القرآن مهمة المسيح، وقضاءها الاجتماعي، إذ قال عنه «إنه رسول إلى بني إسرائيل ـ ٣/ ٤٩». وإنه عبد الله ولم يقل عنه إنه مثل للعالمين ٤٣/ ٥٣.

وينتج عن هذا:

ـ أن رسالة المسيح، والقرآن من بعده، لم يستهدفا كل الناس، بل توجها حصراً وقصراً في نطاق بني إسرائيل.

ـ وهدى التوراة، وحكمة الإنجيل، وجدا مجال نشاطهما الديني والأخلاقي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في بني إسرائيل لأن تعبير الحكمة، في المصطلحات القرآنية يعني الإنجيل ٤٠/ ٥٣ و ٤٣/ ٦٣.

ـ وبما أن الكتاب والحكمة، أوتيا بني إسرائيل، لذلك أقتصر حوار القرآن معهم. ووجه إليهم دعوته، دون غيرهم من الطوائف والأمم.

وسوف نفرد هذه المواضيع بالمناقشة التالية:

أولاً: إن «التفريق» بين النصرانية والمسيحية هو الركيزة الأساسية التي قامت عليها أفكار الكتاب. لأن المؤلف قرأ آيات الثناء على النصارى الذين نصروا المسيح ثم قبلوا دعوة النبي فيما بعد فرفضوا عقيدة التثليث وتوقفوا عن المغالاة بالمسيح وآمنوا بالقرآن وما أنزل قبله.

ثم قرأ أيضاً آيات التنديد والتكفير بمن يشرك بالله ومن ينسب إليه الزوجة والولد. وبدلاً من أن يعود المؤلف إلى أسباب النزول ومناسباته. وأن يستهدي بالمراجع اللغوية والتفسيرية ليفهم كيف صيغت هذه الصياغة البديعة، وكيف صار الجمع في القرآن بين الثناء والتكفير في فئة واحدة هي «فئة النصارى».

نقول: بدلاً من أن يحاول الخروج باليقين من هذا المغلق، اندفع بمواهبه الذاتية المجردة، يقطع ويوصل بعملية معقدة هي أشبه ما تكون «بالقيصرية» ولكنها ـ للأسف ـ لم تستخرج من أحشاء النصوص غير «خديج» (الخديج هو المولود الناقص الخلق).

ونحن إذ نشير دون تفصيل فلأننا سوف نقف وقفة مستفيضة في ما سياتي من فصول الكتاب مع هذا الموضوع وإذ ذاك سوف نستنطق التاريخ ونستعيد ما يمكن استعادته من آيات القرآن والإنجيل، لإبراز الخطأ الجنائي الذي ارتكبه المؤلف.

بعد ذلك سوف نعود إلى فكرة المؤلف التي ملكت عليه فضاءه الفكري، وهي: إن دعوة الإسلام لم تعرض على المسيحيين خارج «الجزيرة» بل أقتصر صوتها الصارخ على اليهود والنصارى ضمن جزيرة العرب.

ـ إن الآية (٧٦) من سورة النمل التي كانت معتمد فكرة المؤلف لا تفيد انحصار الدعوة الإسلامية واقتصارها على فئة أو جهة أو دين: ﴿**إن هذا القرآن يقصّ**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ ٢٧/ ٧٦ النمل.

فليس فيها ما يفيد بأن القرآن لم يَحْتَوِ إلا على «خلافات بني إسرائيل» ومن يقرأ القرآن يجد فيه من القصص والأحاديث والأحداث ما يجعل من خلافات بني إسرائيل جزءاً صغيراً وجانباً محدوداً من شمولية القرآن.

لقد ورد الكثير من الآيات وصح الكثير من الأحاديث في أممية الدعوة. وقد كنا ذكرنا بعضاً منها في الفقرة أ ـ من توطئة هذا الفصل وهو قليل من كثير. ويحدثنا التاريخ ويستفيض عن الأوامر الإلهية لبثّ الدعوة في أنحاء الكون المعروف آنذاك التي نهض بها الروّاد الأوائل جهاداً واستشهاداً. وقرضاً حسناً لله باعوا بموجبه أنفسهم إلى الله ﴿بأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيله فيقتُلُون ويُقتَلُون. . .﴾ ولو تحلّى المؤلف بروح الحياد والموضوعية لما رأى دعوة الإسلام محصورة بين جدران الجزيرة في الوقت الذي تتسامى المآذن وترتفع أصوات القراء فتمتلىء بها بلاد الفرس والروم والغال والصين والهند وأوربا والأمريكتين.

ثانياً: ورد تعبير «النصارى» في الآيات ٢/ ٦٢ ـ ١١١ ـ ١١٣ ـ ١٢٠ ـ ١٣٥ ـ ١٤٠ من سورة البقرة وفي الآيات ٥/ ١٤ ـ ١٨ ـ ٥١ ـ ٦٩ ـ ٨٢ من سورة المائدة وفي الآية ٣٠ ـ من سورة التوبة والآية ١٧ ـ من سورة الحج.

وفي هذه الآيات جميعها يتوجه الخطاب القرآني إلى أتباع المسيح بأنسابهم وطوائفهم كافة دون تخصيص طائفة أو إستثناء طائفة. فأثنى على الأفراد والمجموعات الذين آمنوا بالدعوة الإسلامية وأسقطوا من عقائدهم فكرة التثليث والبنوة وتأليه الأقنوم الثاني وأمه ـ بالإتحاد والإنفراد ـ كما ندد تنديداً شديداً وكفّر تكفيراً قاطعاً أرباب هذه العقائد دون تخصيص بفئة أو زمان أو مكان وأعتبر الموقف من هؤلاء موقفاً مستمراً مع الزمن غير قابل للتعديل أو الإلغاء.

وإنه لمن عبث القول أن التنديد والتكفير هما خاصان «باليعقوبية» وأتباعها، إذ لم يثبت أن للقرآن وللدعوة بوجه عام موقفين مختلفين في قضية واحدة، فما كان في تكفير من قال بألوهية المسيح أو بنوته وبالتثليث مقتصراً على طائفة ومتسامحاً فيها مع طائفة ثانية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولو جاز مثل هذا العبث لكان في مستطاع كاتب يهودي أن ينتضي كتاباً مثل الأستاذ الحداد يقول فيه: إن تكفير القرآن لليهود لم يكن واقعاً إلا على يهود الجزيرة أما اليهود من الأجناس الأخرى فإن خطاب القرآن لم يُعن بهم ولم يتوجه إليهم

وما نطلق على هذه التوجهات صفة «عبث القول» إلا لأنها تتجاوز المعقولات وتعكس البديهيات. فالكتب السماوية التي حملت الأديان إلى بني الإنسان وضعت قواعد الأعتقاد والقيم لكي تترافق مع البشر ما شاء الله لها ذلك فلا تتبدل ثوابتها إلا على يد نَبيٍّ يفوَّض إليه الانتقال بها من مواقع الماضي البعيد إلى مواقع الحاضر والمستقبل مراعاة لتطور الأجيال والظروف.

ثم:

ـ إن تسمية «أنصار المسيح» باسم «النصارى» لها عودٌ تاريخي إلى بداية دعوته (ع) عندما قوبل بالعداء اليهودي الشديد فصرخ من أنصاري إلى الله فأجاب الحواريون نحن أنصار الله.

ـ ونبي الله عيسى عرفته الأناجيل كافة بأنه يسوع الناصري: «متى ٢/ ٢٧ وأتى وسكن مدينة يقال لها الناصرة لكي يتم ما قيل في الأنبياء إنه سيدعى ناصرياً «أي أن تسميته بيسوع الناصري مكتوبة في الأنبياء قبل مجيئه بعدة قرون. وكذلك يوحنا: (١/ ٤٣ ـ ٤٥ و١٨/ ٣ ـ ٨ و١٩/ ١ـ ٢٠) ومتـــى: (٢٦/ ٩ ـ ٧٥ و٢١/ ١٠ ـ ١١) وفي أعمال الرسل (٢/ ٢٢ و٣/ ٦ و٤/ ١٠ و٦/ ١٤ و٢٢/ ٨ و٢٤/ ٥ و٢٦/ ٩).

حتى إن شيعته ظلوا يدعون «شيعة الناصريين» (أعمال الرسل: ٢٤/ ٥).

فلم يطلق على هؤلاء اسم «مسيحيين» إلا في أنطاكية من قبل برنابا وبولس لأول مرة (أعمال الرسل: ١١/ ٢٥ ـ ٢٦. ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب من شَاول (بولس) ولما وجده جاء به إلى أنطاكية. فحدث أنهما اجتمعا في الكنيسة سنة كاملة وعلَّما جمعاً غفيراً ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً).

فإذا كان شاول لم يعاصر المسيح وهو في الأصل يهودي فِرِّيسي من مواليد طرسوس (أعمال ٧/ ٩) وكان شديد العداء والخصام للنصرانية (أتباع يسوع) شديد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التعذيب لهم كما تحدث عن نفسه في رسالته إلى أهل غلاطية[1] وفي أعمال الرسل (٩/ ١ ـ ٢)[2].

فإن التسمية المسيحية لم تكن بطلب من المسيح ولا تمت في حياته.

ـ تبيين من مجمل ما تقدم أن:

ـ كلمات «ناصري» و «ناصريين» و «نصارى» موجودة قبل كلمة «مسيحيين».

ـ هذه التسمية ليسوع وأتباعه لإتمام ما قيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصرياً حتى ٢/ ٢٣). أي إن التسمية الناصرية مكتوبة ومأمور بها من عهد الأنبياء.

ـ إن كلمة «مسيحيين» أطلقت أولاً على التلاميذ الذين أجتمعوا في أنطاكية وقد قام بهذه التسمية بولس وبرنابا بعد أرتفاع المسيح بأكثر من أربعين عاماً.

ـ وفي التاريخ الكنسي: إن أحداث أنطاكية بعام ٤٩ ـ م أبرزت الخلاف بين بولس والحواريين (لم يكن بولس منهم) الذين أعتبروه خائناً ومتواطئاً على دعوة عيسى حتى وصفته وثائقهم «بالخائن العدو».

ـ إن كلمة «المسيحيين» هي تسمية جديدة لم توضع لكي تلغي «النصارى» لأن المسيح هو الأصل الثابت لهذه التسمية ولأنها مكتوبة في الأنبياء، فما كان في تقدير بولس وبرنابا أنهما يلغيانها، ولو كانا قد فكرا بذلك لما أستطاعا لقدسية التسمية وبُعْدِها في الكتاب المقدس.

ـ من هذا تبدو «النصرانية» ذات جذور مقدسة تتصل بالأنبياء في حين أن «المسيحية» جاءت رديفاً لها ومن وضع التابعين وذات صفة محلية[3]:

---

(١) إنكم سمعتم بسيرتي قبلا في الديانة اليهودية إني كنت أضطهد كنيسة الله وأتلفها بإفراط وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثير من أترابي في جنسي إذ كنت أوفر غيرةً في تقليد آبائي (١/ ١٣ ـ ١٤).

(٢) أما شاول فكان لا يزال ينفث تهدداً وقتلا على تلاميذ الرب فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم ـ ٩/ ٢.

(٣) موريس يوكاي ـ دراسة الكتب المقدسة: ص: ٧٠ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالثاً: الأصل التاريخي للنصارى وإن كان قد أطلق على الطائفة التي قالت للمسيح نحن أنصار الله (الحواريين) فهي ـ في الوقت ذاته ـ الأصل والإمتداد للدعوة المسيحية قاطبة لا فرق بين يهوديٌ تنصَّر وبين أممي تنصَّر والخلافات التي نشبت بين بولس من جهة وبين يعقوب وبطرس ولوقا ويوحنا وبقية آل البيت المقدس من جهة ثانية كانت تدور حول سر الصلب والناموس.

١ ـ فبولس تبنى فكرة «سفك دم يسوع» كفارة عن خطايا البشر وروَّج لها في رسائله التي بدأ في كتابتها بعد أكثر من خمس عشرة سنة بعد الصلب وقال في رسالته إلى أهل كورنثوس:

«لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم غير يسوع المسيح وإياه مصلوباً ـ ٢/ ٢».

«أعرفكم أيها الإخوة بالإنجيل الذي قبلمتوه فإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب» ١٥/ ١ ـ ٣».

وفي رسالته إلى أهل غلاطية يهاجم الناموس وينفي منه البر والعدل فيقول:

«إن كان الناموس بر فالمسيح إذن مات بلا سبب ـ ٢/ ٢١»».

في حين أن متى والباقين ينشرون ما قاله المسيح: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحدٌ أو نقطةٌ واحدة من الناموس حتى يكون الكل... متى ٥/ ١٧ ـ ١٩».

«إن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس... لوقا ١٦/ ١٧».

ويقول مركيون تلميذ بولس المباشر:

«إن إلّه اليهود الذي أعطى الناموس لموسى وخلق العالم كان في الحقيقة إلهاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شريراً» كما كان يعتقد بأن إله المحبة ظهر في المسيح لمعارضة إله موسى خالق العالم[1].

٢ ـ فإلى بولس تعود حركة الإنعطاف الحاد في أتباع عيسى المسيح.

لقد كان مندفعاً في عقيدته حتى الأمّحاء: (أظن أنا أيضاً عندي روح الله ـ كورنثوس ٧/ ٤٠) (كل الأشياء تحل لي... كورنثوس ٦/ ١٢ و١٠/ ٢٣).

«المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة من أجلنا لأنه مكتوب ملعون من عُلِّق على خشبة...» غلاطية ٣/ ١٣.

٣ ـ ومع أنه ليس من مهمات هذه الفقرة أن تسرد المراحل التاريخية للدعوة النصرانية ولا أن تعرض وجهات النظر المختلفة والعوامل التي أدت إليها وساعدت على تطويرها فإن ما يمكن الجزم به هو أن عقيدة «التأليه» وعقيدة «البُنُوّة الطبيعية» من الله و«الصلب الجسدي» و«القيامة الجسدية بعد الصلب» لم تصبح ثوابت عقائدية إلا بعد أن سيطرت كنيسة بولس وأتباعه على الكنائس والآراء الأخرى قبيل إنتصاف القرن الثاني الميلادي بقليل.

٤ ـ لذلك أتجهت دعوة القرآن إلى التنديد بهذه الثوابت ونقضها لأنها تتعارض وتتناقض مع فكرة الوحدانية والأزلية والخلق والمصير التي تَفَرَّدَ بها الله جلَّ جلالُه دون شريك.

٥ ـ وإذ يقول المؤلف: «فالبينات والعلم جاءت بني إسرائيل مع المسيح بالإنجيل. فلما كفروا لعنهم المسيح وجاء القرآن يكرر هذه اللعنة عليهم ويؤكدها ويصدقها ٥/ ٧٨المائدة.

فإنه يرتكب الخطأ، في فهم الآية مضموناً ومناسبة.

ـ إنها ترتبط بالآية ٧٧ ـ وتتكاملان في إبراز موقف عقائدي توضحه كلمات الآيتين:

---

(١) كتاب الردّ الجميل على إلهية عيسى بصريح الإنجيل للإمام الغزالي ـ نشر دار الجيل ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٩٠م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتّبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ (٧٧) ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (٧٨).

ـ فالخطاب موجه إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى على تعدد طوائفهم.

ـ وفيه نهي عن الغلو في الدين. وهو يعني «غلو اليهود في ذم المسيح وأمه حيث اتهموه بأنه ابن زنا..» و«غلو النصارى في المسيح حيث ادعوا ألوهيته» وكلاهما غلو في الدين بغير الحق.

والغلو هو الخروج عن الحق وهو نقيض التقصير. لأن الحق يقع على طرفي الإفراط والتفريط. والغلو في الدين نوعان: غلو حق وهو المبالغة في التقدير والتأكيد. وغلو باطل وهو عكس الأول. أما ما جاء في الآية ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم...﴾ فهو نهيٌ عن الأهواء التي خلت ثم أضلت:

قال الشعبي: ما ذكر الهوى في القرآن إلا كان مذموماً ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ (ص: ٢٦) ﴿أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه﴾ (الجاثية: ٢٣). ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ (النجم: ٣).

فالهوى ـ كما قال أبو عبيدة ـ لا يوضع موضع الخير، وسمي الهوى بهذا الاسم، لأنه الحالة التي تهوي بصاحبها إلى النار إن كان في الدين بدون حق. قال أحدهم:

إن الهـــوى لهـــو الهـــوان بعينـــه فـإذا هـــويـــت فقـــد لقيـــت هـــوانـــا

ـ وفي لعن الذين كفروا من بني إسرائيل:

اتّفق القرّاء على أن المقصود بالآية (٧٨) هم أصحاب السبت الذين لعنهم داوود وهم أهل «أَيَلَةْ» حاضرة بحر القلزم: حيث قال داوود: «اللهم العنهم واجعلهم آية» فمسخوا قردة.

ثم لعن منهم أصحاب المائدة على لسان عيسى ابن مريم عندما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا[1].

---

(١) الإمام الرازي ومختصر ابن كثير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا بان خَطَأ المؤلف في قوله: إن اللعن وقع من المسيح على عامة اليهود.

وكان من قبل في كتابه، «القرآن دعوة نصرانية ـ ص ٢٥» أخطأ بقوله مستنداً إلى هذه الآية: «إن القرآن يتفق مع النصرانية على تكفير اليهودية والمسيحية».

٦ ـ يقول المؤلف: إن هدى التوراة وحكمة الإنجيل محصوران في بني إسرائيل وإن الله جعل المسيح مثلاً لبني إسرائيل (٤٠/ ٥٣ غافر و ٤٣/ ٥٧: الزخرف).

ولكن هذا القول يعارضه قولنا كما يلي:

ـ الآية ٤٠/ ٥٣ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وأورثنا بني إسرائيل(٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤)﴾ فهي فضلاً عن أنها تروي تاريخاً يسبق المسيحية والإنجيل بقرون لا تتضمن ما يفيد بأن هدى التوراة وحكمة الإنجيل محصوران ببني إسرائيل.

ـ أما الآيتان ٤٣/ ٥٧ ـ ٦٣ من الزخرف.

﴿ولمَّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون (٥٧) وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون (٥٨) إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل (٥٩)﴾ ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم منه بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون(٦٣)﴾.

فقد فهم المؤلف منها: أن الله جعل من عيسى مثلاً خاصاً لبني إسرائيل وهو لو تتبع المصادر التاريخية وكتب التفسير وقرأ مناسبة نزول هذه الآيات لتجنب الوقوع في الخطأ.

فقد ثبت في المراجع أنه لما نزلت الآية ٢١/ ٩٨ من سورة الأنبياء ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون﴾ حضر عبد الله بن الزِّبعري وهو شاعر من كفار قريش وقال للنبي: «لقد خصمتك» ألست تقول كل ما يُعبد من دون الله هم حصب جهنم مع من عبده؟ قال نعم: قال: نحن نعبد الملائكة والنصارى تعبد المسيح واليهود تعبد عزيرا فهل هؤلاء حصب جهنم؟ فعجب الوليد بن المغيرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنضر بن الحارث ومن معهما من قول ابن الزبعري وقالوا: لقد أحتج وخاصم. فنزلت الآية: ﴿**إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون**﴾ (٢١/ ١٠١: الأنبياء) أي إن عيسى وعزيرا والملائكة وكل من عُبد معهم ممن مضى على طاعة الله فاتخذ من بعدهم أهل الضلالة أرباباً من دون الله هم مبعدون عن جهنم.

ثم ذكر القرآن بعد ذلك أنهم لم يضربوا مثلاً بعيسى إلا من باب المجادلة والمماحكة الكلامية: ولما ضرب ابن مريم مثلاً... إلى آخر الآيات، أي إنهم خَصِمُون محِبُّون للجدل والخصام.

ثم بيَّن أن عيسى هو عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة وجعله «مثلاً» أي حجة وبرهانا لإثبات قدرة الله. فوضع على يديه الآيات يدحضُ بها السحر السائد في عصره.

ـ هذا ولا بد من الإشارة إلى أن القرآن اعتبر الحكمة غير الإنجيل، ففي الآية ٣/ ٤٨: آل عمران يتحدث عن نعم الله على المسيح فيقول: ﴿**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾ فالمراد بالحكمة هو تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان هو في أن يعرف الحق لذاته والخير من أجل العمل به ومجموعهما يسمى الحكمة، لذلك جاء تعليم التوراة بعد تعليم الكتاب (الخط والكتابة) بما فيها من علوم عقلية وشرعية وأسرار إلهية تتطلب من متعلمها أن يكون مُلِمّاً قبلها بالعلوم التي بموجبها يستطيع استيعابها ثم جاء الإنجيل في المرتبة الرابعة وهي المرتبة العليا في الإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية (الإمام الرازي).

البحث الثالث

أهل الكتاب لا يعني في القرآن غير «اليعقوبية» عندما يخاطب به أتباع المسيح

قال المؤلف: تجدُ في القرآن جدالاً مع أهل الكتاب. ناقَشَهُم في كُتبِهِم وعَقَائدهم.

وتعبيره عنهم بأهل الكتاب، لم يخطىء الناس فيه فيما يتعلق باليهود فهم أهل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب حقاً. وعقائدهم معروفة مميزة ليس فيها مظنَّة الخطأ.

ولكن ذلك، كان في تحديد «أهل الكتاب» من أتباع المسيح. فهم على مختلف طوائفهم يتبعون الإنجيل لذلك يبدو من ظاهر النصوص أن القرآن يعنيهم جميعاً.

غير أن المؤلف يرى غير ذلك. إذ يلخص مقولته بما يلي:

«إن كل ما جاء في القرآن عن أهل الكتاب من المسيحيين موجه، حصراً، إلى فئة منهم هي الفئة «اليعقوبية» وهي فئة خارجة، حاربتها الكنيسة ووصفتها بأنها بدعة، وحرمت مقالتها وطردتها منذ أوائل القرن الرابع أما المسيحية التي تمثل العقيدة الرسمية لأتباع عيسى فقد كانت بعيدة عن عِنَاية القرآن والدعوة. فلم يعرفاها ولم يواجهاها أو يجادلاها.

١ ـ والجدل القرآني مع هذه البدعة... حصل مرَّتين وبأسلوبين مختلفين هما:

ـ أمام النجاشي. وقد كان على شكل عرض من جانب واحد دون مواجهة، قام به جعفر بن أبي طالب متحدِّياً وفد قريش برئاسة عمرو بن العاص. الذي جاء ليطلب منه طرد أبناء الهجرة الأولى من المسلمين بزعم أن دينهم يدعو إلى إلغاء الاعتقاد المسيحي فكان جواب جعفر أن قرأ أمام النجاشي وصحبه سورة مريم ليوضح رأي المسلمين في مريم وابنها فامتلأ الملك وأصحابه بالخشوع وفاضت عيونهم من الدمع.

ـ ومع وفد نجران في عام الوفود أي قبل وفاة النبي بسنة.

٢ ـ أما المواجهة فكانت مرتين:

الأولى: في غزوة مؤتة الفاشلة.

والثانية: في غزوة تبوك الثأرية الظافرة.

يقول المؤلف: إن قصة الاتصال بالحبشة تتمثل في سورة مريم. وجدال وفد نجران يبدو في سورة النساء بالآيتين ١٧٠ ـ ١٧١ وآل عمران في الآيات من ٣٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ٦٤ والمائدة بالآيات ١٩ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٩ ـ ٨٠ و١١٧ ـ ١١٨.

«والجدل العقائدي إذ نجده موزعاً على هذه السور. فإن المؤلف يحذرك من أن تخطىء فتحسبه مقابلات متعددة. بل لم يجر غير مرة واحدة مع وفد نجران، ولم يجتمع في ذلك الاجتماع غير جزء من الآيات ولكن ظروف «جمع القرآن» خرجت بهذا الكم الكبير من الآيات ووزعتها على هذه السور.

«والمواجهة التي تمت في معركتين» معركة مؤتة، التي وردت الإشارة إليها في سورة الحديد بالآية ٢٩.

والثانية كانت في معركة تبوك، حيث توسع القرآن في الحديث عنها بسورة التوبة (٢٩ ـ ٣٠ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤) غير أن الثابت الذي لم ينقض ـ برأي المؤلف ـ أن الإسلام لم يحاور غير اليعقوبية من خلال وفد نجران ولم يقابل غير اليعقوبية في الحبشة، ولم يحارب غير اليعقوبية في مؤتة وتبوك.

إنها ـ كما يقول ـ أربع: مُحَاوَرَتان ومجابهتان حَصَلت جميعها مع اليعقوبية. أما المسيحية الرسمية فلم يحصل معها لقاء، لأنها كانت خارج موضوع الدعوة القرآنية (ص ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٧).

ويتابع المؤلف: وفي الآية ١ من سورة التوبة وكذلك الآيات التالية لها حتى الآية ٢٩ ـ ما أجمع عليه أهل التفسير أن «أهل الكتاب هنا» هم «أهل تبوك» وأن الغاية من جهادهم ليس الانتقال بهم إلى الإسلام كما هو جهاد المشركين بل من أجل إخضاعهم للجزية ولسلطان المسلمين وفي جميع هذه المواقف القرآنية تتضح النتيجة المطلقة وهي إن الإسلام لم يتصل بالمسيحية الرسمية القائمة في دولة الروم ولم يحاورها ولم يورد اسمها بكلمة في القرآن فمن الكفر به، ومن الظلم للمسيحية الرسمية إطلاق خطاب القرآن لبدعة مسيحية على أنه موقف مع المسيحية الرسمية جمعاء (ص ـ ١٨).

تلك الأفكار قدمها المؤلف كثوابت تاريخية دون أن يدل على أي مرجع تاريخي يدعمها ويؤكد وجودها، لذلك قام لدينا من اليقين العلمي ما يكفي لأن نضع في مواجهة ثوابته عدداً من الثوابت العلمية والتاريخية كالآتي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لقد وجه النبي (ص) من السنوات الأولى لدعوته رسائل إلى أمم الآفاق. . . إلى هرقل عظيم الروم، والمقوقس ملك مصر وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة بالإضافة إلى غيرهم.

ولا تزال كتب التاريخ تحتفظ بهذه الرسائل ومنها رسالته إلى هرقل التي جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأِدِّيسين[1]» وللكتاب تتمة.

﴿وقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (٣/ ٦٤).

ـ هذه الرسالة التي تعتبر من ثوابت التاريخ هي الأنموزج الذي وجه إلى ملوك النصرانية في ذلك الزمان وهي تدحض قول المؤلف بأن القرآن قصد اليعقوبية بتعبير «أهل الكتاب» ولم يقصد المسيحية بهذا التعبير لأن الإسلام لم يتصل مع المسيحية ولم يعرفها ولم يحاورها.

ـ إن التوجه القرآني نحو أهل الكتاب قام على قواعد ومبادىء عقائدية لم تتغير وما كان لها أن تتغير لأنها لم تكُن من صنع البشر. لذلك ظلت ثابتة على مرور الزمان وتعدد الشيع والأحزاب.

لقد ندد القرآن منذ بدء الدعوة «بالغلو في المسيح» و «التثليث» و «الصلب» و«الفداء» و «القيامة بعد الصلب والقبر» ودعا أتباع تلك العقائد «إلى كلمة سواء»

---

(١) الإدِّيس: هو الأكار أي الفلاح، وكان هؤلاء في سواد العراق من مجوس الفرس، الذين يعبدون النار. وفي قول آخر إن الإديس هو كبير القوم الذي به يأتمرون وله يتبعون. لذلك كان مضمون الكتاب تحذيراً لهرقل، الذي هو «إدّيس الروم» القادر على إهدائهم إلى الإسلام إذا قبل الدعوة وهو الذي يبوء بإثمهم جميعاً إذا رفض. و«الإديس» لفظ مفرد جمعه «إدِّيسون» و «أدادسة» «وأدادس». (لسان العرب).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حددها بوضوح بالغ هي ألا يُعبد غير الله، وألا يُشرك به شيءٌ وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

وبهذا البيان القاطع الجامع تكون الدعوة القرآنية إلى أهل الكتاب من أتباع المسيح دعوة عامة شاملة جميع المسيحيين في كل الطوائف والشيع والأحزاب، دعوة طلبت منهم الإلتقاء على «كلمة السواء».

ـ إن النصرانية بالمعنى المحدد المضغوط الذي قدمه المؤلف، هي شيعة من اليهود قليلة العدد ضعيفة التأثير والانتشار، آمنت بالمسيح نبيّاً من أنبياء بني اسرائيل، ورفضت فكرة الألوهية في شخصه أو بُنُوّته من الله وهذه الفئة لم تكن مجال نشاط الإسلام ولا دعوة القرآن، لأن الخلاف العقائدي بينها وبين القرآن كان ضيقاً مما جعلها تعتنق الإسلام دون حوار أو مواجهة وبالتالي لا يمكن اعتبار الخطاب القرآني موجهاً إليها[1].

ـ الشيعة اليعقوبية هي إحدى الشيع الثلاث التي طرحت فلسفتها في تحليل شخصية السيد المسيح. وهذه الشيع هي: الأريوسية والنسطورية بالإضافة إلى اليعقوبية.

ـ فالأريوسية: تنتسب إلى الكاهن آريوس المصري الجنسية، المولود في ليبيا بعام ٢٥٦ م، بدأ ينشر تعاليمه بأن ابن الله لا يَحُوز صفات الآب، وهو أي (الكلمة، اللوغس، المسيح) وسط بين الله والعالم فقضى المجمع النيقاوي المنعقد في عام ٣٢٥ م بحضور الإمبراطور بإدانته وطرده من الكنيسة.

ـ والنسطورية: أسسها الراهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية بعام ٤٢٨ م على مقولة وجود طبيعتين في الكلمة «اللاهوت والناسوت» منفصلتين انفصالاً كاملاً وذلك بقيام مسيحين «مسيح إلهي» ومسيح بشري «الأول قبل التجسد. والثاني بعد

---

(١) ليس المقصود بهذه الفئة، فئة يعقوب البرادعي، لأن اليعقوبية لم تنطلق من منطلقات يهودية ولأن خلافها مع الكنيسة كان حول طبيعتي المسيح المستقلتين ـ كما سوف نوضحه فيما بعد ـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجسد. ويقوم بينهما اتحاد أدبي بسيط وعذاب الصليب لم ينتصر على المسيح الإله بل انتصر على المسيح البشري.

فاعتبر نسطوريوس هرطوقيا بقرار مجمع أفسس بعام ٤٣١ م وطرد من منصبه ومن الكنيسة ولوحق مع أتباعه من قبل السلطات الدينية والزمنية، فهربوا إلى حدود البلاد التي تحكمها الدولة الساسانية وأسسوا بمساعدتها مدارسهم في «الرّها» و«نصيبين» و«الحيرة» و«بعض القبائل العربية» في شبه جزيرة العرب و«في بلاد الهند، والتركستان، والتيبت، والصين».

أما اليعقوبية: فقد قامت على يد مؤسسها يعقوب البرادعي المطران النَّاسك الذي تصدى للنسَّطورية وأعلن أن الإيمان الحقيقي يجب أن ينصب حول «سر التجسد» الذي يتمثل في الطبيعة الواحدة، هذه الوحدة في الطبيعة تكونت من اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية بدون اختلاط أو امتزاج أو تبلبل. فاجتمع المجلس المسكوني في خلقيدونيا بعام ٤٥١ م وأصدر قراره بطرد «البرادعي» من الكنيسة وحكم عليه وعلى أتباعه بالهرطقة. وهكذا انشقت الكنيسة إلى ثلاث كنائس.

ـ النسطورية ذات الطبيعتين.

ـ اليعقوبية ذات الطبيعة الواحدة.

ـ الملكية أو الملكانية، التي كانت تصدر قرارات الطرد والهرطقة، وسميت بهذا الإسم نسبة إلى الملك.

والفرق الثلاث: ومعها بقايا الأريوسية:

تدين «عقائدياً» بأن المسيح هو ابن الله و«أنه صلب جسديا» و «قام من القبر بعد ثلاثة أيام»، كما تدين بالتثليث الذي اعتُبِر عقيدة رسمية بقانون الإيمان النيقاوي في سنة ٣٢١ وقانون القسطنطينية الذي أضاف إلى الأقنومين أقنوم روح القدس بعام ٣٨١ م.

وهذه العقائد، هي التي وضع القرآن قواعد الجدل معها، وهي التي كانت محور التنديد والتكفير، وأصحابها هم الذين وجه إليهم التنديد بصيغة «أهل الكتاب من النصارى» أينما وجدوا وأنى وجدوا. أما «أهل الكتاب من النصارى» الذين لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكونوا على هذه المعتقدات، أو كانوا عليها وآثروا تركها واعتنقوا الإسلام، فلم يكن من المعقول أو المقبول أن يكونوا موضوع تنديد أو تكفير.

ومع هذا: وكيلا تبقى لدى المؤلف شبهة من دليل، سوف نقرأ الآيات التي اعتمدت عليها مقولاته لنقطع الاحتجاج باليقين ونبيِّن أنه كان على خطأ في قراءته وفهمه لها.

١ ـ ﴿لا تَقُم فيه أبداً، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن نقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ (٩/ ١٠٨: التوبة).

هذه الآية تتمة للآية ١٠٧ **﴿والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبلُ وليحلِفُنَّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾** (٩/ ١٠٧).

فقد نزلت الآيتان في المسجد الذي بناه أبو عامر الراهب والد حنظلة، وأبو عامر كان النبي قد سمَّاه الفاسق، وكان قد تنصَّر في الجاهلية وترهَّب وطلب العلم. فلما خرج رسول الله عاداه وقال له: لا أجد قوماً يُقاتلونك إلا قاتلت معهم. وقاتله في حنين، ولما انهزمَت هوازن خرج إلى الشام وطلب قبل أن يذهب من المنافقين أن يبنوا له مسجداً ريثما يعود بنجدة من قيصر يحارب بها محمداً، ثم بني المسجد وكان أصحابه يحلفون إنهم لم يريدوا إلا الحسنى، أي التوسعة على المسلمين، ولكن الآية ١٠٩ من السورة قابلت بين مسجد أبي عامر الذي بني على الكفر والتفريق بين المسلمين، ورصداً عليهم وبين مسجد النبي الذي أسس على التقوى منذ أول يوم قام فيه. لذلك أطلقت الآية على مسجد أبي عامر الراهب اسم «مسجد الضرار».

﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهدِهِ من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (٩/ ١١١).

نزلت هذه في بيان فضيلة الجهاد فقالت: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم. . .﴾** وقد أوحيت إلى النبي في ليلة العقبة بمكة حيث قال له عبد الله بن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال النبي: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ولنفسي أن تمنعوني ما تمنعون به أنفسكم وأموالكم. قالوا فإن فعلنا فماذا لنا؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نُقِيلُ ولا نستقيل فنزلت هذه الآية: قال مجاهد والحسن ومقاتل: «ثَامنَهم النبي فأغلى ثَمنهم».

٢ ـ قال المؤلف: «نزلت الآيات من ٣٣ ـ ٦٤ آل عمران لسرد وجهة نظر الإسلام وعقيدته في عيسى المسيح. أمام وفد نجران اليعقوبي. فهي لا تمثل الرأي الإسلامي في المسيحية لأنّها مرهونة بمناسبتها وظرفها».

ولكن هذا القول يأتي من قبيل المغالطة التي تدحضها صراحة الآيات:

ـ فالآية ٣٣: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين..﴾ ثم تستمر الآيات حتى الآية ٣٧ في قصة امرأة عمران «أم مريم» التي نذرت ما في بطنها محرراً... ثم تبتدىء قصة زكريا لتستمر حتى الآية ٤٢ ثم تأتي قصة مريم وحملها وولادتها وولدها حتى الآية ٤٨، ثم تأتي دعوة عيسى ورسالته حتى ٦٤.

ـ فالآيات ليست جميعها في شرح عقيدة الإسلام بعيسى المسيح ومع ذلك يمكن تحديد هذه العقيدة من خلال الآيات الآتية:

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين....﴾ (٤٥) ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل...﴾ (٤٨)... ﴿فلما أحس عيى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون﴾ (٥٢)... ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون...﴾ (٥٥) ﴿إن مثل عيى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(٥٩).

أ ـ فلقد تعددت الآراء في سبب ومعنى تسمية عيسى ابن مريم «بكلمة الله».

فمن قائل: إنه خلق بكلمة من الله «كن» دون واسطة الأب والبذر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن قائل: إن عيسى سمي «بالعلم» لأنه وُهِب منه ما لم يتسنَّ لسواه. والكلمة، كناية عن العلم لأن كلام الله هو علمه.

ب ـ ولكن الآية ٥٩ جاءت بتوضيح أزال الالتباس إذ أفادت بأن عيسى هو من ماء وطين مثل آدم وقد خلقه الله بالكلمة التي خلق بها آدم «كن فيكون» وبذلك زال استبعاد واستغراب تخليق إنسان من غير أب. بدلالة تخليق آدم من الماء والطين. وثبوت أن ذلك من الممكنات الإلهية.

ج ـ إن وجود «الحكمة» إلى جانب «الكتاب» و «التوراة» و «الإنجيل» في آية واحدة معطوفات على الترادف بواو العطف. يراد الدلالة بها على أن هذه الكلمات تعبر عن مسميات أربعة يستقل كل منها عن الثلاثة في كيانه: وقد قال الإمام الرازي في تفسير الآية (٤٨) والأقرب عندي أن يقال المراد بالكتاب تعليم الخط والكتابة وبالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الاخلاق ومجموعهما والعمل بهما هو المسمى بالحكمة. . وقال ابن كثير في تفسير هذه الكلمة بالآية ٢/١٢٩ من البقرة ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة. .**﴾ أي يعلمهم الخير فيفعلونه والشر فيتقونه ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا معصيته.

د ـ وفي «إني متوفيك» «ورافعك إلي» قيل:

ـ إني متتم عمرك فحينئذ أتوفاك فلا سلطان لهم ليقتلوك.

ـ وقيل إني أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفعه وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى.

ـ وقيل: متوفى عملك، أي مستوف عملك ورافعه إلي كقوله: ﴿**إليه يصعد الكَلِمُ الطيب**﴾ (فاطر: ١٠).

ـ وقيل مرفوع إليه حيا بعد إنزاله إلى الدنيا. وقيل: إنها تفيد التفخيم والتعظيم ولا تفيد الصعود إلى السماء لأن الله ليس له مكان يحده لا في السماء ولا على الأرض كقول إبراهيم ﴿**إني ذاهب إلى ربي. .**﴾ (الصافات: ٩٩) وهو ذاهب من العراق إلى الشام. ويقال: ارفعوا الأمر إلى القاضي أو الوالي كذلك يقال لحِجّاج البيت والمجاورين «جيران الله».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالرفعة هي بالدرجة والمنقبة والفوقية هي بالرفعة لا بالمكان. فهي كلها لا تعني حرفية ألفاظها وإنما يراد بها التوصيف والتعظيم.

هـ ـ وفي وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا:

فكلمة «فوق» تعني الغلبة والتفوق والظهور وهذا لم ينتظر غير ثلاثة قرون حتى كان تفوّق اتباع المسيح على من كفروا به في جميع أنحاء الأرض. حيث لا ترى ملكاً يهودياً بخلاف الممالك والبلدان العديدة التي يسيطر عليها النصارى.

٣ ـ ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم...﴾ (١٧٠ : النساء).

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ (٤/ ١٧١ ـ ١٧٢ : النساء)[1].

ـ ففي الآية ١٧٠ دعوة إلى كل الناس للإيمان بالرسول الذي جاء بالحق من الله وليس فيها شيء من الجدال مع أتباع المسيح.

ـ أما كلمة «وروح منه» فهي لتقريب الموصوف من مدارك الناس، لأن العادة إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة والصفاء قالوا «إنه روح» وهكذا: لما كان عيسى عليه السلام تكون بدون بذار أبوي ووجد بنفخة جبريل صار وصفه «بالروح» تشريفاً له وتكريماً.

ـ أما ولا تقولوا ثلاثة، أي لا تقولوا بالتثليث، وهو «وحدة الله في الجوهر مع التعدد في الأقانيم». فالأقانيم بمقتضى عقيدة التثليث ليست صفات بل هي ذوات بدليل أن ثالثها ـ الروح القدس ـ أيد المسيح وحل فيه كما حل في التلامذة وامتلأوا

---

(١) مرّ تفسير الكلمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

به، ثم في تلامذة التلامذة (أعمال الرسل وفيها الآيات العديدة عن الخوارق التي ظهرت على أيدي التلامذة والرسل بقوة الروح القدس) وهذا يعني التجزئة والتعدد لذلك جاء تحذير الآية من التثليث ثم تلا ذلك الاعلان القاطع لوحدانية الله ﴿**إنما الله إلّه واحد سبحانه أن يكون له ولد. . .**﴾.

٤ ـ والآيات ١٩ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ١١٧ ـ ١١٨ من سورة المائدة التي ركز المؤلف على أنها المعبر الأوضح عن اقتصار جدال القرآن على «البدعة اليعقوبية» مع وفد نجران.

تلك الآيات ليست أكثر من استكمال بحث الغلو النَّصراني وأخطاء العقيدة عندهم وتكرار تحذيرهم من مغبة هذا الكفر.

ـ فالآيات تتحدث عن حقيقة كيان المسيح وجوهر شخصه فتصفه بأنه رسول بشر يأكل الطعام ويعيش مثل الناس(٧٥). وتحذر أتباعه من اتباع أهواء الذين ضلوا وأضلوا من قبل(٧٧). وتستعيد عقوبة اللعن التي أوقعها داوود وعيسى على الذين كفروا من بني إسرائيل(٧٨). وتقارن بين أشد الناس عداوة للذين آمنوا (اليهود) وبين أقربهم مودة (النصارى) (٧٩ ـ ٨٠) وتطرح على عيسى استفهاما استنكاريا: هل هو الذي قال للناس أن يتخذوه وأمه الهين فيجيب بأسلوب التأدب الرفيع ﴿**سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق**﴾ (١١٦) المائدة، ولم يقل ما قلت إمعاناً في التواضع والخضوع.

٥ ـ وقبل أن أنتقل إلى الآيات التي ألحقها المؤلف بغزوتي «مؤتة» و«تبوك» أحب التأكيد على خطأٍ وقع المؤلف فيه وهو:

إن وفد نجران سألوا النبي (ص) لم تعيب صاحبنا؟ قال ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى: قال: وأي شيء قلت؟ قالوا: تقول أنه عبد الله ورسوله. قال: إنه ليس بعار أن يكون عبد الله. ونزلت الآيات ١٧١ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣ من سورة النساء.

تلك الحادثة الثابتة في كتب التاريخ والتفسير (الإمام الرازي) «تؤكد أمراً» و«تنفي أمراً» فأما الذي تؤكده فهو أن القرآن تحدث عن مقولات النصَّارى في المسيح وتنديده بتلك المقولات وعن تكرار دعوتهم إلى التوحيد والإقلاع عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرك والتثليث وذلك قبل جداله مع الوفد بدليل سؤال الوفد للنبي: لم تعيب صاحبنا؟ وتذكيرهم له بالوصف الذي ورد بالقرآن في المسيح من أنه عبد الله ورسوله.

وأما الأمر الذي تنفيه فهو قول المؤلف بأن جدال القرآن في مقالات النصارى بدأ مع وفد نجران لأن هذا الوفد قدم إلى النبي قبل سنة من وفاته (ص) ولأن وصف القرآن للمسيح بأنه عبد الله ورسوله جاء في مريم. وهي سورة مكية نزلت في مكة إلا آيتين منها هما: (٥٨ ـ ٧١) وقد ثبت في كل المراجع أن وفد الهجرة الأولى إلى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب قرأ على النجاشي وأصحابه سورة مريم.

٦ ـ أما الآية الأخيرة من سورة الحديد وهي الآية رقم ٢٩ فإنه لا يبدو من ظاهر كلماتها ولا من تفسير المفسرين لها أنها نزلت في غزوة «مؤتة الفاشلة» ـ كما يقول المؤلف ـ.

كما أن المؤلف تجاوز في التفسير وبعد عن المناسبة، أثناء دراسته لآيات سورة التوبة ـ براءة.

ـ فالآية الأولى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ (٩/ ١: التوبة).

ابتدأت بدون بسملة لكي لا يختلط المفهوم من آخر سورة الأنفال مع المفهوم من أول سورة التوبة لأنه في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود وقد جاء ختام الأنفال بموالاة المؤمنين بعضهم بعضا في حين إن بداية التوبة ـ براءة إلغاء العقود مع المشركين الذين نقضوها عدة مرات.

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾ (٨/ ٧٥: الأنفال) وهي آخر آية.

لذلك: ولما كان «بسم الله الرحمن الرحيم» هي الأمان وكانت التوبة نزلت بالسيف وإلغاء العقود التي نصت على الأمان فقد اقتضى ألا تبتدىء بالبسملة (الإمام الرازي ـ رواية عن علي بن أبي طالب وسفيان بن عيينة).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غير أن الثابت نصّاً وتفسيراً أن سورة التوبة ليست ـ كما قال المؤلف ـ مقصورة على أهل تبوك، والثابت أيضاً هو أن الدعوة القرآنية إلى نبذ العهود كانت عامة شاملة عهود المشركين الذين جعلوا ينقضونها مع النبي بعد أن خرج إلى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وأرجفوا الأراجيف (الرازي).

ولقد روت كتب السيرة والتفسير: أن سورة (التوبة ـ براءة) نزلت في سنة تسع، أي بعد فتح مكة بسنة وفي سنة النزول أمَّر النبي على الموسم، أبا بكر الصديق، فلما نزلت السورة أمر عليا أن يذهب إلى أهل الموسم ليقرأها عليهم، فقيل للنبي (ص) لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني. فلما دنا علي وكان راكباً على ناقة النبي سمع أبو بكر الرغاء فقال: هذا رغاء ناقة رسول الله(ص)، فلما لحقه علي سأل أبو بكر: أميرٌ أم مأمور؟ قال: مأمور ثم ساروا فلما كانوا قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم وقام علي يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله اليكم فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب هذا البيت بعد هذا العام مشرك. ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده (الإمام الرازي) و (ابن كثير ـ المختصر).

٧ ـ وكذلك الآيتان ٢٩ ـ ٣٠ من السورة ذاتها، ليستا كما قال المؤلف مخصَّصتين بفئة معينة من النصارى. فالآية ٢٩ حددت الذين أمر الله بقتالهم وهم من لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق.

هؤلاء وإن كانوا من أهل الكتاب، يهوداً أو نصارى، وجب ألا يتوقف القتال عنهم حتى يؤدوا الجزية... والآية ٣٠ قابلت في الكفر بين اليهود الذين يقولون: عزير ابن الله والنصارى الذين يقولون عيسى ابن الله. وهذه المقابلة شاملة غير مخصصة بفئة من اليهود وفئة من النصارى.

ونحب العودة بالقارىء لتذكيره بأن الفرق النصرانية الملكانية ـ النسطورية ـ اليعقوبية) تبنَّت الأقانيم الثلاثة ولكنها اختلفت فيما بينها وكفرت بعضها فيما يتعلق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بكيفية اجتماع الأقانيم وطبيعة التكوين في شخصية المسيح. وقد كنا ذكرنا ذلك من قبل.

٨ ـ والآيتان ٢٧/ ٧٦ النمل و ٦١/ ١٤ الصف.

لا تؤيدان ما قاله المؤلف من أن حوار القرآن ظل مقصوراً طوال الدعوة على النصارى من بني إسرائيل والانتصار لهم من عدوهم (ص ـ ١٧).

فالآية ٢٧/ ٧٦: النمل **﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾**.

فبنو اسرائيل هنا: هم حملة التوراة والإنجيل.

واختلافهم: كان في تباين أفكارهم وتبادلهم التكفير.

والآية ١٤ **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصارالله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين﴾** فيها تفصيل عن دعوة عيسى ابن مريم، حيث استجابت له طائفة وكفرت به طائفة. وكانت الطائفة المؤمنة هي الحواريين ومن تبعهم، حيث كانت النواة الأولى للمسيحية، وظلت مستمرة في كفاحها العقائدي ضد باقي اليهود الذي كفروا وعارضوا إلى أن أظهرها الله عليهم في بداية القرن الرابع الميلادي حينما اصبحت ديانة هذه الطائفة ديانة الدولة الرومانية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

إقحام اسم النصارى في غير موضعه من القرآن

توطئة:

يقول المؤلف: ثمة واقعٌ مذهل في القرآن. ففي الوقت الذي يعرض المبادىء الشاهدة على صحة إسلام النصارى يعرض إلى جانبها مبادىء تشكك في إسلامهم وتتهمهم بالكفر والشرك.

فهل يعود هذا التناقض إلى عهد النبي؟ وهل صدر عنه وحياً أم نصيحة؟ أم إن اسم النصارى أقحم في آيات التشريك والتكفير إقحاماً فرضته ظروف جمع القرآن التي تأثرت بحروب الفتوح؟.

هذا الواقع المذهل ـ يقول المؤلف ـ سوف تتكشف أبعاده وحقيقته في الأبحاث الثلاثة الآتية:

البحث الأول

المبادىء الثابتة الشاهدة بصحة إسلام النصارى

وضع المؤلف هذا العنوان للبحث الأول. ثم انتقل إلى تحديد المبادىء فوضعها مع آياتها وفقاً لتسلسل تاريخ نزولها على النبي.

المبدأ الأول: إن الجدال مع النصارى هو جدال بالحسنى وتلك خصوصية لم تكن لغيرهم من أهل الكتاب ٢٩/٤٦ العنكبوت و ٢/٤١ ـ ١٢٤ البقرة و ٦١/١٤ الصف.

المبدأ الثاني: النصارى هم المقصودون في القرآن بـ «أولوا العلم»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و«الراسخون في العلم» و«الذين يهدون بالحق وبه يعدلون» ٣/ ١٨ ـ ١٩ـ ٢١ ـ آل عمران و ٧/ ١٥٨ الأعراف و ٦١/ ١٤ الصف.

المبدأ الثالث: النصارى هم المقصودون بالتعابير القرآنية: **«الأمة القائمة» و«خير أمة أخرجت للناس» و«المؤمنون من أهل الكتاب» و«المتقون الذين تابوا مع النبي» و«عباد الرحمن».** ٣/ ١١٣ ـ ١١٥ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٢ آل عمران و١٧/ ٧٩ الإسراء و١١/ ١١٣ هود و٢٥/ ٧٤ الفرقان.

المبدأ الرابع: والطائفة التي آمنت بالمسيح من بني إسرائيل هي النصارى ٦١/ ١٤ الصف.

المبدأ الخامس: ﴿وأقرب الناس مودة للذين آمنوا هم النصارى﴾ ٥/ ٨٢ ـ ٨٣ المائدة[1].

ويلخص المؤلف رؤيته لهذه الآيات بقوله: تلك المبادىء الخمسة التي تملأ العهد المدني هي الأنوار الكاشفة لذكر النصارى بالصورة المشبوهة كما سوف نعرض في البحث الثاني تحت عنوان «ملابسات جمع القرآن»[2].

لذلك وسيراً مع خطتنا في تتبع هذا المؤلف وتعقُّبه بالنقد فصلاً فصلاً، وفاصلة فاصلة. سوف نتوقف عند كل مبدأ من مبادئه، وقفة متأنِّية نعيد الحق إلى نصابه والتائه إلى صوابه.

المبدأ الأول:

يتبين من قراءة الآيات ٢٩/ ٤٦ و٢/ ٤١ و٦١/ ١٤ أن القرآن قسم أهل الكتاب إلى فريقين:

فريق الظالمين: الذي لا حديث معهم بغير السيف.

---

(١) إن من يقرأ أرقام الآيات عند المؤلف يجد أخطاء عديدة. مما اضطرنا إلى وضع الأرقام الصحيحة.

(٢) ص ٢٣ ـ من كتاب المؤلف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفريق المحسنين: وهم النَّصارى الذين حضَّ القرآن على التسليم معهم وموالاتهم في الإله والتنزيل والدين.

هذا ما قاله المؤلف: أما نحن فإن لنا قولاً آخر يقومُ على دراسة الآيات لغةً ومناسبة وتفسيراً كالآتي:

١ ـ **﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون﴾** (٢/ ٤١).

ففي هذه الآية نداءٌ تحذيري له في القرآن كثير من النظائر، وقد توجه إلى بني اسرائيل الذين كان في الآية (٤٠) قد ذكَّرهم بالنعم التي أسبغها عليهم وحذَّرهم من أن يقابلوا تلك النعم بكفرانها وبرفض الدعوة أو أن يكونوا أول الكفار بالكتاب. ففحوى الخطاب القرآني ـ كما هو ثابت في التفسير وواضح من ظاهر اللفظ ـ موجه إلى يهود المدينة (بني النضير وبني قريظة) الذين كانوا أول الكفار من اليهود ثم تتابع الكفر فعم الطائفة كلها تقريباً.

فليس في هذه الآية جدال بالسيف ولا جدال بالحسنى ـ بالمعنى الذي قصده المؤلف ـ.

٢ ـ **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضَّلتكم على العالمين﴾**. **﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمَّهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾** (٢/ ١٢٢ ـ ١٢٤: البقرة).

في هاتين الآيتين تذكير لبني إسرائيل بأن الله أنعم عليهم وفضلهم على العالمين وعود بهم إلى إبراهيم عليه السلام إذ أنبأه ربُّه بجعله إماماً للناس فطلب منه أن تستمر الإمامة في ذريته فقال له هذا عهدي معك لا ينال عهدي الظالمين[1].

فالاستدلال بهما على «الجدال بالسيف وبالحسنى» هو تقصير عن فهمهما.

كما أن حجب الإمامة لم يكن شاملاً لجميع ذرية إبراهيم بل لمن ظلم منهم،

---

(١) يقصد بالامامة القيادة الدينية والسياسية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والظلم دوماً يحول بين الظالم واستحقاق القيادة في الدين والدنيا، لذلك جاء في القرآن مقروناً بالحرمان عامّاً غير مربوط بشخص أو فئة كما في قوله تعالى: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ (٣١/ ١٣: لقمان).

٣ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ (٦١/ ١٤: الصف) «أنصار الله» و«أنصاري إلى الله» و«فآمنت طائفة من بني إسرائيل» و«فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين».

في هذه العبارات التصق اهتمام المؤلف وتسمَّر تفكيره ووجدها[1].

لأنها هي التي كشفت له واقعاً مذهلاً في القرآن ـ كما قال ـ.

فالنصارى هم الطائفة التي آمنت بالمسيح والإسلام بدعوته هذه ليس إلا صورتها وصداها. غير أن شرّاح هذه الآية وقرّاءها في كل مكان اتفقوا على أن الطائفتين، كانتا على عهد المسيح فالأولى هي الطائفة الأم. لم يهد الله قلبها إلى الإيمان برسالة عيسى (ع) وأما الثانية فهي الحواريون الذين استجابوا إلى دعوته فتبعوه واستمروا من بعده ينشرون رسالته بين الأمم متحملين أقسى صنوف العذاب والاضطهاد حتى اظهرهم الله على الطائفة الكافرة فكانت لهم السيادة والقيادة بعد نضال امتدَّ ثلاثة قرون وفيما كان المؤمنون يبسطون نفوذهم الروحي والسياسي على الأمم كان الكافرون يتشرذمون ويتفتتون في كل صقع وأرض فما قامت لهم دولة ولا انبعثت لهم قومية ولا عَظُم لهم كيان بل تفرقوا شراذم في الدول والبلدان متقوقعين لا يندمجون مع الشعوب في لغة أو قومية أو وطنية.

هذه المعاني التي لم يقم حولها خلاف، منذ أن نزلت هذه الآيات، سطا المؤلف عليها وحوَّلها إلى مَتَّجَهٍ آخر مستخرجاً منها مدلولاً ليس منها وليس لها.

---

(١) صرخة أرخميدس المعروفة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ (٢٩/٤٦ ـ ٤٧ : العنكبوت).

في هاتين الآيتين قال المؤلف:

إنها أوامر القرآن في التفريق بين الظالمين من أهل الكتاب وهم اليهود وبين المحسنين وهم النصارى، فالذين ظلموا لا يجادلون إلا بالسيف، أما المحسنون فيجادلون بالرفق والحسنى.

غير أن التدقيق في الآيتين والعودة بهما إلى آيات أخرى يعين على إدراك مقاصدهما ويوصلنا إلى معرفة المعاني الحقيقية للتعابير التي وردت فيهما:

«فالذين ظلموا» لا يصح اعتمادها قانوناً قرآنيا يشير إلى اليهود فقط، أي لا يصح حصره في اليهود واستبعاده عن غيرهم لأنّ «تأييد الظلم» مثل «تأييد العدل» مفهومان لا يجوز إطلاقهما على وجه العموم، فلا بد من تخصيص الجهة أو الجهات المقصودة بهما.

وغير ذلك مخالف للطبائع.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بتحديد مفهوم «الظلم» حيث فهم المؤلف، بأنه إيقاع الأذى الجسدي بالسيد المسيح وأتباعه، في حين أن الظلم هو ضد العدل على الدوام، فحيثما لا يقوم عدل فإن السيادة تكون لنقيضه الظلم.

والظلم في المدلول القرآني هو الشرك، وهذا ما دلت عليه الآية ٣١/١٣ لقمان ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ وقد جاء في تفسيرها وفي تفسير «الذين ظلموا» في الآية ٢٩/٤٦:

«المراد هم الذين أشركوا من أهل الكتاب بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة وبذلك ماثلوا بقية المشركين في القول المنكر. فهم الظالمون لأنّ الشرك بالله لظلم عظيم».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبهذا المعنى ينال تعبير «الذين ظلموا» كل من «يثبت الولد لله» و «يعتقد بالتثليث» مثلما ينال اليهود.

وبهذا المعنى أيضاً، لا يجوز اعتبار مفهوم «الذين آتيناهم الكتاب» محصوراً بالنصارى على الوجه الذي ذكره المؤلف، بل هم «الأنبياء» في المطلق. لأن الكتاب يؤتى به إلى النبي فيقوم بتبليغه إلى المكلفين من الناس.

لقوله تعالى: ﴿وآتينا داوود زبورا﴾ (١٧/ ٥٥: الإسراء) و ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾ (١٩/ ٣٠: مريم) و ﴿لقد آتينا موسى الكتاب﴾ (٣٢/ ٢٣: السجدة) و ﴿كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ (٧/ ٢: الأعراف) و ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة...﴾ (١٩/ ١٢: مريم) و ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق...﴾ (٣٩/ ٤١: الزمر).

المبدأ الثاني:

ومن الآيات الخمس ٣/ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢١ و ٧/ ١٥٨ و ٦١/ ١٤ استخرج المؤلف موقفاً قرآنيا خاصّاً بالنصارى لا يشاركهم فيه أحد، وهو تخصيصهم بالألقاب العظيمة الفريدة «أهل العلم» «المقسطون» «أولوا العلم قائماً بالقسط».

ونظراً لما لهذا الطرح من أهمية قصوى عدنا إليها آية آية فتبين لنا عدم مصداقية الرؤية عند المؤلف.

وذلك كالآتي:

١ ـ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (٣/ ١٨: آل عمران) ليس فيها تخصيص النصارى بهذا اللقب «أولوا العلم» كما إنها لم تتحدث عنهم بل تحدثت عن موضوع لا يرتبط بهم هو موضوع وحدانية الله التي شهد بها الله والملائكة وأولوا العلم.

أما أولوا العلم الذين استحقوا أن تقرن شهادتهم إلى جانب شهادة الله بعد الملائكة فهم الذين عرفوا الله وعرفوا وحدانيته بقوة الأدلة القاطعة الدامغة، لأن الإخبار ـ الشهادة ـ المبني على اليقين العلمي هو الشهادة الواجبة الاعتماد وإلى مثل هذا أشار الحديث الشريف عندما حدد شروط اعتماد الشهادة بين الأحياء بقوله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع» وهذه الدرجة الشريفة لا تكون ـ في حقل المعارف الدينية ـ إلا للعلماء أنقياء السريرة الذين قام علمهم على اليقين.

٢ ـ **﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾** (٣/ ١٩: آل عمران).

لم يتفق أهل العلم والتفسير على تحديد المقصودين بتعبير «الذين أوتوا الكتاب» في هذه الآية: غير أنهم مع اختلافهم متفقون على أنها لا تعني النصارى بالمعنى المحدد الذي جاء به المؤلف، إذْ خلت كتب التفسير تماماً منه. أما اختلافهم فيمكن العودة به إلى ثلاثة تعليلات:

فمن قائل: إنما أريد بهم أبناء السبعين شخصاً الذين ائتمنهم موسى قبل وفاته على التوراة.

ومن قائل: هم النصارى الذين اختلفوا في عيسى.

ومن قائل: هم اليهود والنصارى الذين اختلفوا على المقالة في عزير، والمسيح، والتثليث، ويوم المعاد، ونبوة محمد (ص) وكان قولهم في مواجهته: «نحن أحق بالنبوة من قريش لأننا أهل الكتاب وهم أميون».

٣ ـ **﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾** (٣/ ٢١: آل عمران).

فالأمر بالقسط، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي منزلة تلي منزلة الأنبياء. جعلت الآية قتلة الأنبياء وقتلة الذين يأمرون بالقسط في مرتبة واحدة من مراتب الجزاء والكفر وهي العذاب الأليم. ثم وصفتهم الآية ٣/ ٢٢ وصفاً واحداً دون تفريق بقولها: **﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين﴾** ولقد سئل النبي (ص)، أي الجهاد أفضل؟ قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

وهكذا يتبين من المعنى الواسع «للآمرين بالقسط» أنهم قوم غير محصورين، ولا يخلو منهم مكان أو زمان لأنهم على الدوام يمثلون عدل الله في خلقه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدولون﴾ (٧/ ١٥٩ : الأعراف).

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ (٦١/ ١٤ : الصف).

كنا عند تحليل المبدأ الأول تتبعنا معاني الآية ٦١/ ١٤ فتبين أن الطائفة التي آمنت بالمسيح واستجابت لنصرته هي «النواة» التي نشأت عنها جميع الطوائف والشيع التي اتبعت المسيح فيما بعد والتي كانت في عهد النبي (ص) فرقاً وأحزاباً فآمن بدعوته منها من آمن وبقي منها على موقفه من بقي.

وهذه الطائفة سواء من آمن أم من كفر، هي غير «الأمة» التي مرّ ذكرها في الآية (١٥٩) من الأعراف.

لأن أبناء هذه الأمة، كانوا عند نزول الآية من تابعي موسى، فآمنوا بالحق (أتي بالدعوة) واعتدلوا به. وهؤلاء نفر قليل، يكاد أن يتفق المفسرون على أنهم «عبد الله بن سلام اليهودي وأصحابه» الذين أسلموا وحسن إسلامهم. (الامام الرازي).

وكنا من قبل: قلنا: إن إدراج هذه الأسماء القليلة، في تعبير «الأمة» التي تعني العدد الكثير في الغالب، جاء من باب إطلاق الكثير على القليل، بسبب الاختلاف في الدين، الذي جعل من هذه الفئة القليلة طليعة لدعوة سوف تتسع وتزداد. وفي القرآن أمثلة مماثلة كقوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله﴾ (١٦/ ١٢٠ : النحل) و﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعلمون﴾ (٥/ ٦٦ : المائدة) ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف﴾ (٣/ ١٠٤ : آل عمران).

المبدأ الثالث:

وفي سور آل عمران والإسراء وهود والفرقان وردت مفاهيم. قال المؤلف إنها مخصصة بالقصد والتحديد للنصارى، فهم وحدهم المعنيون بها وهي: «الأمة القائمة» و«خير أمة أخرجت للناس» و«المؤمنون من أهل الكتاب» و«المتقون الذين تابوا مع النبي» و«عباد الرحمن» (ص ٢٣ ـ من كتابه).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠) لن يضروكم إلاّ أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون (١١١)﴾ ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ (١١٣) ﴿وما يفعلون من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ (١١٥) ٣/ ١١٠ ـ١١١ـ١١٣ ـ١١٥ : آل عمران).

فالخطاب في هذه الآيات وإن جاء في الظاهر على وجه الخصوص إلاّ إنه عامٌّ في كل العهود ونظيره كثير في القرآن كقوله: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ (٢/ ١٨٣ : البقرة) و﴿كتب عليكم القصاص﴾ (٢/ ١٧٨ : البقرة).

فذلك خطاب باللفظ مع الحاضرين ولكن في المعنى عام بحق الجميع.

ويبدو أن الالتباس في فهم الآية لدى المؤلف من كلمة «كنتم» التي فهمها «صيرورة» في الماضي وبذلك لا تنطبق على أمة العرب الذين لم يكونوا في الماضي يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. بل تنطبق على أمة النصارى التي كانت تتصف بهذه المزايا.

ولكن الناس فهموا هذه الكلمة على غير ما فهمها المؤلف: وكانوا في فهمها فريقين:

فريق فهمها على أنها تامة، فكان معنى الآية لديه«وجدتم خير أمة أو خلقتم خير أمة» متضمنة معنى الحدوث والوقوع.

وفريق فهمها بمعنى صرتم، فكان معنى الآية: صرتم خير أمة أخرجت للناس بسبب ما تأمرون به من معروف وماتنهون عنه من منكر وبما تؤمنون بالله. وهنا تتضمن معنى الصيرورة من حال إلى حال.

وفي كلا المعنيين لا تنصرف هذه الآية إلى أحد من أهل الكتاب لصراحة القسم الثاني منها «ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم...».

أما التفريق بين من آمن ومن هو فاسق من أهل الكتاب.

فالذين آمنوا هم «النجاشي وصحبه من تابعي الإنجيل» و«عبد الله بن سلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصحبه من تابعي التوراة» وهؤلاء كانوا الأقلية إلى جانب الأكثرية الفاسقة التي ظلت على مكابرتها فقالت الآية«وأكثرهم الفاسقون» نافية عنهم صفة العدل التي قد تكون موجودة حتى عند بعض الكفار المشركين.

ثم: ازداد الوضوح في الآية ١١٣ وازداد التركيز على الفرق بين هذه الأقلية المؤمنة والأكثرية الفاسقة فكانت جملة «ليسوا سواء» جملة تعيد الذهن إلى ما تقدم وتهيئُه لما سوف يأتي من كلام.

فأوضح به ابتداءً من قوله: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة...﴾ مقصوده من الأمة المؤمنة التي أخرجت للناس ومقصوده من الأكثرية الفاسقة دون أن يذكر هذا القسم الأخير مُسْتَغْنِياً عن ذكر الضدِّ الآخر بذكر ضده على مذهب البلاغة العربية السامية. بشكل يفيد العلم بهما كليهما. ومثله ما جاء في قول أبي ذؤيب:

دعـائـي إليهـا القلـب إنـي لامـرؤٌ مطيـعٌ فـلا أدري أَرشـدٌ طـلابُهـا.

أي: أرشد طلابها أم غي؟ وقد اكتفى بذكر الرشد لدلالته على المعنى الثاني.

وقد دلَّ ظاهر الآيتين ١١٣ ـ ١١٥ على أن المقصود «بالأمة القائمة التي تتلو آيات الله أناء الليل» هي الأمة الإسلامية التي تميزت عن أمم أهل الكتاب من يهود ونصارى في أنها تؤمن بالله واليوم الآخر. لأن الذي يؤمن بالله يؤمن بأنبيائه جميعاً وهذه صفة لا تتوافر في اليهود الذين لا يؤمنون بالمسيح ولا بمحمد. ولاتتوافر في النصارى الذين لا يؤمنون بمحمد. ولكنها إحدى ركائز العقيدة عند المسلمين الذين يؤمنون بالأنبياء جميعاً.

أما الإيمان باليوم الآخر فهو ما ينكره اليهود إنكاراً نهائياً وليس له فيما بين أيديهم من نصوص ما يشير إليه. كما لا يؤمن النصارى بالبعث الجسدي.

٢ ـ ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا(٧٨) ومن الليل فتهجَّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً(٧٩)﴾ (الأسراء)[1].

---

(١) دلوك الشمس يعني ميلها وتغير موقعها في حالة الغروب عن سابقه وقيل: هو الزوال عن =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال المؤلف: إن القيام بالليل للصلاة هي في الأصل عادة نصرانية لا يهودية ولا عربية لذلك كان تخصيص محمد بها دليلاً على نصرانيته. . أمَّا غير المؤلف من عاصر نزول الآية وعاش فترة تعامل الرسول معها فقد أجمعوا على الآتي:

ـ النافلة في اللغة هي الزيادة في الأصل. ومدلولها الشرعي أنه التطوع زيادة على الفرائض.

ـ وهي نافلة بالنسبة إلى النبي لأن فيها زيادة الدرجات وكثرة الثواب.

أما بالنسبة إلى الأمة فإنها طاعة يحتاجها أبناؤها في تكفير الذنوب والسيئات.

فالطاعات زوائد ونوافل في حق النبي لا في حق غيره.

ـ والتهجد من فعل «هَجَدَ» وهذا اللفظ هو من الأضداد فيقال «هَجَدَ» لمن نام في الليل ويقال «هَجَدَ» لمن صلى في الليل والهاجد عند العرب هو النائم. وإطلاق كلمة «التهجد» على من صلى في الليل يحمل معناه على أنه ألقى الهجود عن نفسه كما قيل للعابد «متحنث» لأنه ألقى عن نفسه الحَنَث وهو الإثم.

والمؤلف الذي اعتبر التهجد عادة نصرانية لا يدل على مرجع مؤيد لهذا الاعتبار، على أنه وإن كان الأحناف وبعض من أهتدوا من أهل الكتاب قد عرفوا التعبد لله في الليل، فذلك لا يوجب إلغاءها في الإسلام لأنه لم يكافح غير الشرك والعادات السيئة.

٣ ـ **﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير. (١١٢) ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون (١١٣)﴾** (١١/ هود).

ليس في هاتين الآيتين ما يدل على تخصيص صفة «المتقين» بجماعة محمد،

= وسط السماء لذلك اقتضى تحديد مآل الدلوك بقوله إلى غسق الليل، والغسق من الليل سواده وظلمته. وفي قول النضر بن شميل «أتيته غسق الليل» أي حين يختلط ويسد المناظر، ويقال: غسقت العين إذا امتلأت بالدمع، فسمي دخول الظلام غسقاً لأنه يملأ الدنيا سواداً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما قال المؤلف، ولا تخصيص جماعة النصارى بصفة «الصالحين» وما ندري كيف قرأ وكيف فسَّر ما قرأه.

﴿فاستقم كما أمرت﴾ هي عبارة جمعت كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال، سواء أكان مصدرها منه أم كان متعلقاً بتبليغ الوحي وبيان الشرائع، وهذا يتطلب جهداً بالغ الصعوبة.

ـ فالاستقامة هي الخط المستقيم الذي يمتد بين الضوء والظل، وهو جزء لا يقبل القسمة في العرض، وهو لدقته وحساسيته يدخل الاشتباه في الحس ببعض الأحيان.

ويدقُّ الأمر عندما يفرغ هذا التفسير على المعاني الدينية التي تتطلب من العبد استقامة قائمة على معرفة الله معرفة تصونه عن التشبيه والتعطيل، كما تتطلب منه الوقوف بثبات بين طرفي الإفراط والتفريط في القوتين الغضبية والشهوانية. لذلك روي عن النبي (ص) أنه قال: «شيبتني هود قبل المشيب» وعندما سئل وبأي آية؟ قال: «فاستقم كما أمرت».

ـ «ومن تاب معك» أي ومن آمن برسالتك واتبع دعوتك.

ولا يمكن أن يستخرج من هذه الجملة أن النبي «تاب عما كان عليه» لأنه معصوم من الذنوب التي تتطلب التوبة. والحكمة المتحصلة تكمن في أن الأمر بالاستقامة موجه إلى النبي والذين تابوا معه وهاجروا وهجروا عقائدهم السابقة، أما أهل الكفر والفاسقون فلا يصح اشتغالهم بالاستقامة قبل توبتهم عن الكفر والخضوع إلى أوامر الله ومناهجه والبقاء على عبوديته.

٤ ـ قال المؤلف: وفي القرآن «عباد الرحمن» هو اسم من الأسماء التي أطلقها القرآن على النصارى مثلما سمى العرب المسلمين «بالمتقين» وجعل الإمامة على المتقين إلى عباد الرحمن لقوله في الآية ٢٥/ ٧٤: الفرقان ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾.

وهنا تجاوز المؤلف في تفسيره حدود اللغة تجاوزاً كبيراً.

ـ فالآية ٢٥/ ٧٤ من سورة الفرقان جاءت بعد آيات تحدثت عن عباد الرحمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاستمرت متتابعة من الآية ٦٤ تصف وتعدد علامات الهدى والتقوى في طبائعهم والسمو في أخلاقهم وتعاملهم مع الناس وصدقهم مع الله ومع أنفسهم، والذين هم مع ذلك كله ﴿إذا ذُكرّوا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صُمّاً وعميانا﴾ (٧٣). أي خروا سجدا وهم واعون لها عارفون بحقيقتها.

بعد ذلك جاءت الآية (٧٤) محدِّدَة طلباتهم من الله وهي «قرة الأعين من الأزواج والاولاد» و «أن يحفظ الله عليهم معارفهم وأخلاقهم وقدرتهم على استمرار الاستقامة» و «أن يجعلهم أئمة أي أمثلة وقدوة في تقواهم لكل من عبد الله واتقاه.

فأين ذلك كله؟ من التفسير المتعرج والاستنتاج الخطأ الذي جاء به المؤلف؟.

المبدأ الرابع:

يقول المؤلف: لقد أوضح القرآن ماهية النصارى فوضع التفسير النهائي لهذا المفهوم في الآية ٦١/ ١٤: الصف هو الآتي: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عَدُوِّهم فأصبحوا ظاهرين**﴾ فالنصارى يقول المؤلف:

هم في مصطلحات القرآن، على التخصيص، الطائفة التي آمنت بالمسيح من بني إسرائيل واستجابت لدعوته، فحملها الحواريون والرسل إلى الأمم وظلت تكابد الأذى والاضطهاد والتصفيات الجسدية حتى أظهرها الله على اعدائها بالاسلام. فما الإسلام إلا انتصار للنصرانية، وما القرآن إلا دعوة إليها. وعلى هذا فإن إسلام النصارى ونصرانية المسلمين من حقائق القرآن التي لا شبهة فيها[1].

هذا التفسير الجريء، جدا والعجيب جدا، الذي يتعارض مع ثوابت العقائد والتاريخ منذ أن ظهر الإسلام حتى الآن، كان يمكن أن نتركه دون تحليل، لأنه لا يقوم على منطق أو دليل ولكن وجدنا من المفيد أن نقول فيه كلمة:

النداء موجه من النبي إلى الذين أسلموا لكي ينصروه مثلما فعل الحواريون مع

---

(١) ص ـ ٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسيح. وما إيراد قصة الحواريين في الآية إلاّ مثل للذين أسلموا كي يزدادوا يقيناً وإيماناً ويجدوا قدوة في أولئك الذين استجابوا وناصروا عندما طلب منهم الرسول ذلك، فقد أكدت الآية أن الفئة التي آمنت كانت مُستضعفة قليلة العدد فتسحلت بالإيمان وقاومت طائفة الكفر مع قوتها وكثرتها وبذلت أقصى وأعظم التضحيات حتى أظهرها الله على الكافرين.

إنها رواية من التاريخ قُصد منها تشجيع المسلمين وتقوية عزائمهم بفتح صحائف الماضي أمامهم وقراءة مالاقاه أصحاب الدعوات الإلّهية من معارضة وإطلاعهم على ما لاقاه أصحاب الدعوات الإلّهية من أهوال ومصاعب ومعارضات كانت تنتهي ـ دوماً ـ بتغلب الحق على الباطل واندحار الشرك أمام الإيمان وهكذا لن يجد أي مدقق في كلمات الآية ما وجده المؤلف:

ـ فلا مقارنة بين الإسلام والنصرانية.

ـ ولا تبعية من الإسلام للنصرانية.

ـ والانتصار الديني والسياسي الذي حققه الإسلام في عهد النبي ومن بعد عهده، هو انتصار للإسلام باعتباره ديناً مستقلاً لا ديناً تابعاً ولا تجديداً لدين أو بعثاً له.

ـ وما قول المؤلف: إن نصرانية الإسلام والقرآن حقيقة لا شبهة فيها سوى الشبهة التي أطلقها خيال المؤلف دون دليل من كتاب أو سنة أو تاريخ.

ـ والغريب في هذه النظرية التي وضعها المؤلف بين الحقائق التي لا يأتيها الباطل. أن ليس لها وجود ولا أمل في وجود على أرض الواقع. فما زالت الطوائف الأخرى تنكر نبوة النبي محمد وترفض الإسلام. فلو كان ما يقوله المؤلف صحيحاً حتى في بعض أجزائه فقط لتبنّت تلك الطوائف دعوة الإسلام التي ليست في نظر المؤلف غير تجديد لها ودعوة إليها.

وإذا مرت النظرية ـ أية نظرية ـ في زمنين وقامت لديها في كل منْهما أدبيات ونظريات في الأخلاق والفكر والسياسة وطقوس الاعتقاد فإن محاولة التقريب بينهما لا تبدأ من شطب الجديد الذي مثل ويمثل حاجات التطور بل العكس هو المنتظر أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكون سيراً مع التوق الأزلي للإنسان إلى بلوغ الكمال الذي ينافي المسير إلى الوراء.

المبدأ الخامس:

وهو يتمثل في شهادة القرآن للنصارى بأنهم «أهل المودة لجماعة محمد» وأن «عيونهم تفيض من الدمع إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول» وذلك بفضل «ما عرفوا من الحق وبفضل قسيسيهم ورهبانهم».

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدَّن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾ (٥/ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٥ المائدة).

يقول المؤلف: «النصارى هم أهل المودة لجماعة محمد والقرآن يعلن انضمامهم إلى المسلمين (أمة واحدة) ويرجع الفضل في ذلك إلى قسيسيهم ورهبانهم الذين لا يجوز أن تلقى عليهم شبهة في إسلامهم بعد أن ثبت خشوعهم حتى فاضت به العيون وعبرت عنه الدموع». ص ـ ٢٣.

نرى من المفيد أن نلقي الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بآيات سورة المائدة كما يلي:

١ ـ لقد نزلت الآية تلبية لمناسبة خاصة، في ظرف خاص. واجهه المسلمون الأوائل.

كانت مؤامرات اليهود ودسائسهم على الدين الجديد قد بلغت درجاتها القصوى فهم لا يتوقفون عن تكذيب النبي ومعاداته وتأليب الأحزاب ضده وإغراء الشعراء بهجائه، وكانت مقابلة الأحباش في عهد النجاشي لوفد الهجرة الأولى في منتهى الكرم والأخلاق وتقبل الدين وعمق الخشوع فقد روي أن الملك وصحبه لم يملكوا أنفسهم عن البكاء خشوعاً لله. عندما أنصتوا إلى جعفر بن أبي طالب يتلو سورة مريم ثم يتحدث عن الطبائع الكريمة التي يتحلى بها النبي محمد(ص).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الموقفان متناقضين متباعدين، فكان في المقارنة بينهما إعلام وتعليم وتحذير وترغيب.

٢ ـ هؤلاء الخاشعون من النصارى الذين «انضموا إلى الإسلام في أمة واحدة» كما أكد المؤلف ذكرهم القرآن في مناسبات أخرى. (ص ـ ٢٣).

ولكن بطريقة المجاز المرسل، أي باعتبار ما كانوا عليه قبل الإسلام، فقال عنهم وعن أشقائهم ممن لم يعتنقوا الإسلام: ﴿**وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون**﴾ (٥٧/ ٢٧ : الحديد).

ـ فالرهبانية اشتقت من الرهبان ـ جمع راهب ـ وهو لفظ مأخوذ من الرهبة: أي الخوف من الله وهذا الجمع «رهبان» مثل راكب، ركبان، وفارس، فرسان.

ـ أما الابتداع فيها فلأنها لم ترد في أقوال المسيح ولا في أقوال أحد من تلاميذه بل ظهرت لأول مرة في الشرق على يد مؤسسها الناسك «انطونيوس الكبير» المولود في مصر بعام ٢٥١ م من أسرة غنية ورث عنها مالاً كثيراً ولكن نفسه عافت المال وتعلق بقول المسيح في إنجيل متى «إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك ووزعها على الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني» ثم انتقلت الرهبانية إلى الغرب بوساطة وصفٍ قام به القديس «أثناسيوس» لحياة الناسك «انطونيوس الكبير».

ـ وأما كونها ابتغاء مرضاة الله فذلك في الأصل ومن حيث المبدأ قامت عليه في البدء.

ـ ولكنهم لم يرعوها حق رعايتها إذ ابتعدوا بها عن غاياتها ومبادئها فامتلكوا الأموال والعقارات وتجملوا بمظاهر الدنيا وبالغوا في بسط سلطانهم الديني وطفقوا يبيعون بيوتاً في الجنة إلى القطيع المؤمن ويستنزفون منه أمواله وجهوده حتى تحولوا من موقع النساك إلى موقع الأمراء (أمراء الكنيسة).

ولم يكتفوا بل صارت مواقعهم الروحية ذات سلطات إلهية يستطيعون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بوساطتها أن يسمعوا الاعترافات بالذنوب وأن يغفروها لمن يشاؤون. ويحجبوها عمن يشاؤون.

لذلك أعادت الآية(٩/ ٣١: التوبة) وصفهم بصيغة الاستنكار والتنديد **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمَّا يشركون﴾**.

فجعلت الأحبار اليهود إلى جانب الرهبان النصارى في مستوى واحد.

لأن الآية ٩/ ٣٠ كانت قد نددت بالطائفتين معاً بقولها: **﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾** (٩/ ٣٠)[1] من ذلك كله نخلص إلى القول:

ـ نزلت آيات سورة المائدة لمناسبة خاصة وفي وصف خاص لفئة خاصة فلا يمكن أن تكونا محددتين تحديداً نهائيا أزليا لعقيدة القرآن في جميع النصارى بكل عصر ومكان.

ـ لم يكن جميع النصارى مثل النجاشي وصحبه ولم يعتنقوا الإسلام جميعهم.

ـ والنَّصارى وإن قامت في قلوبهم رأفة ورحمة وأسَّسوا رهبانيتهم على قواعد من هذه الرحمة فإنهم لم يستمروا فيها على ما بدأوا، بل انحرفوا عن غاياتها فاقتادوا الكثيرين إلى مهاوي الضلال.

ـ والرأفة والرحمة والزهد والتنسك، هذه الصفات التي كانت دستور النصرانية وهويتها في عهودها الأولى، تقلصت وزالت من عالم السلوك لتنزوي في المخطوطات والمكتبات نصوصاً تفرغت من الحرارة والألق والمشاعر، وقامت إلى جانبها مظاهر الحياة، والمادية التي اكتسحت عالم الروح.

تلك: هي الرؤية القرآنية للنصرانية ولمن بقي عليها من أهل الكتاب.

---

(١) يضاهئون قول الذين كفروا من قبل: يشابهون قول المشركين الذين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحث الثاني

ملابسات جمع القرآن وتدوينه

وحصلت ـ كما قال المؤلف ـ إبان جمع القرآن ملابسات اقتحمت حرمة النصوص وأدخلت إليها الكثير مما خلفته المغازي والحروب من أحقاد، فجاء مصحف عثمان مجموعاً آخر يختلف في المباني والمعاني عن قرآن النبي، فلم يراع ترتيب النزول ولا ترتيب الآيات في المواضيع. ووضع فيه مالم يكن في القرآن ورفع منه ما كان ثابتاً فيه، وانعكس ذلك كله انعكاساً سلبياً عقائدياً على علاقة المسلمين بالمسيحيين عامة. ما زال يملأ النفوس حتى الآن.

ولقد طاف المؤلف على جميع ما كتب حول هذا الموضوع. قديماً وحديثاً ـ كما زعم ـ فوجد أن تلك الملابسات أسقطت الموضوعية والمصداقية والنزاهة والحياد فيما رواه وتلاه وجمعه ذلك «الرهط» الذي أوكلت إليه مهمة جمع القرآن في عهد عثمان. فأوجبت على القارىء المدقق والدارس المحقق أن تظل عينه شاخصة إلى الظروف السياسية والعسكرية التي جمع القرآن في ظلها.

وبالرغم من وعورة الطريق فقد أقتحمه المؤلف، وطاف على تلك الملابسات فحددها وعددها ووضع لها العناوين وألحقها بمناسباتها وظروفها فكانت رؤيته لها كالآتي:

ـ تلك التي ظهرت بسبب القراءات العديدة للقرآن.

ـ وتلك التي قامت بسبب اختلاف الرأي حول المرجعية في عملية الجمع.

ـ وتلك التي وجدت مع مراحل وأطوار جمع القرآن.

ـ وأخيراً تلك التي تأثرت بالعوامل السياسية والعسكرية.

لذلك سوف نخصص كلا من مواضيع البحث بوقفة نقدية. متبعين خطة المؤلف في الترتيب والتقسيم ومتقيدين بالعناوين التي وضعها تقيداً حرفياً وملتزمين معه بقواعد الحوار الذي لا يهدم إلا في سبيل البناء ولا ينفي إلا من أجل الإثبات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولاً: الرخص بقراءة القرآن مدى خمس عشرة سنة:

١ ـ قال المؤلف: في الحديث الشريف أُنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة أو آية رحمة بآية عذاب.

«وقد اتفق العلماء على أن اختلاف الأحرف هو اختلاف في الألفاظ باتفاق في المعاني» (ص: ٢٤) ولكن المؤلف لا يلبث أن يستخرج من الحديث النتيجة الغريبة التالية:

«ومدى الاتفاق في المعاني يحدده نص الحديث نفسه وهو تبديل آية عذاب بآية رحمة أو آية رحمة بآية عذاب».

فهذه الرخصة تساعد على إقحام كلمة تفسيرية على النص وتابع قوله: «إن الواقع القرآني يشهد على أنه عند تدوينه كان قد انتهى إلى سبعة نصوص وأن العرب كانوا يقرأونه بسائر لغاتهم».

أما نحن: فلنا أن نعود إلى نص الحديث وإلى ما حضر من المراجع لنستخرج الحقائق مباشرة مجردة من التعليق والذي يعبر عن صاحبه أكثر مما يعبر عنها.

أ ـ إن كلمتي «شاف. كاف» في الحديث أفادتا بما أراده النبي (ص) من حديثه وهو إن الشفاء والكفاية في القرآن مرهونان بألا يؤدي اختلاف الأحرف إلى اختلاف الأحكام والمعاني وإلاَّ صار التناقض والتشتت والضياع. وهنا يبدو أول واحد من أخطاء المؤلف. الذي فهم من الحديث إمكان إبدال الآيات المتغيرة الأحكام ناسباً هذا إلى الترخيص من النبي.

ب ـ لقد صحت رواية هذا الحديث عند كثير من الصحابة. عدَّد السيوطي منهم أحد عشر صحابياً، كلهم من ثقات الرواة (الإتقان ـ طبعة رابعة ـ لعام ١٩٧٨ ـ ١/ ٦١).

ج ـ لم يتفق العلماء جميعاً على ما تعنيه كلمة «حرف» في الحديث الشريف. فذهبوا مذاهب شتى في الاستقصاء عن مدلولها:

ـ ففي الإتقان: «الحرف يصدق لغة على حرف الهجاء ـ وعلى الكلمة ـ وعلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعنى وعلى الجهة. وقد قال ابن قتيبة: المراد بالأحرف هو الأوجه التي يقع بها التغاير وهي سبعة: أولها ما يتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل: (ولا يضارَّ كاتب) بفتح الشد على الراء وضمه وثانيها ما يتغير بالغعل مثل (بعد وباعد) وثالثها ما يتغير باللفظ مثل (ننشزها ـ ننشرها) ورابعها ما يتغير بابدال حرف قريب المخرج مثل (طلح منضود وطلع منضود) وخامسها ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل(وجاءت سكرة الموت بالحق. وجاءت سكرة الحق بالموت) وسادسها ما يتغير بزيادة أونقصان مثل (والذكر والأنثى ـ وما خلق الذكر والأنثى) وسابعها ما يتغير بابدال كلمة بأخرى مثل (كالعهن المنفوش ـ كالصوف المنفوش) الإتقان ـ ١/ ٦١.

وقال الشيخ الرازي في اللوائح:

«الاختلاف في الكلام لا يخرج عن أوجه سبعة: الأول هو اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث. والثاني اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر. والثالث اختلاف وجوه الإعراب والرابع الزيادة والنقص. والخامس التقديم والتأخير. والسادس كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإظهار. والسابع اختلاف النطق بالتلاوة من إشباع ومدٍّ وقصرٍ وتشديد وتخفيف وتليين وتحقيق». (المرجع ذاته ـ ص ١/ ٦٢).

وقال ابن عبد البر:

«جاء عن عمر(ر) أن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذابا وعذاباً مغفرة. وإنما أراد عمر بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها أنّها معانٍ متفق مفهومها مختلف مسموعها لا يكون في شيء منها معنى وضده ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه أو يضادّه كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضدّه».

ثم أُسند عن أبيّ بن أبي كعب أنه كان يقرأ «كلما أضاء لهم مشوا فيه ـ مروا فيه ـ سعوا فيه وكان ابن مسعود يقرأ: للذين آمنوا انظرونا ـ أمهلونا ـ أخرونا (المصدر السابق: ١/ ٦٢ ـ ٦٣).

وقال الطحاوي ملخصاً هذه الظاهرة:

«وإنما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ ثم نُسِخَ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ ـ ص ١/ ٦١ المرجع ذاته.

د ـ وفي الربع الثالث من هذا القرن قدم الدكتور صبحي الصالح رأياً يوضح هذا الالتباس فقال:

«كان يطلق على اللهجات المختلفة لفظ «لغات» مثل: لغات قبائل مضر وهي «هذيل وكنانة وقيس وضبّة وتيم الرباب ـ وأسد بن جذيمة و قريش. وكان المتعارف عليه أن لغات العرب هي لغاب قريش وهذيل وتميم وأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر. وفي القرآن ألفاظ من لغات شتى تمثلت كلها في لغة قريش وهذا ماذهب إليه أبو عبيد القاسم بن سلام وأحمد بن يحيى» ـ ثعلب ـ البرهان ١/ ٢١٧

كما قال الأزهري في التهذيب أنه القول المختار واحتج بقول عثمان (ر) «وما اختلفتم انتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش فإنه أكثر ما نزل بلسانهم» البرهان ١/ ٢١٨.

وقد نبهنا على أن الاختلاف يدور حول الكتابة والرسم لا أي شيء آخر ـ (مباحث في علوم القرآن ص ١٠٥ الشيخ صبحي الصالح).

٢ ـ قال المؤلف:

«أجاز الخلفاء الراشدون وبعض الصحابة كمجاهد وأبي بن كعب قراءة القرآن بالمعنى من دون الحرف وقالوا: ذلك لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩) لأن المراد بالحفظ هو مفهوم الألفاظ لا منطوقها. فهذه الرخصة تقود حتما إلى شبهات على صحة حفظ الحرف المنزل وإلى إمكانية إقحام كلمات تفسيرية على الآيات الكريمة وإتلاف عثمان للأحرف الستة بالنار ـ كما سنرى ـ يشهد بأن الإمكانية تحولت إلى واقع (ص ٢٥ ـ ٢٦ من كتاب المؤلف).

إن مقولة القراءة بالمعاني دون التقيد بالألفاظ «هي تحريف لوجهة نظر خطأ صدرت بنية حسنة عن بعض المفسرين الذين رأوا أن المراد من الأحرف السبعة هي سبعة أوجه من اللفظ المختلف ولكن متفق في المعنى نحو «أقبل» فقالوا فيه «هلم ـ تعال ـ عجل ـ أسرع ـ انظر ـ أجز ـ أمهل» ونحوه وكان مستندهم قول النبي لعمر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«يا عمر القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة» ففهموا منه «رخصة بالتجاوز عن حرفية النص شريطة التقيد بالمعنى».

وقد فطن علماء الإسلام إلى فداحة هذا الخطأ وخطورة هذه النظرية على الحياة الإسلامية لأنها تسلِّم النص القرآني إلى أمزِّجة القراء وأهوائهم فيتغير مع ثقافتهم وأفهامهم عمقاً وضحالة. وهذا بطلان وانحراف لأن القرآن وحي يتلازم فيه الثبات والمناعة في حين أن القراءات قد تتغير بتغير القراء من حيث كتبة الحروف أو كيفيتها تخفيفاً أو تثقيلاً أو سواهما.

وفي القرآن الزام جازم بالنص. ففي قوله:

﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا﴾ (١٨/ ٢٧: الكهف).

فسروا: لا مبدل لكلماته: بأنه يمتنع تطرق التبديل والتغيير فيه وانتهوا إلى أن تغيير النص اللفظي بالقياس المعنوي غير جائز. وهذا الحكم القرآني الصريح لا يتعارض مع الناسخ والمنسوخ، لأن المنسوخ كان ثابتاً في وقته وظل متبعاً إلى وقت مجيء الناسخ فكلاهما غاية مستقلة وبالتالي لا يجوز اعتبار أحدهما بديلاً عن الآخر.

وفي قوله: ﴿ما يُبدَّل القول لدي وما أنا بظلاّم للعبيد﴾ (٥٠/ ٢٩: ق) ذهب المفسرون إلى أن قوله لا يمكن تبديله لفظاً أو معنى ـ تفسير الامام الرازي للآية ٢٧ ـ ق.

ولقد كان النبي (ص) يصرح كل التصريح بأن المراد من الأحرف السبعة هو الأوجه السبعة التي وسَّع الله بها على الأمة فبأي وجه قرأ القارىء أصاب. قال: أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل استعيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف ـ البخاري ـ : ٦/ ١٨٥.

وقد جهد المفسرون كثيراً لبيان وتحديد ماهية وكيفية هذه الأحرف فوجدوا أن اللفظ القرآني مهما تعدد أداؤه وتنوعت قراءته لا يخرج التغاير فيه عن الوجوه السبعة الآتية:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ الاختلاف في الإعراب حتى لو تغير المعنى مثل: «فتلقى آدمُ من ربه كلمات. . .» فقد قرىء: «فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ».

ـ الاختلاف في الحروف: إما بتغيير المعنى دون الصورة مثل: «يعلمون ـ تعملون» وإما بتغيير الصورة دون المعنى مثل: «الصراط ـ السراط» و «المصيطرون ـ المسيطرون».

ـ الاختلاف في الأسماء إفراداً أو تثنية أو جمعاً مثل: «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ـ والذين هم لأمانتهم. . .» ومثل: «إن البقر تشابَهَ علينا ـ تشابَهُ ـ تتشابه علينا»

ـ الإبدال مثل: «كالعهن المنفوش ـ كالصوف المنفوش» ومثل: «وطلحٍ منضود ـ وطلع منضود».

ـ التقديم والتأخير مثل: «فيقتُلون ويُقتلون ـ فيُقَتلون ويَقتُلون» ومثل: «وجاءت سكرة الموت بالحق ـ وجاءت سكرة الحق بالموت».

ـ الزيادة والنقصان في أدوات العطف والجر مثل: «وأعَّد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ـ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار».

ـ اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والهمز وكسر حروف المضارعة وإشباع ميم الذكور وإتمام بعض الحركات.

ويقول الدكتور صبحي الصالح تعقيباً على هذه المتغيرات:

«والحق إن هذا الوجه الأخير أهم الأوجه السبعة لأنه يبرز الحكمة الكبرى من إنزال القرآن على سبعة أحرف، ففيه تخفيف وتيسير على هذه الأمة التي تعددت قبائلها فاختلفت لهجاتها وطريقة نطقها. ولقد اصطفى القرآن ما شاء منها بعد أن صهره في لغة قريش التي تمثلت فيها لغات العرب قاطبة (البخاري: ٦/ فضائل القرآن) لا لغات قبائل معينة ينتصر لها بعض العلماء بتعسُّف لا يؤيده دليل عقلي ولا نقلي. ذلك بأن العرب حين استصفوا لغة قريش وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة أثروا فيها مثلما تأثروا بها. فصدق على لهجة قريش مايصدق على اللغات جميعاً من قوانين التأثر والتأثير».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مباحث في علوم القرآن: ص ١١٣ (للشيخ صبحي الصالح).

ثانياً: هل كان الجمع بتوقيف على النبي أم بتوفيق من الصحابة؟:
ثالثاً: قصة جمع القرآن:
رابعاً: التدخل السياسي في القرآن.

هذه العناوين الثلاثة هي الأسس التي يقوم عليها بناء الكتاب مع باقي كتب المؤلف التي أربت على بضعة عشر كتاباً حددت بأسماء مختلفة وتحت عنوان واحد هو : «سلسلة الحوار الإسلامي المسيحي».

والفكرة هي فكرة جذابة، ولكن ذلك في المطلق أما في المضمون فإنها «خضراءُ الدِّمن».

فثمة اعتراضات لا حصر لها تقوم في ذهن أي قارىء لهذه السلسلة وهي في المحصلة تنفي المصداقية من أطروحات المؤلف.

فالمحاور الهادف إلى توحيد الآراء يعرفها من موقع الحياد المطلق. لا إفراط ولا تفريط، يمحو السلبيات أو يهوّن منها تسهيلا لتجاوزها، ويبرز الإيجابيات فيشرح غوامضها ويقربها من المنطق وذلك بتفصيل مجملها وإظهار خبيئها، غير أن كتب الحداد هي في موقع آخر.

إنها فكرة واحدة أو بضعة أفكار تخدم موضوعاً مركزياً واحداً يدور حوله هذا الكتاب كما سوف نرى فكرة مركزية هي الهمُّ الذي يحتل رأس المؤلف ويستقطب عواطفه، تتكرر وتستمر فلا تتوقف ولا تتعب ولا تلهث شأنها شأن البساط الدائر في العمل الذي تتواتر عليه الحركات في مواقعها دون تجاوز زماني أو مكاني.

فالمؤلف يقدم كتبه تحت عنوان الحوار.

ولكنه ما إن يدخل أولى عتباته حتى يهجر الحوار ويخلع جلد المحاور ليتحول إلى مُنَاضِل عقائدي تسمَّرت عواطفه حول قناعات معينة منها الإيجابي المطلق ومنها السلبي المطلق.

فالإيجابية عنده هي دوماً في خط المسيحية، التي يرى فيها الله وشريعته رؤية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العين ويلمسها لمس اليد وهي بكل ما فيها دون مساس، من طقوس وأفكار ومعتقدات عنوان الإيمان والحقيقة.

أما السلبية فهي في الإسلام ومنه وإليه، لأنه أدَّعى نشوءه عن نبوة مدعاة، واقتنص الإنجيل والتوراة، وصادر الطقوس والمعتقدات ونسبها إليه قوة واقتدارا فهو حركة سياسية ليس للسماء فيها علاقة، فكان القرآن آلتها النظرية وكان الغزو والقهر والاحتلال آلتها العسكرية. وفي هذه العناوين الثلاثة يضع القواعد التي يقوم عليها بناء كتابه.

ـ فالقرآن الذي يرى المسلمون فيه دستورهم الروحي ومجدهم الإلّهي لم تتألف آياته في سورها بعهد النبي ولم تترتب بأمره، فالواقع التاريخي يثبت استحالة ذلك (ص: ٢٦ـ ٢٧).

ـ والأمر ذاته في ترتيب سور القرآن التي واجهت عملية التصحيف العثمانية عدداً كبيراً منها، جمعها ورتبها الحفظة المتعددون كل حسب اجتهاده ـ ص ٢٧.

ـ وجمع القرآن في عهد عثمان هو المرحلة النهائية من مراحل الجمع، فكان للسياسة ولظروف الحرب والاحتلال، أثناء هذه المرحلة تأثير كبير لعله كان الأخطر شأنا بين جميع المؤثرات إذ هو الذي حفر هذا الأخدود العميق الأسود المديد الذي فصل ما بين الإسلام والمسيحية والذي لا يزال فاصلاً حتى اليوم.

* * *

هنا تبدو غاية المؤلف بكل وضوح.

فقرآن المسلمين هو غير مصحف عثمان، لأن قرآن المسلمين لم يهاجم المسيحية ولم يلتق بها ولم يندد بعقائدها.

وقرآن المسلمين امتداد للنصرانية وترجمة عن إنجيلها وقائل بعقيدتها ومجدد لطريقتها.

في حين أن مصحف عثمان يثني على النصرانية حيناً ثم ينقلب عليها فيهاجم معتقداتها ويرميها بالكفر والشرك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويعمم المسلمون هذه الأحكام على المسيحية خلافاً للقرآن والإسلام الحقيقيين.

هكذا يتحدث الأستاذ الحداد.

وما على من يقرأون مؤلفاته إلا أن يؤمنوا معه بأن آيات التكفير والجدال العقائدي ألّفها عثمان من عنده ووضعها في القرآن تلبية لرغبات وأحقاد الفاتحين.

أما الأدلة التي تأبطها ليقنع القرآء بصواب نظريته فقد لخصها بالآتي:

١ ـ إن ترتيب الآيات في السور كانت باجتهاد الصحابة ولم تكن بمشورة النبي وأمره، فالترتيب غير معصوم ولا يحمل قداسة العصمة من الخطأ.

٢ ـ وكذلك جمع القرآن الذي تم بعد وفاة النبي، ومن خلال مراحل عدة.

٣ ـ والسياسة التي لم يرتفع في وجهها أي جدار يحول بينها وبين التأثير على الجمع والترتيب ولم تصطدم بالعصمة التي تمنعها من التدخل، تسللت إلى حرم السور المقدسة فاختلطت العواطف البشرية بالآيات الأزلية اختلاطاً استحال معه التمييز بين الإلّهي والبشري.

* * *

إن ما قدمه المؤلف على أنه أدلة وأحكامٌ عادية لم يكن غير عبارات نارية أطلقها بهدوء واطمئنان الواثق، مسقطاً عن عاتقه واجب التوثيق والاعتماد على المصادر، لأن أحكامه مبرمة وآراءه منزهة عن الجدال والنقاش، وقد غاب عن نظره أن المؤلف عندما يستنبىء التاريخ وينسب إليه الوقائع يجدر به أن يعثر على الإسناد الصحيح وإلا تعرضت مصداقيته للإهتزاز عند قرائه.

هذا فضلاً عن أن الأثر الذي خلا من الاسانيد أو اعتمد على الضعيف منها كثر عثاره وسهل حواره لذلك وبثقةٍ تفوق ثقته أضع ملاحظاتي على مقولاته:

١ ـ إن ترتيب الآيات في السور كان وقفاً على إرشادات النبي وأوامره، لذلك سمي في المراجع «عملاً توقيفياً» تمييزاً له عما نسب إلى الصحابة الذين أطلقوا عليه اسم «العمل التوفيقي» وهذا ثابت بالنص وإجماع المجتهدين وعلماء القرآن:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ففي حديث زيد أوضح المقصود من تأليف القرآن من الرقاع بأنه: «ترتيب الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها». لهذا لا يجوز الإبدال ولا التعكيس ولا الرفع ولا الوضع ويُستدل على ذلك بما أخرجه البخاري عن أبي جعفر بن الزبير قال:

قلت لعثمان: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً...﴾ (٢/ ٢٣٤: البقرة). قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبُها ولم لا تدعُها؟ قال يا ابن أخي: لا أغير شيئاً من مكانه. (صحيح البخاري: ٦/ ٢٩ والاتقان: ١/ ١٠٥).

أي: إن عثمان لا يجرؤ على إهمالها ولو كانت منسوخة لأنها في مكانها بتوقيف النبي (ص).

ـ وجاء في الاتقان ١/ ٨٠: «أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله (ص) إذ شخص ببصره ثم صوَّبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...﴾ إلى آخرها...».

ـ وأورد صاحب الاتقان في الصحيفة ذاتها ما أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن حيان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله (ص) تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل في المدينة وكانت براءة من أواخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها. وقُبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال.

ـ وقال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقال أيضاً: الذي نذهب إليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي حواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه شيء وأن ترتيبه ونظمه ثابتان على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور لم يقدم من ذلك مؤخر ولا أخر منه مقدم وإن الأمة ضبطت عن النبي (ص) ترتيب آي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة (الاتقان: ١/ ٨٢).

ـ وقد جمع الدكتور صبحي الصالح في الفصل الأول من الباب الثاني (مباحث في علوم القرآن) عدداً غير يسير من الأسانيد والأحاديث والوقائع التي تصور الرسول (ص) يملي القرآن على كتّاب الوحي ويوقفهم على ترتيب الآيات منها: (صحيح البخاري ـ كتاب تفسير القرآن ـ الباب الثامن عشر) و(كتاب الأحكام ـ الباب السابع والتسعون) و(مسند ابن حنبل: ٣/ ١٢٠ و ٤/ ٣٨١) و(البرهان للزركشي) و (الدُّرر الكامنة لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي المكنّى بأبي جعفر: ١/ ٨٤ ـ ٨٦)..

٢ ـ أما ترتيب السور في القرآن فسواء أكان توقيفيا أم توفيقياً أم كان على القسمين وفقاً للقول الراجح فقد ثبت بالأدلة والأسانيد التي لا تحصى أن القرآن كله كتب في عهد النبي غير مجموع في مصحف واحد لأن حفظ الصحابة له في صدورهم كما وقفهم عليه رسول الله ونبههم إلى مواضع الآيات بتوقيف من الله أغنى عن الجمع في مجموع واحد ـ الدكتور الصالح ـ ص: ٧٣. وأضاف:

قال الزركشي: وإنما لم يكتب في عهد النبي مصحف لئلا يُفضِيْ إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزوله بموت النبي (ص) ـ البرهان: ١/ ٢٦٢.

تلك المراجع والأدلة والتواتر المسند، تغافل المؤلف عنها، وهي قليل من كثير، ليقول دون مرجع أو دليل: «إن الواقع التاريخي يشهد باستحالة تأليف الآيات في السورة بالتوقيف على النبي وإن ذلك كان باجتهاد الصحابة ـ ص: ٢٧ من كتابه».

ولكن كيف يطلب من أي قارىء وخاصة القارىء المسلم أن يشطب من كتبه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وينفي من ذاكرته تلك الروايات التي تسلسلت حتى الصحابة والنبي، ليضع مكانها قولاً مرسلاً صادراً عن مؤلف عصري دون دعمٍ مرجعي.. ومحمُولٍ على نيَّاتٍ مشكوك في مصداقيتها؟

٣ ـ تمت عملية جمع القرآن على عهدين: عهد أبي بكر. وعهد عثمان وكان جمعُهُ في كل عهد يلبي حاجة اجتماعية قائمة.

ـ فحرب اليمامة التي استحرَّ فيها القتل بالقرّاء كما قال عمر (ر) واستشهاد سبعين منهم خلالها هو الذي دفع بعمر إلى تقديم المشورة بجمع القرآن واعتقاد عمر أن جمع القرآن هو خير ـ كما أقسم لأبي بكر ـ كيلا يذهب الكثير من القرآن بذهاب الكثيرين من القراء.

ـ واختلاف الناس في القراءة وأداء القرآن بعهد عثمان هو الذي دفع إلى استحضار الصحف التي جمعها أبو بكر والتي كانت انتقلت بعد وفاته إلى عمر ومن عمر بعد وفاته إلى ام المؤمنين حفصة لكي يجمعها في كتاب واحد يكون «مصحفاً إماماً» ليستنسخ منه عدداً يوافي بها الأمصار فتتوحد القراءة ويتفق الأداءُ ويزولُ الخلاف الذي يؤدي إلى الاختلاف.

ـ والقرآن الذي ضم مئة وأربع عشرة سورة تتألف من ستة آلاف وستماية وست عشرة آية التي تتكوَّن بدورها من ثلاثماية وثلاثة وعشرين ألفاً وستماية وواحد وسبعين حرفاً.

هذا «المُعجز الضخم» كان خالياً من «النقط» و «الشكل» و «الفواصل» وكان منذ أيام النبي وحتى أيام أبي بكر محفوظاً في صدور الحفظة والقراء أو على صحف مجموعة عند بعض الصحابة. ولقد ذكر ابن النديم أسماءها في «الفهرست» وكذلك ابن أشته في «المصاحف» فقالا: لقد رتَّبها جامعوها كلٌّ باجتهاده الشخصي وأضافا إليها هوامش تفسيرية لتوضيح الغامض وتفصيل المجمل. فمن الصحابة ـ كما نقل السيوطي عن ابن الجزري ـ من كان يكتب في مصحفه ما سمع تفسيره وإيضاحه من النبي فقال:

«وربما يدخلون التفسير في القرآن إيضاحاً وبياناً، لأنهم محققون لما تلقوه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن النَّبي (ص) قرآنا فهم آمنون من الالتباس وربما كان بعضهم يكتبه معه أي مع القرآن في المصحف الذي يكتبه لنفسه كمصحف عائشة» ـ الاتقان: ١/ ١٣٤ والدكتور الصالح ـ ص: ٨٥.

ـ لذلك يتزايد قلق الصحابة يوماً بعد يوم فَزَعاً من اختلاف المسلمين في القراءة، ذلك الاختلاف الذي كان يتسع كلما قلَّ عدد القراء والحفاظ. والصحابة الذين عاصروا نزول القرآن. وقد أشار ابن جرير الطبري إلى ذلك في تفسيره للآية ٢١/١ من سورة البقرة والسيوطي في ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣ من الاتقان، في خبر عن طريق أيوب بن أبي قلابة جاء فيه:

«لما كان في خلافة عثمان جعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بقراءة بعض فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: «أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحنا. اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً».

٤ ـ ولقد اتفقت جميع المراجع على أن زيداً بن ثابت جمع القرآن من «العسب» و«اللخاف» و«الرقاع» و«قطع الأديم» و«الأكتاف» و«الأقتاب»[١] وأطلق على هذا «المتعدد» اسم «الصحف»[٢] أما تسمية هذا «المتعدد» بعد جمعه باسم «المصحف» فقد تمت في عهد أبي بكر ـ على ما أخرجه ابن أشعث في كتاب المصاحف ـ عن طريق موسى بن عتبة بن شهاب قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق قال أبو بكر التمسوا له اسما فقال بعضهم: «السفر» قال: ذلك تسمية اليهود فكرهوا ذلك وقال بعضهم: المصحف فإن الحبشة يسمون مثله المصحف. فاجتمع

---

(١) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل، واللخاف جمع لخفة وهي الحجارة والرقاق من صفائح الحجارة. والرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والاكتاف جمع كتف عظم كتف البعير أو الشاة. والأقتاب جمع قتب وهو الخشب يوضع على ظهر البعير. والأديم هو الجلد المبشور وجهه ـ أي المدبوغ.

(٢) أطلق هذا الأسم لاول مرة على هذا الجمع قبل ضمه في مصحف وقد قام بعملية الضم والتسمية زيد بن ثابت الذي نسخ القرآن المفرق في صحف، ثم جمعها بجامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء ـ البرهان ١/ ٢٣٨ والاتقان ١/ ١٠١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأيهم عليه (الاتقان: ١/ ٨٩ طبعة ١٩٤٠ و ١/ ٧٨ طبعة ١٩٧٨).

٥ ـ وخلافاً لما زعمه المؤلف من قيام المعارضة ضد عثمان فقد ثبت بالإسناد الموثوق أن ما قام به كان على ملأٍ من الجميع وبمباركةٍ منهم. فهذا علي بن أبي طالب يترحم على أبي بكر ويثني على عثمان للعمل الجليل الذي قاما به في جمع القرآن بالصحف .ثم بالمصاحف فيما بعد. فقد اثر عنه قوله: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله. (أخرجه ابن أبي داوود في المصاحف بسند صحيح وأورده السيوطي في الإتقان ص ٧٦ طبعة ١٩٧٨).

كما رَوَى أيضاً سويد بن غفلة قال: «قال علي لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله مافعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملأٍ منا» وقال: «لو وليت ما ولي عثمان لعَملت بالمصاحف ما عمل» (الإتقان للسيوطي ص ٧٩ ـ طبعة ١٩٧٨).

وهذا ابن مسعود الذي أبى في البداية أن يحرق مصحفه الخاص لأنه أحد الأربعة الذين أمر رسول الله (ص) بأخذ القرآن عنهم في حديثه المشهور: «خذوا القرآن عن أربعة» يعني (عبد الله بن مسعود) و(سالم مولى أبي حذيفة) و(معاذ بن جبل) و(أبيّ بن كعب) ـ البخاري ٦/ ١٨٦.

نقول:

هذا ابن مسعود يرجع أخيراً إلى المصحف الإمام الذي اجتمع عليه رأي الأمة كلها وهي حينئذٍ تنشد وحدة الكلمة والقضاء على أسباب النزاع (كتاب المصاحف لابن أبي داوود ـ ص: ١٢ طبعة ١٩٣٧ ـ ليدن ـ نشر آرثر جيفري).

٦ ـ أما زعم المؤلف بأن عثمان قام بتغيير المصاحف. فهو قول مردود بِقُوَّة المنطق وصراحة التاريخ على السواء.

ـ ففي التاريخ: إن الجهة التي جمعت الصحف في مصحف واحد كانت مؤلفة من أربعة هم: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. ولم يكن عثمان واحداً من أفرادها ثم إن زيداً بن ثابت هو الذي قام بجمع القرآن في الصحف بعهد أبي بكر وظلت تلك الصحف قرآن أبي بكر حتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفاته ثم انتقلت إلى عمر حتى وفاته ثم وضعت عند أمّ المؤمنين حفصة حيث استعادها عثمان أمانة عند جمع القرآن بناءً على طلب اللجنة. وزيد حضر العُرضَة الأخيرة كاملة[1].

ـ وفي المنطق يقوم الاعتراض على دعامتين أولاهما: إن عثمان (ر) لم يكن فرداً عادياً يغمز في إيمانه بالدعوة. فقد سار معها على طريق الكفاح منذ البداية وتحمَّل في سبيلها ما تحمله أوائل الصحابة من إرهاب فما تخلى عنها. ولا تخلف عن مسؤلياتها ثم هو ذو النورين وخليفة المسلمين، فكيف يحرّف دستور الأمة التي استخلف عليها وهو الدستور الذي انطبعت آياته في وجدانه كلمة كلمة وحرفا حرفاً.

أما الدعامة الثانية للاعتراض فهي أن عثمان لم يكن وحيد الرأي، وخاصة فيما يتعلق بأمور العقيدة بل كان من حوله وبين يديه صحابة لهم السابقة والفضل، قرأوا الكتاب وحفظوه وجمعوه ومنهم من باعوا أنفسهم وأموالهم لله، فهم أشد ما يكون الحرص على دينه وكتابه حتى ولو تقاضاهم ذلك النفس والمال والولد. فما كان يمكن أن يغير عثمان أو سواه أو يبدّلوا أو يعدّلوا نحو الزيادة أو النقصان في كتاب الله.

فالمؤلف الذي يعرف كيف تمَّ جمع التوراة والإنجيل، ويعرف تاريخ كل منهما، وما كابده من معاناة حتى بلغ ما هو عليه الآن مما جعل الشكُّ في الإسْناد والتواتر قائماً في مواجهتها على الدوام. المؤلف الذي يُدْرك ذلك أتم الإدراك يجاهد كي يضع القرآن على خط مماثل وذلك من أجل زعزعة اليقين في عصمة نصوصه وثباتها ومناعتها وصحة أسانيدها وتواترها.

بعد أن انتهى من بث الإيهام والشكوك في «الأحرف السبعة» التفت إلى عملية جمع القرآن فرأى من خلالها بداية الأخاديد العقائدية التي شققت دعوة الإسلام وجزأتها، فعملية الجمع، هي عملية سياسية خضعت لسلطان الخليفة مثلما خضع

---

(١) العُرضة هي تلاوة القرآن من قبل الرسول أمام جبرائيل وكانت تتم مرة كل عام. وفي السنة الأخيرة تمت مرتين حضر زيد الأخيرة منهما وقد قال الرسول: ما أظن إلا إنني مدعو إلى ربي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجمع نيقيا لسلطان الإمبراطور وعبَّرت عن مقاصده السياسية مثلما عبر المجمع.

وكان أهم وترٍ عَزَفَ عليه هو وتر الخلاف بين السنة والشيعة الذي عاد به إلى تاريخ جمع القرآن فقال:

أ ـ في ترتيب القرآن وتأليفه نزعتان، النزعة الهاشمية عند آل البيت بزعامة علي والنزعة الأموية التي انتصرت وكان ترتيبها على اختلاف شديدٍ مع الأولى (ص: ٢٧).

ب ـ كان للخلفاء مصحفهم ولآل البيت مصحفهم (ص: ٢٩).

ج ـ لمَّا آلت الخلافة مع عثمان إلى جانب بني أمية بدأ آل البيت يستشهدون بالقرآن لتأييد حقهم في الخلافة (ص: ٣٠) وهي أقوال أطلقها المؤلف، دون مؤيد.

فالخلاف الذي أشير إليه لم يكن خلافاً على القرآن بل كان خلافاً على الخلافة، وفي جميع ما قيل أو كتب لم تستشهد الشيعة على تعدد فرقها بآيات من مصحف خاص، ولم تنسب لآل البيت مصحفاً خاصّاً، وإن كان الإمام علي قد حفظ القرآن وجمعه لنفسه فإنه في النتيجة لم يكن في ما جمعه أية زيادة أو نقص في الأحكام عن المصحف «الإمام» ولو وجد شيئاً من الفروق التي تمس سلامة الدين والعقيدة لجاهر علي بهذا ولكان الجهاد في سبيله هو أقدس أنواع الجهاد. ولما كان التاريخ حفظ له مقولته في «الترحم على أبي بكر» والثناء على عثمان.

واحتجاج آل البيت وشيعتهم بالقرآن لم ينقص بعد الجمع العثماني عما كان عليه قبل الجمع، إذ لم يثبت أن المصحف «العثماني» قد حذف أو أضاف أية آيةٍ أو كلمةٍ نزلت في آل البيت أو تحدثت عن احدى فضائلهم، والمصحف الإمام هو المصحف في جميع أصقاع الأرض، قامت له هذه الإمامة منذ أن جمعته اللجنة حتى الآن فلو كان للشيعة مصحف يختلف عن هذا المصحف زيادة أو نقصاناً، لالتمسوا فيه دينهم ودافعوا عنه وتحدوا به سواه، ولكنه هو دستور كل من ينطق بالشهادتين في العالم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧ ـ يقول المؤلف: إن القرآن دستور الإسلام ديناً ودولة وثقافة، فكان لا بد للصحابة والأمة من جمعه (ص: ٣١).

ويقول: الشبهة الكبرى تظل عالقة بالجمع العثماني، لأنه أتلف المصحف الذي قام الخليفتان بجمعه على يد زيد بن ثابت وقد كان مودعاً عند حفصة «زوج النبي» منذ وفاة عمر. ويتساءل: لماذا أتلف عثمان هذا المصحف الرسمي؟.

ثم يتابع: إن التهم التي لاحقت عثمان صدرت عن الشيعة لإسقاطه من القرآن ما ينفي وصية الرسول لعلي بالخلافة وكذلك لإسقاطه ما يخصُّ علياً وآل البيت (ص: ٣٢).

ويقول: إن سورة آل عمران نزلت في أول العهد بالمدينة (في زمن غزوة بدر الأولى بعام ٦٢٤ م وغزوة أحد بعام ٦٢٥ م وبدر الثانية بعام ٦٢٦ م. وكان الجدال مع اليهود على أشده، حيث تمت تصفيتهم بعد واقعة الخندق بعام ٦٢٧ م وبعد فتح مكة بعام ٦٣٠ م لم يعد لليهود من كلمة ولم يقم بينهم وبين القرآن أي جدال. أما غزوة تبوك فهي في عام ٦٣٠ م.

وفي ذلك العام المسمى عام الوفود الممتد ما بين آذار ٦٣٠ م حتى الثامن من آذار ٦٣١ حضر وفد نجران المسيحي، الذي قام بينه وبين النبي جدال عقائدي، بينما كانت تتوالى آيات سورة المائدة بالنزول. لذلك كان يجب أن يتمركز موقع الجدال في هذه السورة، ولكن الأمر جرى على خلاف ذلك فنُقِل الجدال إلى سورة آل عمران بالآيات ٣٣ ـ ٦٤ مع أن سورة آل عمران هي سورة جدال مع اليهودية وحدها. ولم يقف الحال عند هذا الحد، بل أقحموا تكفيرات القرآن للنصرانية مع الآيات التي تخصصت للجدال مع اليهود في سورة النساء (١٧٠ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣). وهذا الإقحام ظاهر يمكن رؤيته من ملاحظة انقطاع السياق في الخطاب القرآني بالآية ١٦٩.

وكذلك جاء الإقحام في سورة مريم (٣٤ ـ ٤٠) يدل عليه تغير الرَّويّ والفاصلة عما سبقها من (١٤ ـ ٣٣).

والأمر ذاته في سورة الأعراف حيث تقتحم الآيات (١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٧)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسلسل قصص إبراهيم وبني إسرائيل بطريقة نافرة مكشوفة (ص٣٣ و٣٤ و٣٥).

يضاف إلى كل ما تقدم: يقول المؤلف: «جدال القرآن مع أهل الكتاب في «الأنعام» و«الأعراف» مع أن السورتين توجهتا إلى جدال المشركين من أهل مكة. ومع أن القرآن ـ في غير هاتين السورتين ـ حذَّر من جدال أهل الكتاب إلا بالحكمة والموعظة الحسنة (العنكبوت ٤٦ والنمل ١٢٥) ـ (ص ٣٤ ـ ٣٥).

إننا نلاحظ اهتمام المؤلف في هذا القسم الأخير من الفقرة (٧) بتكرار كلمة «إقحام النصارى» حتى غدت كأنها العنوان الرئيسي لمواضيع هذه الفقرة ناسياً أنه خصص لها «كامل البحث الثالث». لذلك سوف نرجىء مناقشة موضوع «إقحام النصارى» إلى حينه لنكتفي هنا بتدوين ملحوظاتنا على بقية ما ورد من أفكار المؤلف في هذه الفقرة كالآتي:

أ ـ إذا كان القرآن دستور الإسلام ديناً ودولة وثقافة ـ وهذه حقيقة لا ينكرها أحد ـ فإنه من المستحيل أن يغير عثمان أو سواه في نصوصه وأحكامه، زيادة أو نقصاناً أو تعديلاً ـ لأن الدستور في الأمم وخاصة الذي يستمد مناعته وقدسيته ورسوخه من الله ـ يمثل لهذه الأمم أسمى وأرسخ ما عندها من العقائد والقيم وقواعد السلوك. فليس في مقدور عثمان أن يفرض في القرآن تكفير النصارى. أو تسفيه عقيدة الشرك والتثليث، فرضاً من عنده، لأنه يكون بذلك قد تجاوز موقع الرسول فوضع في القرآن ما لم ينزل به وحي، وهذا غير مسموح به حتى للنبي: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي...﴾ (١١٠/١٨: الكهف). كما أن هذا لم يكن لعثمان أن يدعيه ولا للمسلمين أن يقبلوه.

ب ـ ولقد ثبت في مراجع الحديث والسيرة والتاريخ أنَّ الصُّحُفَ التي جمعها زيد بن ثابت تنفيذاً لتكليف الخليفتين أبي بكر وعمر، ظلت عند أبي بكر حتى وفاته، وعند عمر حتى وفاته، ثم أودعها عند الوفاة إلى ابنته حفصة لأنها أم المؤمنين من جهة ولأنها كانت تحفظ القرآن من جهة ثانية، ولأن المسلمين لم يكونوا قد اتفقوا على خليفة. وقد ظلت هذه الصحف عند حفصة حتى طلبها عثمان فرفضت طلبه إلا إذا عاهدها ليرُدَّنَّها إليها. ولما أعطاها عهده بعثتها إليه فنسخها في المصاحف ثم ردَّها إليها وظلت عندها حتى خلافة مروان الذي طلبها فرفضت طلبه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنتين قد أمر النبي أن توضع مع آيات سبق نزولها بسنوات؟.

ومادام المؤلف لايشك ولا يشكِّكُ في نزول الآيات وحياً على النبي، ولا يدعي أن ترتيبها كان بتوفيق من الصحابة بل بتوقيف من النبي، فإن التخطئة في الترتيب وتوزيع آيات الجدال العقائدي مع النصارى على سور عدة هو تخطئة للنبي نفسه. وهو تجاوز من المؤلف يخرج به عن حدوده خروجاً كاملاً.

ثم: ودون أن ندَّعي الدفاع عن رسول الله ورسالته ـ فالرسالة دافعت عن نفسها وانتصرت ـ نقول: لم تدرج آيات الجدال مع النصارى إلا في مكان يكون فيه قائماً مع أصحاب العقائد التي ناوأت الرسالة ورفضتها من أهل الكتاب (يهود أو نصارى) أو سواهم.

وسوف: يقضي الأستاذ الحداد عشرات الأعمار مثل عمره، دون أن يملك الوسيلة المقنعة في نقد القرآن «أحكاماً» «وشرائع» و«لغة» و«ترتيباً».

البحث الثالث

إقحام اسم النصارى في سبع آيات مدنية

في هذا البحث يشرح المؤلف كيفية إقحام «اسم النصارى» في سور «البقرة وآل عمران والمائدة» ثم يقدم في خاتمة البحث خلاصة لآثار هذا الإقحام على القرآن وعلى العلاقة التاريخية بين الإسلام والنصارى فيقول:

وهذا الإقحام المكشوف شوّه صحة موقف القرآن من أهل الإنجيل لأنه أعلن منذ البدء التقاءه مع النصارى من بني اسرائيل ومن تنصر معهم من العرب في أمةٍ واحدة جمعتها وحدة العقيدة (١٨ ـ ١٩ من آل عمران) ووحدة الجهاد (١٤ ـ الصف).

غير أن اقتحام السور الثلاث وإدخال النصارى في آياتها على المستوى العدائي ذاته من اليهود خلق تناقضاً في تقويم القرآن ومواقفه وطبع العلاقة بين المسلمين والنصارى بالطابع العدواني ولا يبرر ذلك قول القائل بأن مقصود القرآن كان متجهاً إلى من يؤلِّهون المسيح، لأن القرآن لم يلتق بالمسيحية ولم يتعرف عليها ولم يجادل من بين طوائفها غير الطائفة اليعقوبية من خلال وفد نجران ولمرة واحدة. لذلك فإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبقيت محافظة عليها حتى توفيت فأخذها مروان وأحرقها وقال مدافعاً عن موقفه وتصرفه: إنما فعلتُ هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الإمام فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب[1].

ج ـ ويركز المؤلف اهتمامه على تجييش الخصومة والخصوم ضد القرآن فيستنفر عواطف الشيعة ويتحزَّبُ لهم وينبِّههم إلى ما غفلوا عنه فيزعم أن من أول بواعث التغيير والتبديل لدى عثمان هو حذف وإلغاء كل ما ورد في القرآن عن فضائل آل البيت والنَّص بالخلافة على علي.

مرحى لهذا المؤلف، في هذا الزمن الأخير. وجزاه الله جزاءً عدلاً على حقيقة نِيَّاتِه، فهو عرف ـ دون سند طبعاً ـ أكثر مما عرفه علماء الشيعة وفقهاؤها ومؤلفوها على مر الزمان. فجاء ـ في هذا اليوم ـ تخنقه عبرات التأثر على آل البيت، يذكّر أحفادهم وأتباعهم بأن القرآن كان زاخراً بالآيات الخاصة بهم. ولكن عثمان بن عفان محاها فلم يبق غير القليل الغامض منها، لكي تبقى الخلافة في بني عمه الأمويين بمنجاةٍ من مطالبات الطالبيين، فلا يجدون بين أيديهم وسيلة داعمة من القرآن.

مرة أخرى: ندعو لهذا المؤلف أن يعامله الله بالعدل، لا بالرحمة[2].

د ـ وإذا كان جميع من درسوا وكتبوا وألفوا في «نزول القرآن» و«ترتيب آياته في السور» متَّفقين على أن الترتيب كان وحيا وأن هذا الوحي كان يتلقاه النبي (ص) ويبلغه أوامر الى كتَّاب الوحي فيضعون الآية أو الآيات الموحى بها في السورة التي كانت سبقتها في النزول إلى جانب الآيات أو بين الآيات التي تقوم معها رابطة موضوعية.

فكيف يستغرب المؤلف أن تكون آيات قد نزلت قبل موت النبي بسنة أو

---

(١) كتاب المصاحف لابن أبي داوود ـ ص ٢٤.

(٢) المعاملة بالعدل هو ما قال الكتاب: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزلة: ٧ ـ ٨) أما الرحمة ففي قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ (٣٩/ ٥٣: الزمر).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إعادة التوازن الموضوعي إلى القرآن وإزالة الغبن التاريخي الذي ألحقه بالنصارى والمسيحيين لا يتم إلا بإسقاط كلمات «النصارى» من الآيات واستبعاد المسيحيين من مفهوم «النصارى» ص ـ ٣٦.

بهذه العبارات حدَّد المؤلف خطته في كتابه، وأوضح الأهداف التي يسعى إليها في جميع مؤلفاته وهي أهداف سهلة في «التصور» ممتنعة في «التنفيذ».

ففي رأي المؤلف أن الأمر لا يتطلب أكثر من اتخاذ خطوة علمانية جريئة تُستدعى فيها جميع المصاحف من المكاتب والمكتبات والمنازل والجيوب وصدور الحفاظ، ثم يحكم بالتسفيه والإعدام على كل ما يعرِّضُ بمعتقدات النصارى من آيات وأجزاء آيات وإبلاغ هذا البحر الكبير من البشر أن عثمان بن عفان تجرأ على كتاب الله. فوضع فيه من عنده مدعياً أنه من عند الله.

وعند ذلك ـ والمؤلف هو الكفيل الضامن ـ بأن الشوائب التي شابت القرآن الحقيقي سوف تسقط وتزول وإذ ذاك ـ يؤكد المؤلف ـ يتحاضن المسلمون والنصارى بملء الاطمئنان العقائدي وينطفىء ذلك الهجران والجفاء اللذان استمرا أربعة عشر قرناً فيحقق اللقاء بينهما قيام الأمة الواحدة التي تجمعها وحدة العقيدة ووحدة الجهاد.

أما عثمان خليفة المسلمين، وأما لجنة جمع القرآن وكلُّهم من الحفظة والقراء والصحابة الذين عاصروا نزول الآيات ودونوها فور النزول على جدران قلوبهم والذين قرأوا مصحف عثمان فلم يعترضوا ولم يعارضوا، فكانوا في سكوتهم على «فعل عثمان» شركاء له في الإثم العظيم.

هؤلاء جميعاً وهم عَدد غير محصور، سوف يسدل ستار من الشك على كل ما أثر عنهم من قيم وفضائل وأقوال وآثار ـ لأنهم في تقييم الأستاذ الحداد ـ أئتُمِنُوا فخانوا، ورووا فحرفوا، وتجرؤوا مع عثمان وجرَّؤوه على كتاب الله فبدّل وغيَّر وأورث العالم الإسلامي هذا الميراث العدائي الكبير، والمؤلف الذي يلقي بيننا بهذه التصورات يُغمض عينيه حتى الانطفاء عن وجوه الاستحالة المانعة من تحققها والتي نلخصها بالآتي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأول والأهم: هو إنه يستحيل اقناع إنسان ينطق الشهادتين أن يلغي من ذاكرته تلك الصور الخلابة من الصدق والإيمان والنقاء العقائدي التي كان يتحلى بها الرعيل الأول من رفقاء النبي وصحابته الذين سمعوا منه وتلقوا عنه وكتبوا ما سمعوه وما تلقوه بإملائه ووضعوه في أماكنه من السور بأوامره، هؤلاء هم شهود الوحي الإلّهي حفظوا منه قوله:

﴿لا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه﴾(٢/ ٢٨٣) وقوله: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾**(٢/ ٧٩) وقوله: **﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾**(٣/ ٧٨).

حفظوا ذلك وهم على يقين من أنها آيات نزلت فيمن افترى الكذب على الله وحرف كتابه من اليهود فهل ينزلونه بأنفسهم إلى هذا الحضيض من الكفر العقائدي؟.

كيف يستطيعون؟ وكيف يمكن بناء نظرية متكاملة على هذا الإفتراض؟.

عثمان الصحابي الجليل، والخليفة الذي يحمي دستور المسلمين ومعه لجنة المصاحف، ومن حوله الصحابة وبين يديه عدد غير محدود من حفظة القرآن، هل يعقل أن يتفق الجميع على تغيير القرآن أو تعديله، وهم الذين علموا قبل غيرهم ما ينتظر مرتكبي هذا الغلط من الإتهام الأبدي بالكذب على الله والوعيد بالويل؟.

في اليقين، لو أدرك المؤلف خطورة أطروحاته واستحالة تصوراته، بدءاً من اجتراحه فكرة الإقحام وانتهاء باقتراحه حكم الاعدام، لما توغل في هذا التيه من العبث.

وثمة وجه آخر من وجوه الاستحالة وهو أن القرون العديدة التي عاشتها هذه الأمة في ظل هذه الثوابت من الآثار الدينية والفكرية، وسيرة ذلك الطراز الجليل من قادة الدين والدنيا ترسخت في تراثها فما يستطاع الفكاك عنها لأن التصاق التراث بالأجيال اللاحقة هو جزء من قَدَرِها الذي لا حيلة لها في محوه وإلغائه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد: فنحن مع المؤلف في كتابه:

ـ ليس بقادرٍ على التنصل مما كتب.

ـ ولسنا بقادرين على القبول أو السكوت عما كتب.

فالمواجهة فرضتها المواقف التي لا يستطاع العدول عنها.

وإذ أقول المجابهة، فليس ذلك استجابة لعواطف خصامية بل لدقة الطرح وعمقه ومداه وتأثيره على الثوابت الدينية والفلسفية والتاريخية في كلا العالمين الإسلامي والمسيحي.

فالآيات، وإن كانت قليلة العدد، هي قاطعة في تحديد الرؤية العقائدية بين أجيال الطرفين منذ بدء الدعوة وحتى الآن.

والخلاف بين المؤلف ومخالفيه لا يقوم حول الوحي وكيفية التنزيل وتوزيع الآيات على السور بل على ما اكتشفه المؤلف في القرآن وهو أن كلمة «النصارى» تكرر إقحامها في آيات التكفير والجدل العقائدي إقحاماً دل عليه التنافر اللفظي والتخلخل المعنوي الذي يبدو للقارىء المدقق واضحاً أتم الوضوح. كما دل عليه ذلك التناقض القائم بين آيات الثناء على النصارى التي بلغت بهم مرتبة المتقين. وبين آيات الجدال التي انخفضت بهم إلى مستوى الكفّار والمشركين، وكلاهما، التنافر والتناقض لا يمكن أن يكونا ـ أصلاً ـ في القرآن العظيم.

لذلك يرى المؤلف: أن علاج الموقف والعودة بالقرآن إلى التجانس اللفظي والمعنوي لا تتم إلا بإسقاط كلمة «النصارى» من آيات التنديد والتكفير ومحوها من ذاكرة الناس ومن قناعاتهم قراءة وعقيدة.

لقد تتبع المؤلِّف الآيات المشكو منها فوجدها في سور «البقرة وآل عمران» و«المائدة» فعرفها تحت عناوين هذه السور وقام بتحليلها وتفكيك معانيها، مكتفيا بما يملكه من مخزون لغوي وثقافة تاريخية ملتفتا عن المعاجم والمراجع.

أما نحن فلنا أن يظلَّ شكنا في مقولاته قائماً حتى نُخضِعُها إلى اختبار الحقيقة التي لا تتغذى إلا بالصحيح من قواعد اللغة ومعانيها والموثوق من المراجع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخية والدينية وإذ عكفنا عليه قراءة وتحليلاً واستنتاجاً لم نجد غير ما عهدناه، يقرأ فيخطىء ويحلل فيخطىء ويستنتج فيخطىء ويتفنَّن في تنويع الأخطاء التي لم تخطىء لكي تصيب مرة واحدة في طريق صاعدة تدرجت في الجسامة حتى مستوى الارتكاب العلمي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإقحام في سورة البقرة

أقحمت «كلمة النصارى» على السورة في المواطن الأربعة الآتية:

أولاً: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾(البقرة: ٢/ ١٣٥):

قال المؤلف: هذه الآية تشكل مع ما يليها حتى الآية (١٤١) موضوعاً مستقلاً عما قبله وعما بعده من الآيات لأن القرآن كان قد وصف «بالهدى» أمة الكتاب بصيغة عامة أدخلت النصارى في النص فاعترض اليهود على التعميم ـ لأنهم في زعمهم ـ أصحاب الهدى من دون أهل الكتاب وواجهوا صيغة القرآن بطرح شعارهم الخاص، كونوا هوداً تهتدوا، وهو شعار خاص تميز بالجناس اللفظي وبكونه التعبير الحقيقي عن رؤية اليهود إلى غيرهم.

وفي ذلك يقول المؤلف: إن هذه العبارة هي النص الأصْلي المنزّل على النبي، ولكن كلمة «أو نصارى» أدخلت في وسط الآية ففصلت بين الشرط وجوابه، فصلاً ممجوجاً، تاركة معها خللاً واضحاً في الصياغة والتركيب.

ويعلق المؤلف بقوله: إن إقحام هذه الكلمة أفسد النظم والمعنى، وأقام تعارضاً بين التفكير والتعبير، فلا يعقل أن يقبل اليهود بالهداية النصرانية ولا يعقل أن يقبل النصارى بالهداية اليهودية، وهذا هو الوجه الفاضح في الإقحام. بالإضافة إلى أن كلمة «حنيفاً» كان يطلقها المسيحيون في سوريا باللغة الآرامية على النصارى ومعناها «زنادقة» كما كان يطلقها الروم عليهم ومعناها في لغة الرومان «هراطقة» ولكن النصارى اتخذوا هذا الإسم شعاراً لهم معبرين به عن الدين الحق، ثم غالوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتكنُّوا بملة ابراهيم تأليفاً للعرب. فكانت دعوتهم إلى النصرانية باسم الحنيفية. والخطأ في هذه المقولات يمكنُ استعراضه في الفقرات الآتية:

أ ـ بدأت الآية (١٣٠) من سورة البقرة في تسفيه من «يرغب» وليس «في من رغب» عن ملة إبراهيم الذي اصطفاه في الدنيا وحشره في الآخرة من الصالحين ثم تحدثت الآية (١٣١) عن ماهية مِلَّة إبراهيم فَبَيَّنت أنه تلقى الإسلام من الله دون وسيط «إذ قال له أسلم قال أسلمت لرب العالمين ـ ١٣١» فكان الاسلام هو الدين الذي اصطفاه الله له ولذرِّيته من بعده فوصّى به أبناءَهُ وكذلك فعل حفيده يعقوب **﴿ووصّى إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾**(١٣٢) وفي الآية «١٣٣» ورد الحديث عن يعقوب إذ حضره الموت فقال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له ملسمون(١٣٢).

فجاءت الآية (١٣٤) لكي تعطي حكماً تقريرياً عاماً.

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾(١٣٤).

ولكن اليهود والنصَّارى يعارضون ويعترضون على وصف الدين المصطفى لإبراهيم «بالإسلام» فيزعم كل منهما أنه على الحق والهداية وأن الهدى لا يتحقق إلا باتباعه. فقال اليهود لمن يستمعون إلى الخطاب القرآني «كونوا هوداً تهتدوا» وقال النصارى «كونوا نصارى تهتدوا» ولكن الآية لا تصل إلى خاتمتها حتى يرد الجواب قاطعاً مانعاً على مقولات الفريقين مبتدئاً بالحرف «بل» التي تفيد القطع والإضراب عما سبق لتقرر حكماً مخالفاً له: **﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾**.

ففي تحديد ملة إبراهيم ووصفها «بالحنيفية» رد على اليهود. وفي وصفه بأنه لم يكن من «المشركين» رد على من يشرك مع الله إلَهاً آخر، بشراً كان أم حجراً أم غير ذلك.

والمقصود هنا هم «النصارى» الذين يعتقدون بأزلية وأبدية الأقنومين الثاني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والثالث، ولو كان الإدعاء بالهشدى صادراً عن اليهود فقط لجاء وصف إبراهيم في الآية: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً﴾ ولكن الإدعاء صدر عن النصارى أيضاً لذلك اقتضى الرد عليهم أيضاً مشيراً إلى عقائدهم في «التثليث» و«ادعاء بنوة المسيح من الله» و«أزلية الأقنومين» وغيرها مما ينافي عقيدة التوحيد.

ويستمرُّ الحوار في الآية (١٣٦) حيثُ تسرد بالتفصيل ما يجب على كل من يتبع الدعوة الإسلامية وملة إبراهيم وتأمرهم في أن يعلنوا إيمانهم بجميع ما أنزل على الأنبياء دون تفريق وأن يشهدوا بأنهم مسلمون: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيُّون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾ (١٣٦).

وبذلك: اتضح الإيمان الذي تتحقق به الهداية في نظر المسلمين.

فلا يقبل التعايش العقائدي مع من لا يؤمن بهذا الإيمان. بل يقوم مقام ذلك شقاقٌ تعهد الله بالنصر فيه إلى المسلمين.

﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شَقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾(١٣٧) ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً ونحن له عابدون﴾(١٣٨).

وحتَّى هنا لا ينتهي الجدال إلى موقفٍ حاسم فيقول اليهود:

«إن اليهودية هي ملة إبراهيم ودينه وقد تسلسلت منه وتواترت عنه».

ويقول النصارى: «مثل هذا القول بالنسبة إلى النصرانية».

فيرد القرآن رداً حاسماً مستنكراً مقولتيهما ويأمر النبي أن يبلِّغهم حكم الله في ذلك: ﴿قل أتحاجوننا في الله هو ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾(١٣٩) ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أمِ الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾.

ب ـ وفوق هذا رأى المؤلف في الآية(١٣٥) «معاظلة ظاهرة» (ص ٣٩ س ـ ١٣).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من جانبنا نظن أن المؤلف لم يقف على المعنى اللغوي لكلمة «المعاظلة» إذ لو فعل لحال أدب الخطاب دون إيرادها، ونأمل أن يلقى القراء منه اعتذاراً إذا أحلناه إلى مراجع اللغة ليعلم «أن المعاظلة» هي التلازم في السِّفاد من الكلاب والسباع والجراد وغير ذلك مما يتلازم في السِّفاد وينشَب وقد قال أحدهم:

كـــلاب تعـــاظَـــلُ ســـودُ الفقـــا ح لـــم تحـــمِ شيئـــاً ولـــم تصطـــدِ

«لسان العرب»

وما نظن أن قارئاً بالعربية يفهم الآية على أنها معاظلة كلامية مثلما فهمها المؤلف:

فهي تخاطب أهل الكتاب في عهد الدعوة الإسلامية وهم آنذاك نوعان: يهود تابعون لموسى (ع) ونصارى تابعون لعيسى (ع) وكل منهما يقول للناس: اتبعونا تهتدوا، فتأتي الآية صارخة بهم: بل الهدى هو في اتباع ملة إبراهيم الذي كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين وهي ملة التوحيد التي يدعو إليها الإسلام.

فما بال المؤلف خلط الحابل بالنابل وأوجد من هذا الخلط استحالة الطرح العقائدي فقال: «لا اليهود توافق على أن الهدى يمكن أن يكون باتباع النصرانية ولا النصارى يوافقون على أن الهدى يمكن أن يكون باتباع اليهودية».

ج ـ وليس من المؤكد بل ليس من المقبول سواء في التاريخ أم في المنطق أن يكون العرب نصارى ثم يتخذوا الحنيفية شعاراً دينياً بديلاً مشيرين إليها أنّها الدين الحق. وهي ـ في الوقت ذاته ـ ترمز إلى «المسبَّة» و«التحقير»؟ (زنادقة في الفارسية وهراطقة في الرومية).

كما ليس من المقبول أن تكون الحنيفية هي النصرانية منذ المسيح عليه السلام.

إن مقولات المؤلف في هذه الفقرة في حاجة إلى التصويبات الآتية:

١ ـ الحنيفية هي ملة إبراهيم الخليل وهي الجزء التكويني الذي قامت عليه رسالة الإسلام، فهي ليست «يهودية» ولا «نصرانية» بل هي «اعتقادٌ واخلاقٌ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وطقوس» تختلف عن الطائفتين وتستقل عنهما. وقد تحدث عنها القرآن في العديد من آياته:

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيّماً ملّة إبراهيم حنيفا...﴾(٦/ ١٦١: الأنعام).

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً...﴾(٢/ ١٣٥: البقرة).

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين...﴾(٣/ ٦٧: آل عمران).

فلو كانت النصرانية ـ تعني عند العرب ـ الحنيفية لما ورد في الآيات هذا التفريق القاطع ولكان قوبل بالتخطئة والاحتجاج من اليهود والنصارى. وفي الحديث الشريف: «لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة ـ مسند ابن حنبل».

وهذا تصريح رسولي صريح في أن الحنيفية ليست النصرانية وفي أن دعوة النبي ـ الإسلام ـ هي دعوة الحنيفية، ملة إبراهيم عليه السلام.

٢ ـ وفي التاريخ:

ـ الحنيف من اختتن وحج البيت واستقام على ملة إبراهيم واعتزل الأصنام واغتسل من الجنابة (الطبري)

ـ وامتنع عن ذبائح الأوثان وما أهل لغير الله وتأمل في خلق الكون. (ابن الكلبي).

ـ وكانوا يختنون أبناءهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون الموتى ـ ويغتسلون من الجنابة ويتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً. (معجم البلدان).

ـ والأحناف لم يكونوا طائفة موحدة مجتمعة إنما كانوا نفراً من قبائل متفرقة اتفقت فكرتهم على رفض عبادة الأصنام والدعوة إلى الإصلاح. (جواد علي).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقال:

كان من الأحناف: عبيد بن الأبرص ـ والأفوه الأودي ـ وعنترة بن شداد ـ وحاتم الطائي. ودريد بن الصِّمَّة. والمرقِّش. والنابغة الذبياني. وطرفة بن العبد. وعروة بن الورد. وزهير بن أبي سلمى. وزيد بن عمرو بن نفيل. وحنظلة بن صفوان. وسويد بن عامر وعامر بن الظرب العدواني. والملتمس بن أمية الكناني. وغيرهم (مروج الذهب).

ولم يذكر في أي مرجع تاريخي أن أياً ممن ذكرت أسماؤهم كان نصرانياً باستثناء زيد بن عمرو بن نفيل. بل أشار بعض المؤرخين إلى أن معظم من قالت عنهم الأخبار أنهم نصارى، لم يكونوا نصارى بل كانوا أحنافاً.

وللإيضاح وضع الباحثون علامات قاطعة للتفريق بين النصرانية والحنيفية وهي علامات عقائدية راسخة في التكوين الفكري لدى الإنسان وهي:

ـ إن الحنيفية تحرم لحم الخنزير والنصرانية لا تحرمه.

ـ والحنيفية تحرم شرب الخمر والنصرانية لا تحرمها.

ـ والحنيفية تمارس الطلاق والاختتان وتوجب الاغتسال من الجنابة والنصرانية ليست كذلك.

٢ ـ وفي اللغة:

تجد جذور هذه الكلمة واشتقاقاتها وقد ورد استعمالها في القرآن بمعناها العربي فلم يذهب بها إلى لغة الفرس أو الروم ولم يقصد فيها مقاصد المؤلف (الزندقة أو الهرطقة) إذ لو كانت هذه الكلمة تعني ما ذهب إليه «الحداد» لما وصف الإسلام نفسه بها. ولما وصف بها نبي الله إبراهيم الخليل ولما جعلها سِمَةً ودليلاً على كل من وحَّد الله ومال عن الشرك والضلال.

ففي اللغة:

ـ الحنف هو الميلان: وقد أطلق في الأصل على من يشكو ميلانا في قدمه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ وحنف عن الشيء وتحنَّف مال: والحنيف المسلم. هو الذي يتحنف عن الأديان أي يميل إلى الحق.

ـ وقال أبو عبيدة: «قل بل ملة إبراهيم حنيفاً» أي من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب.

ـ وقال الأخفش: بعد الإسلام صار المسلم يسمى حنيفاً، وكان في الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت حنيفاً، لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت.

ـ وقال الفراء: الحنيف من سُنَّتُهُ الاختتان.

ـ وقال ابن عرفة: قد قيل: الحنف هو الاستقامة وإنما قيل لمائل الرجل «أحنف» تفاؤلاً بالاستقامة. والدين الحنيف هو الإسلام والحنيفية هي ملة الإسلام. وفي الحديث «أحب الأديان إلى الله هي الحنيفية السمحة» (لسان العرب)[1].

نخلُص مما تقدم إلى المرتكزات التالية:

أ ـ الحنيفية هي ملة التوحيدالتي كان يعتنقها إبراهيم الخليل. وعند ظهور الدعوة الإسلامية كانت لا تزال بعض طقوسها تمارس لدى بعض المستنيرين من عرب مكة والحجاز الذين رفضوا عبادة الأوثان وما يذبح على النصب وامتنعوا عن الميسر وحرموا شرب الخمر ولحم الخنزير وكانوا يختتنون ويحجون البيت.

ب ـ وقد أجمع المؤرخون على أن أول من أدخل الحنيفية إلى الحجاز هو عبد المطلب الذي جاء وصفه في الأخبار أنه وحَّد الله وترك الأصنام وحرَّم على نفسه الخمر. وكان أول من أختلى عن الناس متحنثاً في غار حراء متفكراً في عظمة الله وجلاله وكان إذا دخل شهرُ رمضان صعد من خلوته فأطعم المساكين ورفع من موائده للوحش والطير إلى رؤوس الجبال حتى غلب عليه لقب «الفياض» و«مُطِعم الطير والوحش» وقد منع الزنا ونكاح المحارم و«وأد البنات» و«الطواف بالبيت

---

(١) لقد تتبعت هذه الكلمة في المعاجم الكبرى بحثا عنها بين الألفاظ الأجنبية التي تعربت وشاعت بلفظها الأجنبي فلم أجد ما يؤيد رأي المؤلف في العودة بها إلى أصل أجنبي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عريانا» وهو أول من أمر بقطع يد السارق والوفاء بالنذر (السيرة المكية ١/ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٧٣ والسيرة الحلبية ١/ ٤)

ج ـ ولقد أوغل المؤلف في الخطأ عندما قارن بين الآيتين ١٣٥ ـ ١١٣ من سورة البقرة وهو خطأ مقصود من صاحبه أدرج في مصلحة الفكرة التي يدافع المؤلف عنها وذلك حينما قال:

«وذلك الإقحام المشبوه المفضوح يخلق تناقضاً بين قول القرآن ﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ١٣٥﴾ وبين قوله: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ـ ١١٣﴾ وجلَّ إعجاز القرآن ـ كما يقول ـ عن مثل هذا التناقض المفضوح المكشوف ـ ص ٣٩.

مرة أخرى نعلن أسفنا ـ مضطرين ـ على كيفية قراءة المؤلف للآيات وكيفية فَهمها وتحليل معانيها. إذ يأتيها دوماً وقد اثقلته حمولة من الأفكار الموروثة والثوابت السلفية التي تتدخل في صياغة أفكاره فما تنفك عنه إلا وقد انطبعت بطابعها وأخذت نهجها وهو لو تخفف من سلفيته وتحلّى بِرُوحِ الحياد العلمي لظهرت له الحقيقة جلية.

وفي عملية المقارنة كان عليه أن يكون «علمياً» فهو لو استطاع لوجد التقاءً لاتناقضاً وتكاملاً لا تعارضاً، وفكراً يختلف في اللفظ ويتفق في المعنى .

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾(٢/ ١٣٥).

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهودعلى شيء﴾(٢/ ١١٣).

ففي الآية (١٣٥): كان النبي وأصحابه يتلقون الخطاب تارة من اليهود وتارة من النصارى فيزعم أتباع كل من الطائفتين أنه على الهدى وأن الاهتداء لا يكون إلا باتباعه فيؤمر النبي بالتصدي الفوري لهذا الخطاب وذلك بالمواجهة دون مجادلة بل بأسلوب تقريري حازم جازم على أن الهدى لا يكون باتباع أولئك أو هؤلاء بل باتباع ملة إبراهيم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد استخدم الحرف «بل» ليفيد الإضراب والعدول من المعطوف عليه إلى المعطوف مبيناً ماهية المعطوف وهو «ملة إبراهيم، الحنيفية ـ الموحدة ـ المبرأة من الشرك».

أما في الآية (١١٣): فهي تبيِّن تبادل التسفيه والتكفير بين اليهود والنصارى، لتنتهي كل منهما إلى أن الحق عندها والباطل عند الطائفة الأخرى.

فأين وكيف وجد المؤلف تناقضاً مفضوحاً؟ وكيف فهم الآيات؟.

إن الآية ١١٣ حددت بوضوح وقطعية حالة التقاطع بين اليهودية والنصرانية، فما كان لأحد أن يرى تناقضاً أو تعارضاً بين أهدافها وأهداف الآية (١٣٥) إلا إذا كان مصابا «بعِمَاءِ الألوان»[1].

* * *

ثانياً:

قال المؤلف: «في الآيات من ١٣٥ ـ ١٤٠ ورد الإقحام مرتين. الأولى في الآية ١٣٥ والثانية في الآية ١٤٠ والآيتان تشكلان مع الآيات ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٣٨ ـ ١٣٩ موضوعاً مستقلاً متكاملاً لا يتحدث عن النَّصارى، لذلك كان إقحام «أو نصارى» في الآيتين ١٣٥ و١٤٠ هو إقحاماً إكراهياً فضحته ودلت عليه الملامح التالية:

١ ـ إن سياق الآيات هو الرد على اليهود الذين كانوا على قدر كبير من الغطرسة فما كانوا ليقبلوا أن يصدر عنهم ما نسبته الآية إليهم: ﴿قالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ لأن حرف العطف «أو» هو للتخيير دون تمييز أو تفريق، واليهود لا يقولون للناس إن الهداية في النصرانية كما هي في اليهودية.

وهذا السياق يبدو مستمراً وعلى أشد حالات الوضوح في الآية (١٤٠) ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل

---

(١) عماء الألوان هو: مرض يصيب العينيين فلا تستطيعان التمييز بين الألوان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافلٍ عما تعملون﴾(١٤٠).

هنا تتحدث الآية عن اليهود فتخاطبهم بعبارة (أم تقولون) وهؤلاء لا يمكن أن يقولوا بأن أنبياءهم نصارى لسببين جوهريين هما: إنهم لا يؤمنون بالنصرانية وإن عيسى وما جاء به كان في زمن متأخر عن الأنبياء اليهود.

٢ ـ وخصوصية الخطاب القرآني إلى اليهود في هذا الفصل تبدو جلية في العلامات التالية:

ـ استشهاده بالتوراة على مكابرة اليهود وإنكارهم للنبوة فيصفهم بأنهم كتموا شهادتهم المستقاة من التوراة «ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله..»

ـ حديثه عن اليهود كأمة قومية تجمعت بالرابط الديني ﴿**تلك أمة خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ (١٤١) (انتهت أقوال المؤلف)

هذه المقولات التي جاء بها المؤلف ووجهت بالمقولات الآتية:

أ ـ لقد ابتدأ الحديث القرآني من الآية ١٢٤ عن إبراهيم (ع) الذي ابتلاه ربُّه بكلمات فأتمَّهن فقال له: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾ فقال له: ومن ذريتي فأجابه الله بأن هذا العهد لا ينال الظالمين منهم ثم يستمر الحديث عن قيامه مع إسماعيل بتطهير البيت وجعله مثابة للناس وأمناً (١٢٥) ثم دعاء إبراهيم إلى ربه كي يجعل بلد البيت آمناً وأن يرزق الذين آمنوا من أهله بالثمرات(١٢٦) ثم بناء البيت ودعاء إبراهيم وإسماعيل أن يتقبل الله منهما وأن يجعلهما مسلمين وأن يُخرج منهما أُمَّةً مسلمة وأن يبعث فيها ومنْها رسولاً يعلّم أبناءها الكتاب والحكمة ويتلو عليهم الآيات (١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ١٢٩) حتى هنا:

ـ أوضحت الآيات أن الإسلام بمعنى التسليم لله هو ملة إبراهيم وإسماعيل، وأن دعاءهما كان في مكة وفي البيت الذي أقاماه. وأن طلبهما من الله أن يكثّر ذريتهما، كان هادفاً إسماعيل وذريته التي انتشرت في مكة ـ فاران فكانت أرومة العرب وتأتي من بعدها الآيات من (١٣٠ ـ ١٣٥) مبتدئة بتسفيه من رغب عن ملة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ لقد فسر المؤلف ما جاء في الآية (١٤٠) ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ فقال:

«إن القرآن يستشهد بالتوراة على بطلان زعم اليهود».

وهو تفسير من عنده خاطىء جداً، لأن المؤلف لم يُحِط بأبعاد الآية:

فهي تستنكر مواقف كل من اليهود والنصارى وترفض ما كان يقوله كل منهما من أن معتقداته هي الحق وما سواها هو الباطل وأن هذه المعتقدات تسلسلت إليهم من الأنبياء. وكأنهم يقولون: إن الأنبياء السابقين كانوا يعتنقون هذه العقائد. وبعد الإستنكار تستمر الآية فتقول: إن الله الذي عنده علم كل شيء ما كان ليكتم انتماء هذه العقائد لو كان ذلك صحيحاً. فكتمان الشهادة من بني الإنسان هو ظلم كبير. لذلك لا يمكن أن ينسب هذا الظلم إلى الله وهو العدل المطلق والحق المطلق.

ج ـ وثمة دليل تاريخي ـ يقول المؤلف ـ على إقحام «أو نصارى» في الآية ١٤٠ وهو أن النصرانية والنصارى وعيسى المسيح لم يكونوا في عهد الأنبياء فكيف يسألهم القرآن عن تساؤلاتهم حول نصرانية هؤلاء الأنبياء؟.

لقد التبس الأمر على المؤلف فلم يربط هذه الآية بما سبقها وبما تلاها من السرد القرآني الذي يتبين منه أن كلاً من اليهود والنصارى كان يزعم بأن عقائده تستمد أصولها ومبادئها من أولئك الأنبياء. فاليهود قالوا إن التوراة هي تدوين لما اعتقده ومارسه أنبياء الله، إبراهيم ومن تلاه. والنصارى يقولون عن معتقداتهم في المسيح والإنجيل مثل ذلك القول، فخاطبهم القرآن خطاباً استنكارياً مستبعداً تلك الأقوال ومتحدياً أن يكون عندهم دليل أو حجة.

* * *

ثالثاً: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (٢/ ١١١) ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء...﴾ (٢/ ١١٣):

قال المؤلف: إن إيراد «أو نصارى» في الآية ٢/ ١١١ هو إقحام على الأصل القرآني تؤكده الأدلة الآتية:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إبراهيم، ومؤكدة على أن الإسلام هو الدين الذي اصطفاه الله لإبراهيم على أثر حوار قام بينهما ﴿إذ قال له ربُّه أسْلِمْ قال أسلمت لله رب العالمين﴾ (١٣١) فأبلغ بنيه كما أبلغ حفيدُه يعقوبُ بنيه بهذا الاصطفاء ليحافظوا على الدين ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ (١٣٢) ويكرر يعقوب سؤاله لأبنائه ليزداد تأكُداً ويزيد تأكيداً عمن يعبدون من بعده فأجابوه ﴿نعبد إلَهك وإلَه آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلَها واحداً ونحن له مسلمون﴾ (١٣٣).

ـ بعد هذه الجولة في تاريخ الحنيفية ـ الإسلام، يعود القرآن ليخاطب الأجيال القادمة بأن إيمان الأقدمين لا ينفع المتأخرين، وأن كل أمة تثاب على إيمانها ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾(١٣٤).

ولكن الذين خوطبوا بالآيات وخاصة اليهود والنصارى اعتصموا بموروثاتهم الخاطئة، فرفضوا الخطاب القرآني، وأصرت كل طائفة منهما على أن الهدى لا يأتي إلا باتباعها وأن الحق لا يُطلب إلا عندها فقالوا للناس ـ في مواجهة القرآن ـ ﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ (١٣٥) فيتصدى الجواب القرآني قاطعاً عليهم الكلام في منتصف الآية ﴿قل بل ملة إبراهيم...﴾ (١٣٥) وتستمر الآيات حتى (١٤٠) في تحديد ماهية الانتماء إلى ملة إبراهيم بأنها الإيمان بما أنزل الله على النبي (ص) وعلى الأنبياء جميعاً بلا تفريق. فإن آمنوا بهذا الإيمان فقد تحققت لهم الهداية وعصموا أنفسهم من المواجهة والشقاق مع المسلمين الذين وعدهم الله بالنصر (١٣٧ ـ ١٣٨) وبدَحْضِ محاججتهم للمسلمين في الله (١٣٩) ومن بعد تأتي الآية(١٤٠) ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله.....﴾ هذه الآيات من ١٢٤ ـ ١٤٠.

هي سرد متسلسل، ليس فيه تخصيص باليهود، ولا استبعاد للنصارى، فالدعوة إلى الإيمان بالإسلام توجهت إلى الجميع دون استثناء. ومواجهتها كانت من كليهما، إلا النفر القليل الذي أسلم منهما، فكان لا بدَّ من أن يتجه الخطاب إليهما وأن يقوم الحوار معهما فلا فصول مستقلة ـ كما قال المؤلف ـ ولا سياق مخصص باليهود ولا استثناء للنصارى. وبالتالي لا يمكن أن يستنتج من قراءة الآيات وتفهمها وجود الإقحام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الدليل الأول سياق القول:

ينبغي أن نعود إلى ـ سياق الكلام ـ لكي نقف على مقاصد الآية ٢/ ١١١ من سورة البقرة.

ـ ففي الآية (١٠٤) توجه الخطاب إلى الذين آمنوا كي لا يقولوا «راعنا» بل ليسمعوا وينظروا، وتعبير «الذين آمنوا» في الآية يستهدف المؤمنين برسالة النبي (ص)[1].

ـ وفي الآية (١٠٥) أخبر المؤمنين بما يتمناه لهم الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون.

ـ ولكن النَّصر والخذلان والعطاء والحرمان، هما من عند الله ﴿**وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾ (١٠٧). فلا تكونوا مثل قوم موسى الذين طلبوا منه أن يُرِيهم الله جهرة (١٠٨).

والنهي هنا، هو استمرار في الخطاب الموجه إلى المؤمنين بالرسالة. فقد ورد في التفسير أن هذه الآية نزلت في لوم من طالب النبي بأن يظهر لهم معجزة كتحويل جبل الصفا وحجارته إلى ذهب وفضة (الرازي).

ـ وفي الآية (١٠٩) يتحدث القرآن عن حسد أهل الكتاب ورغبتهم في أن يرتد المؤمنون إلى الكفر.

ـ ولكن تتمة الآية (١٠٩) و الآية (١١٠) تحضّان المؤمنين على مقابلة عواطف القوم بالصفح والمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. لأن مايقدمونه لأنفسهم من خير يجدونه خيراً عند الله.

ـ بعد هذه الآيات السبع تَصِفُ الآية ١١١ تبَجُّح اليهود والنصارى باحتكار الجنة وتحدِّي القرآن في أن يقدموا البرهان إن كانوا صادقين.

ـ ثم تأتي الآية (١١٢) لتختتم هذا المطاف ولتضع الحكم النهائي حول هذه

---

(١) الإيمان هنا يُحقق الأمان من العذاب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ سياق القول، الذي يستدل منه أن الآيات السابقة واللاحقة نزلت في الحديث عن اليهود، مما يجعل إيراد «النصارى» دخولاً غريباً على النص، يضاف إلى هذا أن الآية نزلت للرد على ما زعمه اليهود من أن الجنة لهم وحدهم. لذلك لا يعقل أن يصدر عنهم تصريح بقبولهم مشاركة النصارى فيها.

٢ ـ وجواب القرآن على مقولة احتكار اليهود للجنَّة جاء في اتجاهين:

ـ في الأول تحدٍّ لهم ونفي لادعائهم ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

ـ وفي الثاني: تأكيده على أن من أهل الجنة النصارى حيث جاءت الآية ١١٢ مباشرة لتقول: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ففي التعبير ﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ تعريف للنصرانية والنصارى، لأن اصطلاح المحسنين والمقسطين والمسلمين في القرآن مقصود به النصارى الذي نزل القرآن ﴿هدىً وبشرى لهم﴾ (٤٦/ ١٢ و١٦/ ١٠٢ و٢/ ٢٧ و٢٧/ ٢).

٣ ـ وفي الآية ١١٣ يفتضح التناقض ـ كما يقول المؤلف ـ (ص ـ ٤٢) لأن موقف التكفير المتبادل بين اليهود والنصارى ينفي القبول الذي نُسب إلى اليهود في الآية ١١١ بمشاركتهم الجنة.

وبذلك يبدو« الوضع» و«الإقحام» على أشد ما يكون وضوحاً. وكان القرآن قد رفض ادعاء اليهود في تخصصهم بالجنة وتحداهم في الآيتين ٢/ ٩٤ ـ ٩٥ البقرة لأن يقدموا دليلاً على صدق اعتقادهم بالدار الآخرة بقوله: ﴿قل إن كانت لكم الدَّار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ فادعاؤهم بأن الجنة خالصة لهم واعتراف القرآن بثباتهم على هذا الاعتقاد ينفي ما ورد في الآية ١١١ من قبولهم مشاركة النصارى باستيطانها.

تلك هي: الأدلة الثلاثة التي قدمها المؤلف على إقحام «النصارى» في الآية ١١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأقوال جميعها مبتدئة بالحرف «بلى» التي ربطت ما بعدها بما قبلها، فنفت أن يكون لدى اليهود والنصارى برهان في احتكارهم للجنة، عادت فأثبتت فيما بعد أن من «أسلم وجهه لله» و «هو محسن» فإنه من سكان الجنة، له أجره عند ربه ولا خوفٌ عليه ولا هو من المحزونين ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون**﴾ (١١٢).

هذا هو:

ـ سياق الآيات، الذي اعتمد المؤلف عليه ليس فيه تخصيص لليهود ولا استثناء للنصارى وهو من الآية (١٠٤) وحتى (١١٢) ينشر أحكاماً عامة. مستقلّةً تماماً عما سبق من آيات ركزت على قبائح اليهود وأفعالهم. ولم يتعرض لادعاء اليهود والنصارى في احتكار الجنة إلا في معرض الحديث مع المؤمنين الذين كتبت لهم الجنة جزاء وفاقاً على إيمانهم وصدق إسلامهم.

ـ والذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين (١٠٥) والذين يودون من أهل الكتاب أن يرتد المؤمنون إلى الكفر (١٠٩) هم من أهل الكتاب والمشركين كافة ولم يكونوا من المشركين فقط.

في الدليل الثاني قصر الادعاء باحتكار الجنة على اليهود:

١ ـ قدمنا في الدليل الأول سرداً للآيات التي سبقت الآية (١١١) من سورة البقرة التي قال المؤلف عنها: «إنها خصصت لمعالجة شبهة من شبهات اليهود فتبين منه أنَّ الخطاب القرآني جاء في صيغة العموم دون تخصيص أو استثناء وأن الذين سعوا لرد المؤمنين إلى الكفر هم من أهل الكتاب والمشركين كافة. والقرآن إذ حض المؤمنين على الثبات في مواقفهم وإقامة شعائر الدين والإحسان، قصد أن يعصمهم من الانزلاق فوعدهم بالجنة وأقنعهم بأن نوالها هو من نصيب كل من أسلم وجهه لله وهو محسن (١١٣) وليس كما زعم المضللون من أهل الكتاب.

لذلك: لا يمكن القبول بفهم الآية (١١١) على أنها إقرار قرآني بادعاء اليهود في خصوصية الجنة أو أن الادعاء بالخصوصية صدر عن اليهود فقط.

بل إن المفهوم الصحيح للآية هو أن الادعاء بهذه الخصوصية صدر عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النصارى أيضاً لأنهم لم يكونوا أقل من اليهود اقتناعاً بتفردهم في صحة العقيدة وحقهم في الاستئثار بالجنة[1]. فنزلت الآية (١١٣) لتضع قاعدة حقيقية لكسب الجنة غير ما ذهبت إليه الطائفتان. وقررت أن الجنة هي حق لكل من أسلم لله وعمل الخير والإحسان. وهذان شرطان أساسيان لا يقوم الاستحقاق إلاّ بهما مجتمعين ولا تُعفي منهما يهودية اليهودي ولا نصرانية النصراني.

٢ ـ قال المؤلف: إن المقصود في الآية ٤٦/ ١٢ الأحقاف هم النصارى الذين وصفتهم بقولها «هو هدىً وبشرى للمحسنين» ولكن الآية ليست بهذا اللفظ وليست بهذا القصد.

﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة. وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً. لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾(٤٦/ ١٢ الأحقاف).

ـ فالقرآن هو: «لإنذار الذين ظلموا» و«بشرى للمحسنين» فلم يرد في الآية «هو هدىً وبشرى للمحسنين».

فمقاصِد الآية تُفْهَمُ من العودة بها إلى سياق القول الذي جاءت فيه.

فهو «حوار» مع الكفار عامة ومشركي قريش خاصة. بدأ في وصف النبي بأنه ليس بدعاً من الرسل. ثم بين لهم عاقبة «إنكارهم للقرآن وتهكمهم على فقراء المسلمين[2] بقولهم: لو كان القرآن خيراً لما استطاعوا أن يسبقونا إليه ولكنه إفك قديم بأسلوب جديد (١٠ ـ ١١) وأوضح في الآية (١٢) أن كتاب موسى نزل من قبل ثم نزل القرآن. مصدقاً لما جاء فيه من توحيد وتبشير بالنبي (ص) ومنذراً للظالمين ومبشراً للمحسنين[3].

ـ وكذلك **﴿هدى وبشرى للمسلمين..﴾** (١٠٢/١٦ النحل) ليست للدلالة

---

(١) إن كل من يقرأ أدبيات الطائفتين يلمس أنهما لم تغيرا موقفيهما فلكل منهما شروط عقائدية لنوال الحياة الأبدية وهي شروط مرفوضة من الطائفة الأخرى حيث تقابلها شروط أخرى.

(٢) وهم: عمّار وصهيب وابن مسعود.

(٣) قال ابن عباس: **﴿لينذر الذين ظلموا﴾** وهم في هذه الآية مشركوا قريش ـ الرازي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على النصارى ـ كما قال المؤلف ـ بل هي جزء من الآيتين (١٠١ ـ ١٠٢) من هذه السورة نزلتا في التنديد بالمشركين الذين كانوا يتهمون النبي بالافتراء كلما نزلت آية ناسخة فوصفهم القرآن بالجهل وأمر النبي أن يعلن للناس من أن التنزيل هو من الله بالحق قام به الروح القدس وإن إبدال آية بآية هو تحرك تشريعي من جهة وامتحان للمؤمنين من جهة ثانية وتبشير لهم بالثواب وحسن المآب:

﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزّل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (١٠١). **﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾** (١٠٢).

ـ ولا يختلف التوجه القرآني في تعبير الآية ٢/٢٧ النمل عما سبقها: فهي استمرار للآية ١/٢٧ ومقدمة أوضحتها الآية ٣/٢٧ والآيات الثلاث نزلت في وصف القرآن ووصف المؤمنين.

فهو هدى وبشرى للمؤمنين (٢/٢٧).

والمؤمنون هم الذين وصفتهم الآية (٣/٢٧) بقولها: **﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾** سواءٌ أكان الموصوف يهودياً في الأصل أم نصرانياً أم مشركاً لأن تحقق هذه الأوصاف فيه يجعله من المؤمنين.

تلك المصطلحات القرآنية: «المؤمنون» و«المسلمون» و«المحسنون» و«المتقون». هي كما رأينا ليست حكراً على فئة أو طائفة كما أنها ليست حَظْراً على فئة أو طائفة وكل من قرأ القرآن وجد الكثير منها يتكرر في الآيات ويدور في الفلك العام للهداية والإيمان.

١ ـ فالذين يحتسبون الله فلا يقابلون الإساءة بالإساءة، وصفتهم الآية ١٢٨/١٦ من سورة النحل بأنهم محسنون **﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾** والإحسان هنا: يعني العفو والتسامح.

والذين ينفقون في سبيل الله على مقدار الاستطاعة، طمأنتهم الآية ١٢٠/٩ من سورة التوبة بأنَّ أجرهم محفوظ لهم عند الله **﴿إن الله لايضيعُ أجر المحسنين﴾** والإحسان هنا يعني الإنفاق في سبيل الله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و﴿سلام على آل إبراهيم إنا كذلك نجزي المحسنين﴾(٣٧/ ١١٠) و﴿سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين﴾(٣٧/ ١٢١). و﴿سلام على على آل ياسين إنا كذلك نجزي المحسنين﴾(٣٧/ ١٣١).

وفي تفسير «كذلك نجزي المحسنين» قيل:

هكذا نصرِفُ عمَّن أطَاعنا مكاره الحياة وشدائدها ونجعل له من أمره فرجاً ومخرجاً كقوله تعالى: ﴿ومن يَتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (٦٥/ ٢ ـ ٣: الطلاق).

ـ ومصطلح «المسلمين» الذي يتردد في القرآن أكثر من اربعين مرة معظمها في سور «البقرة وآل عمران والمائدة ويونس والنحل والنمل...» نكتفي بالإشارة إليها دون استعادة كتابتها، وجميعها بلا استثناء لاتعدو أن تكون تعريفاً بالدعوة الإسلامية أو تعريفاً بالإسلام بمعناه الإبراهيمي وليس من بينها آية واحدة يستدل فيها من هذا المصطلح على «النصارى».

ـ ولقد أحصينا في القرآن الكريم مئتي آية إلاّ خمساً تضمنت مصطلح «المؤمنون» فلم نجد في أيّة آية ما يفيدُ الدلالة على «النصارى» من هذا المصطلح.

الدليل الثالث ـ التناقض العقائدي:

مرّ معنا في الدليلين السَّابقين بعض ملامح هذا الدليل نعيد القارىء إليها ونضيف الإيضاحات التالية:

يضع المؤلف يده على التناقض في التعبير القرآني من خلال مقارنة أجراها بين الآية ٢/ ١١٣ والآيات ٢/ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ١١١ من سورة البقرة.

ـ فالآية ٢/ ١١٣ حددت بشكل صريح قاطع ما تقوله اليهود في النصارى وما تقوله النصارى في اليهود ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء...﴾.

والآيتان ٢/ ٩٤ ـ ٩٥ أوضحتا حقيقة ما يعتقده اليهود حول تميزهم عن الناس بالجنة خالصة لهم. ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾.

ففي هذه الآيات تحديد لما يعتقده اليهود بالنصارى وبالناس جميعاً.

ولكن الآية ٢/ ١١١ تبرز ـ كما يقول المؤلف ـ موقفاً مختلفاً إلى درجة التناقض. بالنسبة إلى النصرانية فيه تتسامح معها وترضى أن تشاركها في سكنى الجنة: **﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. . .﴾.**

فالقول قرأه المؤلف، على أنه صادر عن اليهود وحدهم، ثم فهم منه أن اليهود يعترفون بموجبه أن للجنة طريقين هما طريق اليهودية وطريق النصرانية.

من هنا بدأ خطأ المؤلف.

ثم قام عن الخطأ أخطاء، فكان الاستنتاج نتيجة لازمة لمقدمة خاطئة ملزمة.

إن عدم قدرة المؤلف على متابعة الإعجاز القرآني دفع به إلى مواقع الغلط، ولو تدبر القرآن تفسيراً ومناسبات لوجد أن «اليهود والنصارى» لم يجتمعا في حكم قرآني واحد إلا عندما كانت تقف فيه الطائفتان من الإسلام موقفاً واحداً فكان يأتي الرد عليها معاً في آيةٍ واحدة.

وفي الآية ٢/ ١٣٥ مثال على وحدة الموقف من الاسلام والرد الإسلامي الواحد عليهما. وذلك عندما كانت تحاول كل منْهما إقناع الناس باتباعها ونوال الهدى عن طريقها فَعَرض القرآن محاوَلتهما وعرض الرد عليهما في الآية نفسها: **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾** (٢/ ١٣٥).

ـ ففي الحرف «بل» إضراب وعدول عن المعطوف عليه الذي هو ابتغاء الهداية عن طريق اليهودية أو النصرانية، وفي «ملة إبراهيم حنيفاً» تأكيد على شمولية الاتجاه التوحيدي ورد على اليهودية التي تحصر عدالة الله الواحد في أبنائها.

وفي «وما كان من المشركين» تكرار للوحدانية ورد على النصرانية التي تقول «بالتثليث».

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رابعاً: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم﴾ ٢/ ١٢٠ البقرة:

قال المؤلف: إن إقحام «أو النصارى» في الآية تشير إليه الأصابع الست الآتية:

١ ـ المعاظلة التعبيرية في الآية القرآنية.

٢ ـ التناقض مع غاية الفصل القرآني بدءاً من الآية (٢/ ١٠٥ البقرة).

٣ ـ التعارض مع واقع رؤية اليهود للنصارى ورؤية النصارى لليهود.

٤ ـ التفريق الواضح في الآية ٢/ ١٢١ بين النصارى الذين يتلون الكتاب وبين الخاسرين اليهود الذين يكفرون به.

٥ ـ حرص القرآن على تسمية اليهود ببني إسرائيل ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣ فوجود «ولا النصارى» في الآية ٢/ ١٢٠ الخاصة باليهود دليل على الإقحام.

٦ ـ اليهود هم الظالمون الذين لم ينالوا عهد الله لإبراهيم ٢/ ١٢٤ فهم وحدهم المقصودون بالخطاب القرآني كله في الآيات ٢/ ١٢٠ ـ ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤.

وطوى المؤلف أصابعه الست على النتيجة التقريرية التالية:

وبِرَفْعِ ذلك الإقحام المشبوه تزول الصورة المشوهة التي دسوها في التنزيل عند الجمع والتدوين فغيرت معالم موقف القرآن من المسيحية، والخيانة للأمانة في «الذكر الحكيم» تصير جناية لأن تلك الإقحامات الأربعة ترد في أول سورة مدنية فتطبع العهد كله بطابعها، وترد في السورة التي صدروا بها القرآن في ترتيبه الحالي فيشمل ظلها القرآن كله، فكأن القرآن في كل أطوار التنزيل كان على خلاف مع المسيحية، وهذا خلاف الواقع القرآني والتاريخي... (ص ـ ٤٥).

وهكذا: يبدو حلّ الإشكال ـ في نظر المؤلف ـ بسيطاً ولا يتطلب إلا خطوة واحدة تزول الصورة المشوهة التي دسوها في التنزيل عند الجمع والتدوين.

خطوة واحدة فقط، وهي استدعاء جميع مصاحف الأرض لتستمع إلى حكم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاعدام على هذه الآيات، وطبعاً يجب أن يتزامل الحكم مع ضجّة إعلامية هادفة إلى الثأر من القرون المظلمة الظالمة والانتقام من أولئك الذين أدخلوا هذه الآيات على التنزيل وتمزيق هالة التقديس التي تحيط بهم وإظهارهم للعالم الإسلامي على حقيقتهم التي رآها المؤلف بعينيه، نفراً: ﴿**كتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا هذا من عند الله وما هو من عند الله**﴾.

ـ ولكننا لن نهدر الوقت طويلاً مع هذه الأطروحات «الخذروفية»[1] بل سوف نعود إلى أصابع الإتهام «بالإقحام» التي عددها المؤلف لنرى مدى ما تحمله من عناصر الحقيقة العلمية.

المعاظلة التعبيرية في الآية:

«المعاظلة» هذه الكلمة يعيدها المؤلف هنا. وقد كان ركز عليها وألقى بها على الآية ٢/ ١٣٥ من سورة البقرة. وكنّا بيّنا أثناء بحثنا موضوع «الإقحام في سورة البقرة أولاً» : ما تعنيه هذه الكلمة في اللغة العربية. وقلنا في قناعتنا أن المؤلف لم يحط بمعانيها وإلاّ حَالَ أدبُ الخطاب والكتاب دون استعمالها في معرض دراسة القرآن.

وهنا نكرر ما قلناه ونضيف إليه:

لن يشفع للمؤلف أن اللغة أجازت المجاز في التعبير لأنه ـ حتى في المجاز ـ ثمة خطوط حمراء واجبة المراعاة في الأقوال والأفعال، فالزنا مثلاً الذي هو علاقة جنسية تقوم خلافاً لقواعد الشرع، لا يصح أن يقاس عليه كل قول أو عمل يخالف القوانين ـ أو يسمى باسمه ـ فلا يوصف ما نقرأه مخالفاً للتاريخ أو اللغة أو الفلسفة أو المنطق (وكلها تقوم على قواعد متفق عليها) بأنه «زنى فكري» أو «تاريخي» أو «لغوي» أو «منطقي»...

لذلك: نكرر أسفنا ـ ونعتقد أن الأستاذ الحداد ـ مدين بالاعتذار إلى القرّاء

---

(١) كناية عن «الخذروف» وهو إحدى لعب الأطفال التي تتميز بخاصية الدوران على محورها وعدم الاستقرار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن هذا كله لن«يُعْفِينَا» من تعقب أخطائه:

فهو عندما قرأ الآية ٢/ ١٢٠ توقف عند آخر العبارة ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتَّبع ملتهم...﴾ ثم طفق يتقلب ويَتَنَقَّل في وجوه متعددة من التساؤلات ولكنه ـ في جميعها ـ لم يكن يطلب استيضاح الغموض بل كان همّه هو إشاعة التناقض والفوضى.

لقد اتخذ من تلك العبارة ذَرِيعَةً للهجوم ثم أطلق تساؤلاته على شكل عيارات ناريّة قائلاً: فما هذا التعبير المتناقض؟ هل يرضى اليهود أن يتبع محمد ملة النصارى؟ أم هل يرضى النصارى أن يتبع محمد ملة اليهود؟ وهل يكون محمد يهودياً ومسيحياً على السواء؟ ليُرضِي الملَّتين؟.

معاظلة التعبير تشهد بإقحام النصارى (المؤلف ص ٤٣).

ولو قرأ الآية بتمامها لما وجد تناقضاً ولا معاظلة في تعابيرها، ولكان اتضح له أن محمداً (ص) لم يكن أبداً غير ما أرادته له الرسالة.

فالآية: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتَّى تتبع ملَّتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتَّبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليٍّ ولا نصير﴾(٢/ ١٢٠).

فالدعوة أبلغت جميع الناس أنها السبيل الوحيد إلى الهداية والإيمان ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٣/ ١٩) و﴿من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(٣/ ٨٥ آل عمران)، فآمن بها من آمن من المشركين واليهود والنصارى. فتحققت الهداية إلى الذين آمنوا. أما من لم يؤمن فقد قاوم الدعوة وحارب انتشارها وواجه معتقداتها يقينا منه أن لا هدىً إلا باتِّباعه، وقد ظل المشركون على الشعار الذي تحدى به أبو سفيان المسلمين وهو: «لنا العزّى ولا عزّى لكم».

واليهود أصرُّوا على أن الهدى لا يناله إلا من اتبع ملتهم.

وكذلك النصارى، أتباع المسيح، ظلُّوا يؤمنون بأنه ابن الله، وثالث ثلاثة، وأن خشبة الصليب حملت آثام البشرية وأحزانها حتى قيام الساعة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لذلك: كان من البديهي أن هذه الاتجاهات لن ترضى عن النبي ولا عن أصحابه إلا إذا اتبعوا ملّتها وانتموا إليها، وكان من البديهي ـ في مقابل ذلك ـ أن يأتي السرد والرد القرآنيان ضد طوائف اليهود والنصارى مجتمعة، وأن يكون الحكم القرآني قاطعاً وجازماً في تحديد المرجع الحقيقي والوحيد للهدى، وهو هدى الله.

فجاءت الآية الواحدة محققة عدداً من الحقائق.

أولها: عرض الهدى اليهودي أو النصراني على النبي.

الثانية: رفض هذا العرض بإعجاز بياني عظيم اختُصِر بحرف واحد هو الحرف «بل» الذي يفيد الرفض والإضراب والعدول في آن واحد.

الثالثة: تحديد المسار الحقيقي للهداية وهو هدى الله.

الرابعة: تحذير النبي وأصحابه من أن يهجروا ما جاءهم من العلم بحقائق الأمور ليتّبعوا ضلالات تلك الطوائف وأهوائها.

الخامسة: تحديد الجزاء فيما لو حصل مثل هذا الانحراف وهو تخلي الله عن نصرتهم وموالاتهم.

ولقد تعددت آيات القرآن في ترسيخ الاعتقاد بأن الإسلام هو وحده مصدر الهدى حتى جعلت منه قاعدة من قواعد الإيمان الإسلامي.

﴿ذلك هُدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾(٦/ ٨٨: الأنعام) **﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون﴾**(٣/ ٨٣: آل عمران) فالهدى في القرآن هو معرفة الله وتنزيهه عن الشرك.

وعبارة «ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون» أوضحت أن الهدى هو الاعتقاد المضاد للشرك. وهو التوحيد العاصم من الإحباط. وضمير الجمع في فعل «أشركوا» يعود إلى الأنبياء الذين عددتهم الآيات السابقة بدءاً من إبراهيم وإسحق ويعقوب ونوح من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم. (٦/ ٨٧).

هؤلاء الذين وصَفَتهم خاتمة الآية (٨٧) بقولها: ﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾(٦/ ٨٧) ثم استمرت بعدها الآية ٦/ ٨٨ في الوصف فابتدأت باسم الإشارة «ذلك» لتعود بالقارىء إلى الآية السابقة فترتبط لديه الآيتان ارتباط المقدمة بالنتيجة: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء. . .﴾.

والقرآن: بهذا التعداد الصريح يخبر بأن الهدى الذي يدعو إليه هو هدى الله الذي كان عليه الأنبياء والذي كان عاصماً لهم من الشرك، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. والنص هنا وان كانت له خصوصية الإشارة إلى الأنبياء فإن هذه الخصوصية لفظية تنطوي على تكليف عام.

التناقض والتعارض:

قال المؤلف: «أشار القرآن بالكفر إلى «اليهود» ﴿فهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ (الآية: ٢/ ١٠٥) وهم ﴿أهل الكتاب الذين ودَّ الكثيرون منهم لو يردون المؤمنين من بعد إيمانهم كفاراً. حسداً من عند أنفسهم﴾ (٢/ ١٠٩) فلم يرد ذكر النصارى. ولم يصفهم القرآن بالكفر.

ويتابع المؤلف: وحيثما ورد تعبير «أهل الكتاب» في القرآن ينصرف إلى اليهود لأن الكتاب هو التوراة واليهود هم أهله.

لذلك: وبما أن الآيات من ٢/ ١٠٥ حتى ٢/ ١٢٠ هي جدال مع اليهود وحدهم فإن إقحام «ولا النصارى» في الآية ٢/ ١٢٠ كان عملاً مشبوهاً ومناقضاً لطبيعة الفصل ص ٤٣ ـ المؤلف.

هذه الأقوال تقتضي منّا مناقشة المقصود القرآني «بالذين كفروا من أهل الكتاب» ثم العودة إلى الآيات من ٢/ ١٠٥ ـ ٢/ ١٢٤ للكشف عما إذا كانت كلمة «ولا النصارى» تتعارض مع طبيعة الفصل وتخرج عن موضوعه، وذلك بالفقرتين التاليتين:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ ـ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة﴾ (٩٨/ ١) البينة.

ـ فالقصد من «منفكين» هو «مبتعدين عن الكفر».

ـ والقصد بتعبير «الذين كفروا من أهل الكتاب» هم فرق اليهود والنصارى، لأنهم أحدثوا في دينهم ما كفَّرهم به، كقول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وقيام كل منهما بالتحريف والوضع في كتابه. وقد صار الإختلاف حول المجوس، فبعضهم قال: إنهم من أهل الكتاب لقول النبي (ص) «سنوليهم سُنَّة أهل الكتاب».

والبعض أنكر ذلك لأن القرآن عندما ذكر الذين كفروا من أهل الكتاب روى عنهم حكاية دلت على أنه يقصد بهذا التعبير «اليهود والنصارى» ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾ (٦/ ١٥٦: الأنعام) فالطائفتان هما: اليهود والنصارى.

ـ أما المقصود من تعبير «المشركين» فقد ذهب اكثر القرّاء واللغويون إلى أن «الواو» لا تفيد الترتيب. وان المشركين هنا هو وصف لأهل الكتاب من يهود ونصارى لأن النصارى مثلثة، وعامة اليهود مشبِّهة، وهذا كله شرك.

وفي القرآن آيات كثيرة تتعدد فيها الأوصاف لموصوف واحد مثل قوله: ﴿الراكعون السَّاجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾ (٩/ ١١٢: التوبة) فهذه أوصاف لطائفة واحدة حيناً يتخللها عطف وحينا تأتي متعاقبة دون عاطف.

ـ أما ذهاب القرآن في «تعبير اهل الكتاب» إلى وصفهم «بالعلماء» و «بذوي العلم» فذلك يرمي إلى واحد من هدفين..

ـ إما للمزيد من التعظيم.

ـ وإما للمزيد من تقبيح كفرهم مع ما عندهم من العلم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(يرجى بهذا الخصوص مُراجعة كتب التفسير وعلى الخصوص: تفسير الإمام الرازي ومختصر ابن كثير والجلالين).

ب ـ بعد أن وقفنا على المقصود القرآني من «تعبيرالذين كفروا من أهل الكتاب» سنستعرض الآيات التي دل عليها المؤلف من سورة البقرة (٢/ ١٠٥ ـ ١٢٠) لنتبين إن كانت كلمة «ولا النصارى» في الآية ٢/ ١٢٠ مدسوسة ودخيلة ومتعارضة مع طبيعة الجدال الذي استغرق الآيات المذكورة.

ـ ففي الآية (١٠٥) ورد تعبير «الذين كفروا من أهل الكتاب».

ـ وفي الآية (١٠٩) ورد هذا التعبير: «ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً...».

ـ وفي الآية (١٠٨) خطاب إلى المسلمين الذين طالبوا النبي بالمعاجز مثلما طُولِبَ موسى من قبل كما يستدل على ذلك من ظاهر الآية:

﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ (٢/ ١٠٨).

فعبارة ومن يتبدل الكفر بالإيمان. أكدت أن عائدية الخطاب إلى المسلمين. لأنها لا تصح إلا في حق المؤمنين.

ـ وفي الآية (١١٠) **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة...﴾** هي دعوة إلى المسلمين وليس إلى اليهود أو النصارى. ـ وفي الآية (١١٢) نفي وتقرير: أما النفي فهو رفض ماقالته اليهود والنصارى من احتكارهم للجنة، وأما التقرير فهو بيان المستحقين لها وهم **﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن...﴾**.

ـ وفي الآيتين (١١٦ ـ ١١٧) سُردت بعض المقولات العقائدية عند النصارى، كما ورد الردعليها باستعمال الحرف «بل» الذي يعني الرفض لهذه المقولة ثم الانتقال إلى تقريرالحكم الصحيح: **﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون. (١١٦) بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون (١١٧)﴾**.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي هذا منتهى الإعجاز في تنزيه الله عن أن يكون له ولد. فهو سبحانه، أي يسبح له كل الوجود، ثم له كل ما في السماوات والأرض قانتون.

والمسيح عليه السلام، سواء أكان «الإنسان» أم «الأقنوم الثاني بالطبيعة غير الإنسانية» هو من القانتين لله لأنه ممَّن في السماوات أو في الأرض. ولو كان ابن الله الأزلي، لصار استثناؤه من القنوت ومن أن يكون ملكاً لله فما من والد يكلف ولده بالقنوت والسجود له وما من والد يعتبر ولده ملكاً من ممتلكاته.

ـ وفي الآية (١١٨) **﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله. . .﴾**.

قال المفسرون: أولئك هم اليهود والنصارى الذين طلبوا هذا الطلب. أما وصفهم بأنهم لا يعلمون. فالقصد منه أنهم «لا يعلمون التوحيد ولا النبوة مثلما ينبغي».

ـ وفي الآية (١١٩) حديث مع النبي (ص) لكي يصدع برسالته دون اعتبار لما عرض عليه أصحاب الجحيم: **﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم﴾**.

ـ والآية (١٢٠) التي تأتي في خاتمة ما سمَّاه المؤلف «فصلاً خاصّاً» تنبىء النبي (ص) أنه لن ينال رضى اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم. . ثم تأمره بأن يعلن بأنَّ الهدى هو هدى الله وليس كما عرضته الطائفتان.

تلك هي الآيات، عرضناها بكلماتها ومعانيها على وجه التقريب فلم نلحظ فيها تخصيصاً بالجدال مع اليهود ولا استثناءً للنصَّارى من أهل الكتاب، والحديث عن الطائفتين في آية واحدة وإطلاق حكم واحد عليهما لا يتناقض من حقيقة التعارض العقائدي بينهما. ولو تمعن المؤلف في الآية (١٢٠) لوجد أن كلاً من الطائفتين تشترط لرضاها على النبي أن يتبع ملَّتها، فيؤمر بأن يعترض على الإثنين معاً. ويرفض رضاهما معاً، وينفي أن يكون الهدى عند أي منهما، ويأتيه تحذير بمثابة التهديد بأنه سوف يخسر ولاية الله ونصره ورضاه إن مال إليهما أو اتبع أهواءهما.

لقد عزونا خطأ المؤلف في تفسير مضامين الآية (١٢٠) وما قبلها إلى سوء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القراءة وسطحية التفسير اللذين لازماه دون فكاك من أول الكتاب.

* * *

الفروق الجوهرية بين اليهود والنصارى تمنع التقاءهما:

في رأي المؤلف:

ـ أن الخلاف العقائدي بين اليهود والنصارى كان من العمق والشدة والتشعب بحيث لم يكن يسمح بالتقائهما على صعيد عقائدي واحد.

ـ وفي رأيه: أن تعبير «أهل الكتاب» في آيات الجدل لا يستهدف غير اليهود وإن وجود النصارى مقروناً إلى اليهود في بعض الآيات هو وضعٌ وإقحام، لأن الاختلاف بين النصرانية والمسيحية كان اختلافاً حول جوهر العقيدة والايمان منذ السنوات الأولى التي تلت انتقال المسيح. وظلت النصرانية ثابتة على عقائدها طوال القرون الستة حتى ظهر الإسلام فوجدت فيه ذاتها عقيدة وكتاباً ونبوة فانتمت إليه وذابت فيه، أما المسيحية فقد كانت بعيدة عنه بُعداً جغرافياً منع قيام اللقاء أو التعارف أو الحوار بينهما، وسوف ينتقل نبي الدعوة إلى الرفيق الأعلى ويتبعه خليفته الأول وينقضي الهزيع الأول من خلافة الثاني حتى يتم هذا الالتقاء المنتظر ولكن الحوار بينهما لم يكن بالكلام بل بالسيوف التي اتخذت مدادها من دماء الصدور.

أما اليهود فقد تجمدوا، إلا قلة منهم، على مواقفهم المتشنجة من الإسلام والمسيحية على السواء فكلتاهما في نظر اليهود ليستا على الحق.... لقد بالغ اليهود في تكفير المسيحية وبالغوا في تحقير الإسلام، فناصبوهما العداء والبغضاء، فنزلت آيات القرآن متتابعة في لعنهم وتكفيرهم وطردهم من رحمة الله والتحذير من مكائدهم.

لذلك: وجد المؤلف أن كلمة «ولا النصارى» وضعت في غير موضعها إذ حُشرت في مكان تخصص للحوار مع اليهود والرد عليهم. وشدة البعد العقائدي بينهما ترفض أن يجتمعا في آية واحدة، على رأي واحد، وثمة قرائن عميت عنها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عيون جامعي القرآن ـ كما يقول المؤلف ـ في الآيات التي تلت الآية ٢/ ١٢٠ تؤكد هذه الحقائق.

ـ ففي الآية ٢/ ١٢١ وصف النصارى بأنهم يتلون الكتاب حق تلاوته ويؤمنون بالنبي. ووصف اليهود بأنهم الذين كفروا به وهم الخاسرون. وفي الآية ٢/ ١٢٢ مناداة اليهود بالاسم الذي يحبونه «يا بني إسرائيل» تذكِّرهم بأن الله فضلهم على العالمين. وفي الآية ٢/ ١٢٤ خطاب الله إلى موسى بقوله: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ (انظر الهامش)[1].

ـ فتلك كلها قرائن تقطع بعدم علاقة النصارى بهذا الفصل الذي تخصص جميعه للجدال مع اليهود. (انتهى كلام المؤلف).

* * *

إن هذه المحصلة التي توصل المؤلف إليها لم تدَّعم بأي مرجع، بل هي محصلة قراءة شخصية وفهم شخصي، وتحليل شخصي وهي ـ بوضعها الشخصي ـ غير معصومة من الزلل وغير محظورة على النقد.

ـ فالتلاوة في الآية ٢/ ١٢١ تتطلب التماس معنى من معانيها اللغوية العديدة. بما ينسجم مع غاية الآية فلا يستطاع تفسيرها هنا بمعنى القراءة لما فيه من ضعف واضطراب وفقدان الانسجام مع كلمات الآية، إلا إذا كانت تعنى المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن ويتلونه حق تلاوته.

أما إذا توجهنا بها نحو أهل الكتاب من الطائفتين، فالتلاوة تعني الاتباع فيما أمر والامتناع عما نهى، وهؤلاء فريقان:

فريق الذين يتلون وبه يؤمنون.

وفريق الذين يكفرون به وهم الخاسرون.

---

(١) ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون﴾(٢/ ١٢١) ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾(٢/ ١٢٢). ﴿إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾(٢/ ١٢٤).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ والخطاب الإلٰهي في الآية ٢/ ١٢٤ لم يكن موجَّهاً إلى موسى ـ كما قال المؤلف ـ بل إلى إبراهيم كما دلت مقدمة الآية: ﴿**وإذا ابتلى إبراهيم ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين**..﴾ وهذا خطأ لا يمكن العودة به إلى السهو ولا إلى ضحالة المخزون اللغوي أو العلمي، إنه قَفْزٌ على نصف الآية، وتحويلٌ لاتجاهها تحويلاً غيَّر المقصود منها، وطوى قروناً عديدة من الزمن[1].

والفروق بين إبراهيم وموسى في الزمان والمكان والعقيدة أوسع وأكبر من أن يخطىء فيها باحث فلا يميز أحدهما عن الآخر، ولكنَّنا مرَّة ثانية نميل إلى الاعتقاد بأن إبدال موسى بإبراهيم ـ لدى المؤلف ـ كان مقصوداً به التضليل لكي يشد انتباه القارىء إلى أن القرآن أكد إمامة موسى للناس، وما عليهم جميعاً إلا اتباع الكتاب المنسوب إليه. ولما كان أتباع المسيح قد عرفوا هذه الحقيقة فاتبعوا التوراة، لم يبق غير اتباع النبي محمد لينهجوا النهج ذاته.

أما نحن فإن لنا أن نقرأ الآية كما هي، وأن نفهمها على حقيقتها، فلقد أفادتنا بأن إمامة الناس جعلها الله إلى إبراهيم. ولكن أبناء الأديان من بعده ـ مع تعظيمهم له وتشرفهم بالانتساب إليه ـ لم يتبعوا ملته، بل الإسلام وحده هو الذي دعا إلى دين التوحيد الإبراهيمي والحنيفية الإبراهيمية والإسلام الإبراهيمي.

* * *

(١) .البعد الزمني ما بين ابراهيم وموسى هو سبعة عشر قرناً تقريبا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإقحام في سورة آل عمران

ويستطيع ـ كما قال المؤلف ـ قارىء «آل عمران» أن يكتشف بنفسه عملية الاقتحام ودس كلمة «النصارى» إلى جانب اليهود، ليكونوا شركاء في الحكم القرآني الواحد.

ففي تحليل الآيات (٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩) منها.

وفي استعادة قراءة آيات السورة بكاملها ولو على وجه السرعة نلتقي بالدليل يتلو الدليل.

ـ الآيات من ٦٥ ـ ٦٩ موجهة إلى اليهود، لأنهم أهل الكتاب الذين يحاجون في إبراهيم (٦٥) ولأنهم الطائفة من أهل الكتاب (٦٩) لذلك جاءت كلمة «ولا نصرانياً» في الآية (٦٧) نشازاً أحدث انقطاعاً في المعنى العام يتجافى مع السرد ويتعارض مع الآية (٦٨).

ـ والسورة بجملتها هي حلقات متتابعة من الجدال مع اليهود، لا يشذ عنه غير قصة وفد نجران عندما قدم إلى مقابلة النبي في المدينة وقام بينه وبين النبي ذلك الجدال العقائدي الذي سردته الآيات (٣٣ ـ ٦٤) من السورة.... لهذا يقول المؤلف:

«فالإقحام ليس في النص بل في زمانه ومكانه، وهذا ما أوجَدَ التشويش في موقف القرآن من المسيحية» (ص ـ ٤٦). تلك هي تحليلات المؤلف.

أما نحن فعلينا أن نتبع خطتنا مع المؤلف فنضع كل مقولة من مقولاته تحت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاختبار، وسوف نتبع أسلوبه الذي حقق له هذا الكشف، فنحلل الآيات (٦٥ ـ ٦٩) ونستعيد مواضيع «آل عمران» واحداً واحداً.

* * *

تحليل الآيات:

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون (٦٥). هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٦٦). ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين (٦٧). إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتَّبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين (٦٨). ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون (٦٩). يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون (٧٠).﴾.

١ ـ إن تعبير «أهل الكتاب» وَردت في تسع وعشرين آية من آيات القرآن فانصرف بعضها إلى اليهود وحدهم وإليهم مع النصارى في أكثرها وإلى المسلمين في بعضها الآخر. ولكي نستطيع تحديد المقاصد الحقيقية من كل آية ينبغي قراءة الآيات وتحليل معانيها البعيدة على هدى موقعها من السورة والسباق.

فمثلاً: الآية ٣/ ٦٤ **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**. تلك دعوة توجهت من النبي إلى «اليهود» و «النصارى» للالتقاء معهم على كلمة السواء التي تعددت أركانها ويمكن اختصارها «بالتوحيد».

وقد جاءت الدعوة إليهم باعتبارهم «أهل الكتاب» في رسائل بعثها النبي إلى ملوك العالم المسيحي في ذلك الزمن وهم: هرقل عظيم الروم والنجاشي ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر.

كما كانت مفتوحة أمام اليهود والمجوس الذين أولاهم الإسلام سنة أهل الكتاب (حديث شريف).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ الآية ٣/ ١٩٩ ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله. . .﴾.

هنا: يتجه «القصد» إلى من آمن من أهل الكتاب عامة من «اليهود والنصارى».

وقيل: نزلت في النَّجاشي وأصحابه الذين آمنوا[1].

وقيل: نزلت في أربعين من وقد نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى فأسلموا.

وقيل: إن تعبير أهل الكتاب عندما يأتي عاما يشمل اليهود والنصارى والصابئة وحتى المجوس لما ثبت عن النبي (ص) أنه قال «سَنُولِيهم سنة أهل الكتاب».

ـ الآية ٤/ ١٧١ النساء: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إلَه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾.

إن المقصود بتعبير أهل الكتاب في هذه الآية هم أتباع المسيح الذين يغالون فيه ويقولون على الله غير الحق، فيبتعدون عن التوحيد.

لذلك: ليس صحيحاً ـ ما قاله المؤلف ـ من أن تعبير «أهل الكتاب» أينما وجد في القرآن فهو تعريف لليهود أو نداءٌ لهم، والأصح منه التماس المقصود من التعبير على ضوء موقعه من الآية وموقعها من السياق القرآني.

٢ ـ بعد هذا نعود إلى الآية ٣/ ٦٥ من السورة لتحديد المقصودين «بتعبير أهل الكتاب» وذلك من خلال تحليل موقعه في الآية وموقعها بين الآيات (٦٦ و٦٧ و٦٨ و٦٩ و٧٠).

---

(١) روي عن النبي(ص) أنه عندما سمع بموت النجاشي خرج بأصحابه إلى خارج المدينة وقال: أخ لكم في الحبشة مات فصلوا عليه ثم صلى عليه معهم، صلاة الغائب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ ـ من الثابت في التاريخ أن اليهود رفضوا الدعوة الإسلامية بحجة أنهم ورثة إبراهيم الخليل في النسب والدين والكتاب، وأنهم بذلك في غِنىً عن الإسلام والقرآن. لأنهما يخالفان «الخليل والتوراة».

وكذلك جاء احتجاج النصارى بالمسيح والإنجيل مبنيا على أن المسيح يتسلسل من النسب النبوي حتى داود وموسى وابراهيم وأن الإنجيل هو ديانة هؤلاء الأنبياء جميعاً.

هذا الرفض من جانب اليهود والنصارى، الذي بني على أساس تاريخي وكتابي واحد، اقتضى أن يكون الرد عليه واحداً لذلك كان ورود كلمة «الإنجيل» إلى جانب كلمة «التوراة» من لوازم الرد ومن مقتضيات الجدل مع هاتين الطائفتين.

وقد جاء مبنيّاً على قواعد منطقية يقبلها العقل السليم.

ـ فمن قبل التوراة والإنجيل بزمن بعيد وجد إبراهيم الخليل لذلك لا يمكن أن ينسبا إليه ولا أن ينسب إليهما.

ـ وابراهيم، لم يكن بلا دين، بل كان دينه الحنيفية والإسلام، وهو دين التسليم لله وتوحيده. وهذا هو الدين الذي دعا إليه الإسلام ولكن اليهود والنصارى لم يعتنقا ملة إبراهيم، لأن التوراة والإنجيل ـ في زعمهم ـ لم يتحدثا عنها، ولم يأمرا بها.

لذلك كان احتجاجهما بإبراهيم، متناقضاً مع موقفهما من ملته التوحيدية.

ـ إن التكليف الذي فرضه الله على الإنسان في العبادات والمعاملات وجد قبل موسى على أيدي الأنبياء الذين سبقوه ثم جاءت شريعة موسى فكان لا بد لها أَزاءَهُ من أن تكون:

ـ إما ناسخة لما قبلها.

ـ وإما مقررة لها مقرة بها.

والنسخ التشريعي، وكذلك الإقرار بالكليات والثوابت السابقة، لا يعترف بها اليهود.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ ويستمر خطاب القرآن «لأهل الكتاب» مشيراً لليهود والنَّصارى بإشارة واحدة فربط ما بين الآية ٣/ ٦٥ وما بعدها بقوله: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم. . .﴾ ٣/ ٦٦.

فالهاء للتنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، وحاججتم جملة مستأنفة تبين ما سبقها[1] وتهيىء الذهن إلى تلقي ما سيأتي بعدها. . . ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم. . .﴾٣/ ٦٦.

أي: إن توافر لديكم من العلم ما يمكنكم من ملاحظة الفروق بين التوراة والإنجيل وبين القرآن واستطعتم إثارة الجدل من خلال هذه الفروق فكيف تحاجُّون في اختلاف القرآن عن شرع ابراهيم ودينه وليس لديكم شرح إبراهيم ودينه ولا تقيمون أيّاً منهما.

ويخلص القرآن إلى النتيجة الحاسمة التالية:

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ (٣/ ٦٧).

فالمراد من ذلك كله هو:

أن كل ما يقوله اليهود والنصارى في الانتساب إلى إبراهيم ملة وشريعة وكتاباً هو قول مردود.

ـ لأنه كان حنيفاً مسلماً وفي ذلك توضيح لابتعاد الطائفتين عن ملته.

ـ وأنه لم يكن من المشركين، وفي هذا تعريض بالنصارى الذين اعتبرهم القرآن من المشركين لقولهم بإلٰهية المسيح وتعريض بعقيدة اليهود الذين أشركوا عندما قالوا بالتشبيه.

ـ وبعد أن بين القرآن استحالة التقاء اليهود والنصارى مع دين إبراهيم وشريعته

---

(١) ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾(٣/ ٦٥: آل عمران).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حدَّد من هم «الأَوْلَى» باتباع إبراهيم فقال:

﴿إن أولى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ (٣/ ٦٨).

ج ـ وفي الآية ٣/ ٦٩ يتخصص التعبير فيُشار «بأهل الكتاب» إلى واقعة تاريخية معينة وهي أن بعض اليهود وجهوا الدعوة إلى معاذ وعمَّار وحذيفة لكي يدخلوا في دينهم. فجاء الإخبار القرآني محدداً بحدوده حيث استخدم حرف «من» لكي يفيد التبعيض والتجزيء واستخدم «لو» لكي يفيد التمني، فأخرج بذلك تعبير «أهل الكتاب» من العموم إلى الخصوص.

﴿ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يُضلُّونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾(٣/ ٦٩).

وبذلك: وضع القرآن وجوب تحديد المقصود من «أهل الكتاب» على ضوء موقعها التنزيلي والتاريخي.

د ـ ثم تتوجه الآية ٣/ ٧٠ إلى أهل الكتاب عامة، مستنكرة منهم الكفر بآيات الله عندما يسألون عنها فيشهدون على أنها ليست من عند الله: **﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾**(٣/ ٧٠).

فأهل الكتاب هنا: هم اليهود والنصارى.

وآيات الله: هي آيات القرآن.

وكلهم كانوا يعلمون أنها من عند الله ولكنهم يشهدون بغير ذلك.

* * *

مواضيع سورة آل عمران:

مهمَّةُ هذا العنوان، ليست تقديم تفسير لسورة آل عمران. بل تقديم عرض لمواضيعها وتحديد توجه هذه المواضيع ووجهتها ومن ثم «امتحان صِحَّة مقولة المؤلف في الصفحة ٤٦ ـ من كتابه وهي: إنه إذا صار رفع قصص آل عمران من الآية ٣٣ حتى الآية ٦٤ المقحم على السورة تظهر السورة، كلها، حلقات متصلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متتابعة دون فاصل، في جدال اليهود وحدهم».

والمؤلف يهدف ـ كما مرَّ معنا ـ إلى تكثيف الأدلة أمام القارىء لإقناعه بأن القرآن تعرَّض للدس والوضع في هذه السورة وفي غيرها.

١ ـ الآيات من ١ ـ ٢٠ تحدثت عن تنزيل الكتاب على النبي بالحق وعن انزال التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وإنزال الفرقان، ثم تحدثت عن المحكمات والمُتشابهات، وأوضحت أن الكافرين لا يغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وتضرب مثلاً آل فرعون الذين كفروا فأخذهم الله بذنوبهم وتستمر الآيات في وصف الكفار وفي مزايا المؤمنين المتقين.

٢ ـ وينتقل الحديث إلى من يكفرون بآيات الله **﴿ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط﴾**(٢١)[1].

٣ ـ **﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب...﴾** والمقصود بالكتاب هنا هو غير القرآن لأنه أضيف إلى من كفر به من اليهود والنصارى الذين وصفتهم تتمة الآية بالإعراض عنه عندما يدعون إليه.

﴿والّذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾(٢٣).

ثم تستمر الآيات حتى (٣٠) في تعداد عظمة الله وهيمنته وجبروته وأنه ولي المؤمنين بيده حساب كل نفس وهو الرؤوف بالعباد.

٤ ـ وفي الآيات من ٣١ ـ ٣٤ نداء إلى من يزعمون أنهم أحباء الله من اليهود والنصارى لكي يؤمنوا بالنبي ويتبعوه فينالوا بذلك محبة الله لأن الله اصطفى الأنبياء قبل محمد (ص) فلما بعث بالرسالة انتقل إليه نور النبوة وصار مطلوباً من تابعي الأنبياء السابقين أن يتبعوه لأن الانبياء ـ جميعاً ـ ذرية بعضها من بعض.

---

(١) الكتاب في الفقرة(١) هو القرآن. والكفار الذين كفروا به هم اليهود والنصارى. أما: قتلة الأنبياء في الفقرة (٢) فهم اليهود الذين تواتر أنهم قتلوا مئة وخمسة وخمسين نبياً في يوم واحد. (الرازي ـ في تفسير الآية (٢١) من آل عمران).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ ـ أما الآيات من ٣٥ ـ ٦٤ ففيها:

ـ حديث عن امرأة عمران التي نذرت ما في بطنها محرراً لله. فوهبها الله أنثى وأنبتها نباتا حسناً (٣٥ ـ ٣٧).

ـ وعن زكريا ودعائه إلى الله أن يهبه ذرية طيبة وتبشير الملائكة له بيحيى رغم إنه متقدم في السن وأن زوجته عاقر (٣٨ ـ ٤١).

ـ وحديث الملائكة مع مريم وتبشيرهم لها بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم ودهشتها من أن يكون لها ولد دون أن يمسسها بشر. (٤٢ ـ ٥٨).

ـ ثم تقف الآيات وقفة متأنية مع المغالين في عيسى لتقول لهم: إن الله خلق عيسى مثل ما خلق آدم كلاهما دون أب.

فآدم خلقه الله من دون أب ولا أم ولم يوصف بأنه ابن الله تعالى.

وإذا جاز أن يخلق الله آدم من تراب ـ كما اتفق الجميع على ذلك ـ فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دماء مريم؟ بل هنا أقرب إلى العقل لأن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس. (٥٩ ـ ٦٣).

ـ ثم تأتي الآية (٦٤) لتدعو أهل الكتاب كافة ـ يهوداً ونصارى ومجوساً ـ إلى كلمة سواء هي «الاقتصار على عبادة الله دون شريك وألاّ يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

٦ ـ أما تعبيرأهل الكتاب الذي تكرر فيما بعد في الآيات من ٦٥ ـ ٨٥ فهو منصرف إلى جميع أهل الكتاب دون تخصيص أو استثناء.

٧ ـ وفي الآيات العشر من (٨٣ ـ ٩٢) تركيز على أن الإسلام هو دين الله الذي كُلِّف به الأنبياء جميعاً.

٨ ـ وفي الآيات من ٩٣ ـ ١٠١ حديث عما حلل الله لبني إسرائيل وما حرم إسرائيل على نفسه. كله قبل نبوة موسى وقبل نزول التوراة، كما تحدثت الآيات عن بناء الكعبة وتشريفها على البيوت كافة.

٩ ـ ثم تأتي الآيات من ١٠٢ ـ ١١١ ـ بخطاب إلى المسلمين الذين كانوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعداءً فألف الله بين قلوبهم وجعلهم بنعمته إخواناً وحضَّهم على أن تتكوَّن منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم تخبرهم بأنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس. **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله. . . .﴾**(١١٠).

فكلمة «كنتم» في الآية تقرأ تامة وتقرأ ناقصة وتقرأ زائدة. فمن قرأها تامة لم يجدها في حاجة إلى خَبَر (كنتم بمعنى صرتم).

ومن قرأها ناقصة، فسرها على الوجود في الزمن الماضي على سبيل الإيهام دون انقطاع مثل: **﴿استغفروا ربكم إنه كان غفَّارا﴾** (٧١/ ١٠: نوح).

ومن قرأها زائدة، قارنها بغيرها مثل **﴿واذكروا إذ كنتم قليلا. . .﴾**(٧/ ٨٦: الأعراف).

١٠ ـ وقبل أن تنتهي الآية (١١٠) ينْعطف الحديث انعطافاً حاداً إلى أهل الكتاب وبالامعان فيها وفيما تلاها يتبين أن أهل الكتاب هنا هم اليهود لأن ما فيها من وصف ينطبق على اليهود وحدهم.

﴿. . . . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠) لن يَضروُكم إلاَّ أذىً وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لايُنصرون(١١١)﴾.

فاليهود هم الذين لم يقاتلوا المؤمنين إلا ولّوهم الأدبار.

﴿وهم الذين ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضبٍ من الله وضربت عليهم المسكنة﴾(١١٢).

١١ ـ و «أهل الكتاب» ليسوا سواء منهم أمة قائمة. . . . (١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٥).

فهنا يشمل التعبير كل من أوتي الكتاب بمن فيهم المسلمين بدليل قوله تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾**(٣٥/ ٣٢: فاطر).

١٢ ـ والآيات من (١١٦ ـ ١١٨) ليس فيها ذكر «لأهل الكتاب».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الآيتان (١١٩ و١٢٠) فهما تتحدثان عن الجهات التي تكيد للمؤمنين وتحسدهم، وحذرنا من اتخاذهم بطانة، وهؤلاء ليسوا اليهود فقط بل جميع الذين كفروا. فقد روي أنه قيل لعمر بن الخطاب (ر) ههنا رجل من أهل الحيرة نصراني لا يُعرف أقوى حِفظاً ولا أحسن خطاً منه فإن رأيت أن تتخذه كاتباً فامتنع عمر وقال: إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين. معتمداً على هذه الآية دليلاً على النهي. (الرازي).

١٣ ـ أما الآيات من (١٢١ ـ ١٧٨) فهي خالية من الحديث عن أهل الكتاب لأنها تركزت على معركتي بدر وأحد. وعلى وضع التوجيهات التربوية والأخلاقية كالامتناع عن الربا وإطاعة الله والرسول والإنفاق في سبيل الله والاستغفار عند ارتكاب الذنوب، وعن ثبات الآجال، وعن حكمة الله في إمهال الكفار لا لخيرهم بل ليزدادوا إثما (١٧٨).

١٤ ـ وتستمر الآيات في إعلام الكُفَّارِ بأنهم لن يضروا الله في كفرهم وأن ما يتنعمون به مما آتاهم الله ليس خيراً لهم بل هي شرور يُطَوَّقُون بها يوم القيامة (١٨٠).

١٥ ـ ولكن أربع آيات تالية تحدثت عن اليهود فقط هي الآيات (١٨١ ـ ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ١٨٤).

ـ فالآية (١٨١) نزلت في يهود بني قينقاع، عندما وجه إليهم النبي كتاباً مع أبي بكر (ر) يدعوهم فيه إلى الإسلام وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال «فنحاص ـ اليهودي» إن الله فقير حتى يسألنا القرض وهو ينهانا عن الربا ثم يعطينا الربا وذلك بمضاعفة القرض أضعافاً مضاعفة. فنزلت الآية: **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾**(١٨١).

ـ والآية (١٨٢) نزلت في كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وغيرهم.

ـ وفي الآيتين (١٨٣ ـ ١٨٤) أُخبر النبي أن هؤلاء إن كذبوك فقد كذبت رسُلُ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير.

١٦ ـ وفي الآيتين ١٨٦ ـ ١٨٧ ورد تعبير «الذين أوتوا الكتاب».

ـ ففي الآية (١٨٦) ورد عاماً مع الذين اشركوا أي عام في اليهود والنصارى وغيرهم.

ـ وفي الآية (١٨٧) ورد منفرداً فدل على اليهود والنصارى فقط.

والدلالة على هذه المقاصد تستنتج من ألفاظ الآيتين:

﴿لتُبلوُن في أموالكم وأنفسكم ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾(١٨٦).

فالأذى وقع على المسلمين من اليهود والنصارى والمشركين بوجه عام.

﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيَنُّنَّهُ للناس ولا تكتمونه...﴾(١٨٧).

فالذين أخذ الله ميثاقهم لكي يؤمنوا بالنبي هم الأنبياء ولكن أتباعهم فيما بعد كتموه. لذلك فإن تعبير الذين أوتوا الكتاب في هذه الآية لا يشمل المشركين.

١٧ ـ وتستمر الآيات في التوجيه الديني ووضع قواعد الاخلاق متخذة في التعبير «صيغة العموم» لكي تشمل الناس جميعاً حتى الآية (١٩٥).

أما الآيات التي تلت حتى آخر السورة في الآية (٢٠٠) فقد وردت فيها أحكام متنوعة.

ـ فمتاع الذين كفروا هو **﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾**(١٩٧).

ـ **﴿الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله﴾**(١٩٨).

ـ وتقوى الله تتناول جميع الطاعات فيدخُل فيها الاحتراز والمنهيات وترك المأمورات.

ـ **﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إليهم. . .﴾(١٩٩) فهؤلاء داخلون في عداد الذين اتَّقوا ربهم، بدليل تتمة الآية: ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ (١٩٩).

* * *

هذه هي المواضيع التي تضمنتها آيات آل عمران المئتان، عرضناها باختصار شديد متوخين أن نضع بين يدي القارىء لمحة عنها تمكنه من رفض مقولة المؤلف الذي جعل من سورة آل عمران سورة خاصة باليهود لا يستثنى منها سوى حوار وفد نجران من (٣٣ ـ ٦٤).

فقد تبين أن ما خص اليهود لوحدهم هو عدد محدود جداً من الآيات.

وأن تعابير «أهل الكتاب» و «الذين أوتوا الكتاب» و«الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» ليس مقصوراً على اليهود ولا على النصارى بل هو وصف وتسمية لأهل الكتاب عامة.

وأنه لا يمكن تحديد وجه «المخاطب» بهذا التعبير إلا إذا درسنا موقعه من الآية وموقع الآية من السياق التنزيلي والتاريخي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التشويش والإقحام في سورة المائدة

قال المؤلف: إن أكبر ظاهرة في سورة المائدة هو اشتمالها على الجدال المستمر مع اليهود والنَّصارى، الذي شوَّش الحقيقة القرآنية وأقحم النصرانية في الآيات إقحاماً إجرامياً تشوَّه به موقف القرآن من أهل الإنجيل وترك تناقضاً في رؤيته إليهم وكان سبب البلاء في تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية ـ (ص ـ ٤٨ ـ ٥٤).

وبعد أن عدَّد المؤلف مظاهر التشوش وحالات الإقحام، قدم نظريته لتصحيح الأوضاع فقال في (ص ـ ٥٥).

«ففي إسقاط اسم النصارى من الآيات السبع تستقيم صحة التنزيل. وإسقاطها لا يطعن في صحة القرآن، إنه تنقيح علمي لعمل غير معصوم، وفي الكشف عن تلك الإقحامات تسقط العقبة الثانية في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي».

تلك هي أقوال المؤلف دون تعديل.

ولكن كيف رأى وأين وجد حالات التشويش على الحقيقة القرآنية؟

وكيف رأى وأين وجد حالات الإقحام الإجرامي الذي كان سبب البلاء التاريخي؟.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حالات التشويش ومناقشة المؤلف فيها:

التشويش الأول:

قال المؤلف: «بما أن تصفية اليهود في الحجاز تمت قبل تنزيل سورة المائدة، فإن الجدال مع اليهود أقحم على هذه السورة إقحاماً وكان ينبغي إلحاقه بالقسم المماثل المقحم على سورة آل عمران المتمثل في القصص من (٣٣ ـ ٦٤ منها) أما تاريخية تصفية اليهود في الحجاز فقد أثبتها القرآن في الآية ٦١/ ١٤ من سورة الصف، التي أكدت ذلك مما يدفع أي شك ـ (ص ـ ٤٨ ـ المؤلف)».

لذلك: ونظراً إلى أن المؤلف لا يَعتمِدُ مرجعاً علمياً ولا تاريخيا بل يكتفي بالإستناد إلى الآية (١٤) من سورة الصف، فقد قامت لدينا ضد مقولته الملاحظات التالية:

أ ـ لم تكن اليهودية حزباً سياسياً ينقضي بالقضاء على نفوذه، ولكنها دين تغلغل، في التاريخ والجغرافيا، وهو معهما في حضور مستمر، لذلك وَضَع القرآن قواعد الحوار العقائدي ومنحها قوة المواجهة المستمرة كلما دعت الحاجة إلى ذلك. دون تقييد زماني أو مكاني.

ب ـ وآيات القرآن بما فيها من قواعد وأحكام لم تنزل دفعة واحدة بل نزلت منجَّمة ثُمَ وزعت على السور بأمر النبي وإرشاده، فسواء نزلت هذه الآيات قبل تنقية المدينة من اليهود أم بعدها، فإنَّها تضمنت أحكاماً عامة ومبادىء لا غنى عنها، في مقاومة أي تحرك عقائدي أو فكري مضاد. ودليلنا على صحة هذا الرأي:

هو أننا وبعد أربعة عشر قرناً لا نزال نعتمد في محاجَّة اليهود على الأحكام والمبادىء ذاتها، مما يقطع بأنها نزلت في الكتاب لتكون الدريئة الأبدية للمؤمنين بها.

ج ـ أما الآية (١٤) من سورة الصف (١٦) فلا ندري لماذا اعتمد عليها المؤلف كشاهد قرآني على تصفية اليهود من الحجاز وتحديد تاريخ التصفية قبل تنزيل المائدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الآية تضمنت دعوة المؤمنين كي يكونوا أنصار الله وأن يستجيبوا لدعوة النبي مثلما استجاب الحواريون إلى نداء عيسى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾ (٦١/ ١٤: الصف).

ـ فالآية ابتدأت بخطاب الذين آمنوا بالدعوة كي ينصروها، مثلما نصرها الحواريون.

ـ وإيراد «الحواريين» في الآية هو عودٌ بالحاضر إلى الماضي جاء بصيغة التمثيل والتشبيه مستخدماً كاف التشبيه في (كما) ليضع المقارنة بين استجابة من دعاهم وبين استجابة من ناصروا المسيح عندما دعاهم.

ـ وكذلك كان الإخبار عن إظهار الطائفة التي آمنت على عدوهم عوداً بالحادثة إلى زمن سابق حيث ثبت في التاريخ أن الصراع ظل محتدماً بين الطائفتين كابدت فيه الطائفة المؤمنة أقصى وأقسى صور العذاب حتى أظهرها الله على الفئة الكافرة بعد اكثر من ثلاثة قرون.

ـ ودعوة المسيح كانت في فلسطين، كما إن إظهار المسيحية كان في بداية القرن الرابع الميلادي حيث أعلن الإمبراطور قسطنطين الكبير حمايته للنصرانيَّة وانتماءه إليها.

أي: إن كلا من «الدعوة» «والإظهار» لم يتمّا في زمن الدعوة الإسلامية ولا في مكان انبعاثها.

ذلك كله يجعل من احتجاج المؤلف بالآية ٦١/ ١٤ تضليلاً علمياً وتاريخياً.

التشويش الثاني:

أما التشويش الثاني فقد قال المؤلف: إنه نتيجة لعملية دمج الآيات من (١٥ ـ ١٩) التي تضمنت جدال النبي مع وفد نجران في الفصل الذي تخصَّصَ جميعُهُ للجدال مع اليهود وهو الذي استغرق الآيات من (١٣ ـ ٣٥) ـ (ص ـ ٤٨).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذن: يكون دليل التشويش هو اقتحام الآيات من ١٥ ـ ١٩ على فصل مستقل يقع في الآيات من ١٣ ـ ٣٥ فشتت استقلاليته إذ دسَّ فيه موضوعاً مختلفاً.

أما نحن فلم يبق لدينا من وسيلة غير قراءة آيات هذا الفصل بكامله لنَلتمس عنده اليقين حول التشويش والإستقلالية اللذين وجدهما المؤلف.

١ ـ الآيات من (١ ـ ١٢) وضعت قواعد التحليل وفرائض الصلاة وأصول الطهارة وخاطبت جميع المؤمنين مذكرة بِنعَم الله عليهم. ووعده لهم بالغفران ووعيده بالنَّار للكفار.

٢ ـ الآيتان (١٢ ـ ١٣) تحدثنا عن الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل واستحقاقهم لِلَّعن بسبب نقضه وبسبب تحريف الكلام عن مواضعه ونسيانهم حظاً مما ذكِّروا به.

٣ ـ الآية (١٤) ذكرت بعضاً من النصارى الذين نسوا حَظّاً مما ذكِّروا به وكان الميثاق قد أخذ عليهم وقد وردت الآية مبتدئة بالحرف (من) «ومن الذين قالوا إنا نصارى. . .» لكي تفيد أن بعضهم وليس جميعهم قد سلكوا مسلك اليهود في نقض الميثاق مع الله، لأن حرف «من» يفيد التبعيض والتجزيء.

٤ ـ الآية (١٥)توجهت بالنداء إلى أهل الكتاب عامة لتنبئَهم بأن الرسول جاءهم بنورٍ من الله وكتاب منير وقد استدلوا على التعميم في تعبير «أهل الكتاب» بكون الآية جاءت بعد آيات تحدثت عن نقض الميثاق الإلٰهي من اليهود وبعض النصارى، وبكون الآية (١٦) تضمنت وصفاً متعدداً للكتاب المنير الذي جاءهم به الرسول، بقولها ﴿**يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سُبُلَ السّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾ ١٦/٥. فالهداية إلى سبل السلام والإخراج من الظلمات إلى النور والدعوة إلى الصراط المستقيم هي غايات الإسلام وأهدافه التي توجه بها إلى جميع الأمم والأديان.

٥ ـ والآيتان (١٧ و١٨) تضمنَّتا تأكيداً واضحاً على أن المقصود «بأهل الكتاب» في الآية (١٦) هم أهل الكتاب عامة هو الانتقال الفوري من تسفيه ناقضي الميثاق الذين تحدثت عنهم الآيات (١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥) وهم اليهود وبعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النصارى إلى تكفير من قال بأن الله هو المسيح ابن مريم وتسفيه ادعاء كل من اليهود والنصارى بأنهم وحدهم أحباء الله وأبناؤه، فاجتماع اليهود والنصارى على ادعاء كل منهما وزعمه بأنه حبيب الله وابنه اقتضى أن يأتي تسفيههما والرد عليهما في آية واحدة[1] ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحِباؤه. . .**﴾.

٦ ـ وفي الآية (١٩) ورد تعبير «أهل الكتاب» عامّاً إذ جاءَ بصيغةِ الإخبار بأن الرسول (ص) جاء على فترة من الرُّسل بشيراً ونذيراً.

هنا نستطيع الوقوف مع المؤلف لنقول له:

هذه هي الآيات من ١٥ ـ ١٩ قرأناها سوية، فما وجدناها مخصصة للجدال مع وفد نجران ولا تبين أنها محشوة حشواً مزَّق الوحدة الموضوعية للفصل المستقل الذي خصصتَه ـ كما رَغِبْتَ ـ لليهود.

بعد ذلك: نعود إلى ما تبقى من الفصل.

ـ الآيات من (٢٠ ـ ٢٦) تضمنت حوار موسى مع قومه.

ـ الآيات من (٢٧ ـ ٣١) سرد مفصل لنبأ ابني آدم هابيل وقابيل.

ـ الآيات من (٣٢ ـ ٣٤) إعلان بأن أول قانون جزائي وضعه الله كان بسبب مقتل هابيل: ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً. . .**﴾(٣٢) ثم جاءت الآيتان (٣٣ ـ ٣٤) في تحديد جزاء الذين يجادلون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً.

ـ أما خاتمة الفصل ـ كما زعم المؤلف ـ وهي الآية (٣٥) فإنَّها نداء إلى جميع الذين آمنوا كي يتقوا الله ويبتغوا الوسيلة إليه. ففي يوم القيامة والمعاد لن يقبل الفداء من الكفار ولو بذلوا ما في الأرض جميعا. وفيها أيضاً جزاء السارق والسارقة وأصول التوبة التي يتقبلها الله.

---

(١) يقول اليهود: نحن أحباء الله فضَّلنا على العالمين. ويقول النصارى نحن أبناء الله لأن عيسى قال «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم» يعني ربي وربكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا نستطيع الوقوف وقفة ثانية مع المؤلف لنعيد ما قلناه أيضاً:

فالآيات من (١٣ ـ ٣٥) لا تؤلف فصلاً من سورة المائدة اقتصر على اليهود وتخصص للجدال معهم.

التشويش الثالث:

وهو، إطلاق تكفير الآيتين ١٩ و٧٥ من السورة على المسيحية جمعاء مع أنهما نزلتا في تكفير الطائفة اليعقوبية وهي الطائفة التي ألّهت المسيح فكفرتها المسيحية واعتبرتها بدعة وطردتها من الكنيسة، فالشبهة والتشويش وقعا على حقيقة النص القرآني إذ لم يفرق المسلمون بين المسيحيين والنصارى الذين كانت اليعقوبية تنتمي إليهم وتمثل مفاهيمهم العقائدية (ص ـ ٤٩).

هذه الكلمات ـ على ضآلة عددها ـ طرحت مواضيع خطيرة يجب جلاء غموضها.

ـ فالتكفير ورد في الآيات ١٧ و٧٢ و٧٣ وليس في الآيتين ١٩ و٧٥.

ـ وهو يقع على من قال أو يقول: إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم. أو إن الله هو ثالث ثلاثة.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾(٧٢). **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلٰه إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾**(٧٣) **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا. . .﴾**(١٧).

ـ فالتكفير في القرآن هو تكفير عقائدي لا يرتبط بالأسماء (أشخاصاً أو جماعات) بل يرتبط بالعقيدة. ففي التوحيد القرآني، أن كل من ينصرف عن التوحيد في الله إلى الإشراك به أو عبادة سواه من دونه فهو كافر لذلك جاءت آياته تكفر العقيدة التي تقوم على تأليه المسيح أو على مقولة أن الله ثالث ثلاثة. ولذلك تتالت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآيات مؤكدة هذا المبدأ وتعبير الآيات وإن جاء في صيغة الماضي غير أنه حكمٌ ثابت ينال القائلين بهذه الأقوال في كل زمان، وعقيدة ـ التأليه والتثليث ـ هي التي انتهت إليها المسيحية[1] بعد جدال طوائفي مديد وانقسامات عديدة، ومن خلال مؤتمرات ومجامع مسكونية تتالت وتعاقبت حتى إذا كانت دعوة الإسلام وجد المسيحية أوالنصرانية مستقرة على هذه العقيدة استقراراً نهائيا. ولكي نجلو عن الوقائع بعض الغبار الذي استغله المؤلف سوف نستعرض أهم مقررات تلك المجامع معتذرين عن تقديم الباقي، لأنها كثيرة التشعب وقد تخلف عنها جدل غزير، ولأننا لا نبغي غير تقديم الوجه الذي استقرت عليه العقيدة المسيحية في عهد الدعوة الإسلامية.

ـ أهم تلك المجامع وأبعدها أثراً وأعظمها ذكراً هو مجمع «نيقية» المعقود في عام ٣٢٥ م وقد كان لانعقاده سببان عام وخاص.

أما السبب العام:

فهو الاختلافات الشديدة بين الطوائف المسيحية الأولى حول شخصية المسيح، هل هو رسول من عند الله فقط؟ أم إن صلته أكبر من صلة السفارة بين الله وخلقه؟ هل هو ابن الله لأنه ولد من دون أب؟ وهل هو مخلوق أم له صِفَة القدم كَمَا لله؟.

ونظراً إلى أن كثيراً من أفكار الرومان واليونان والمصريين قد دخلت إلى المسيحية مع رؤوس أصحابها فتكوَّن من ذلك مزيج غامض غير محدد خاصَّةً وقد حاول الفلاسفة أن يفهموا الدين على ضوء ما اعتنقوه من فلسفة قامت على جذور وثنية.

وبما أن الاضطهاد الروماني كان قاهراً غالباً، فقد كمنت تلك الاختلافات في الصدور واحتجبت عن الظهور. ولكن بعد أن حصل المسيحيون على الأمان وأعلن

---

(١) المسكوني هو تجمع رجال الكنائس المسيحية في كل أنحاء المعمورة، والمليّ هو المختص بطائفة دون غيرها، والإقليمي هو الخاص بإقليم مخصوص (كتاب سوسنة سليمان).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمبراطور حمايتهم برزت الاختلافات إلى سطح الحياة لتكون أهمَّ مشاغلها، وتبين أن المسيحيين لم يكونوا متفقين إلا على التعلق بشخص المسيح والانتساب العقائدي إليه دون أن يتفقوا على شيء في حقيقته، لذلك أمر الإمبراطور بعقد مجمع «نيقية».

وأما السبب الخاص:

فكان بدعة آريوس كما سماها تاريخهم، وهو رجل من مصر، داعيةً كبير، واسع الحيلة، عميق الثقافة، أخذ على عاتقه مقاومة الاعتقاد بألوهة المسيح، الذي كانت كنيسة الإسكندرية تبثه بين المسيحيين، وقد قال ابن البطريق في بيان مقالة آريوس:

(كان يقول إن الآب وحده هو الله والابن مخلوق مصنوع وقد كان الآب إذ لم يكن الابن).

وقد تبنّى القيصر قسطنطين الكبير مقالة «بولس الشمشاطي ومعه ٣١٨ أسقفاً» وأيد عقيدتهم من بين ٢٠٤٨ أسقفاً كانوا في المجمع، فأعلن عن موقفه دون تحفظ. ويقول ابن البطريق في تاريخه واصفاً ذلك الحدث التاريخي:

«وضع الملك للثلاثماية والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم: لقد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين. فباركوا الملك وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهِرْ دين النصرانية وذبّ عنه. ووضعوا له أربعين كتاباً وفيها السُّنَنُ والشرائع منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به»[1].

أما العقيدة التي وضعها الأساقفة هؤلاء فقد ورد ذكرها في تاريخ الأمة القبطية وتاريخ الكنيسة الأرثوذكسية ونصها: (ص: ٢٢٨).

«إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٢٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن الله موجوداً فيه وأنه لم يوجد قبل أن يولد وأنه ولد من لا شيء أو من يقول إن الإبن وجد من مادة أو جوهر غير الآب وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول إنه قابل للتغيير ويعتريه ظل دوَران»[1].

وهكذا: وضع دستور نيقية الشهيرالذي اطلق عليه اسم «قانون الإيمان النيقاوي» والذي حددت فقرته الثانية مساواة ابن الله للآب في الجوهر والأزلية والأبدية، وصار هو الموئل العقائدي. أما ما يخالفه من الكتب والمقالات فقد أمر المجمع بحرقها ومطاردتها في كل مكان، وحث الناس على تحريم قراءتها. ومع أننا لسنا في صدد مناقشة ظروف ذلك المجمع ومقرراته فلا بدَّ من التنبيه إلى نقطة هامة وهي أن انقياد قسطنطين لجماعة المؤلهين وتبنيه لهم لم يكن ناجماً عن تعمقه في علم الدين المسيحي أو إيمانه الشديد به لأنه لم يكن بتاريخه قد اعتنق المسيحية[2] بل لأن في التثليث الإلّهي مشاكلة مع التثليث اليوناني الذي أخذه الاغريق عنهم والذي كان قد لخّصه أفلاطون بقوله: (إن الواحد الواجب الوجود المنزه عن الحركة والتغيُّر من حال إلى حال نجم عنه العقل الأول مثلما ينجم الابن عن الآب وإليه أوكل أمر الخلق ثم نجم عنه روح القدس الذي هو علة الحياة في الأحياء). وبذلك وجد قسطنطين عقيدة بولس الشمشاطي تقترب من مفهومه الوثني أو بعبارة ثانية تقرَّب بولس الشمشاطي من مفهوم قسطنطين لكي يحظى هو وجماعته بحمايته.

٢ ـ وفي عام ٣٥٨ م انعقد مجمع القسطنطينية الأول لبحث طبيعة الروح القدس هل هو إلّه أم مخلوق، لأن مجمع نيقية لم يتعرض إلا للآب والإبن. وبما أن الإسكندرية كانت مهد الأفلاطونية الحديثة التي قالت بأن المسيطر على العالم قِوىً ثلاث مؤثّرة فيه: «قوة المكوِّن الأول، والعقل، الابن. والنفس العامة ـ الروح القدس» فقد انتصر رأي «تيموثاوس» بطريق الإسكندرية وصدر عن المجمع القرار التالي: «ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله وليس روح الله شيئاً غير حياته،

---

(١) ذات المرجع ص ١٢٩ ـ .

(٢) يقول أوسيبيوس الذي تقدس الكنيسة كلامه وتطلق عليه اسم «سلطان المؤرخين» أن قسطنطين عُمِّدَ حين كان أسير الفراش وإن المؤرخ هو الذي عمده لأنه كان صديقه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به ومن كفر به وجب عليه اللعن»[1].

٣ ـ وبعد تقرير الثالوث رأى نسطور بطريرك القسطنطينية أن في المسيح «أقنوماً» و «طبيعة» فأقنوم الألوهة من الآب وتنسب إليه وطبيعة الإنسان من مريم وتنسب إليها فمريم «هي أم الإنسان لا أم الإله» وهذا من نسطور إنكار صريح لألوهية المسيح.

فانعقد مجمع «أفسس» سنة ٤٣١ م وقرر:

«إن مريم العذراء والدة الله وإن المسيح إلّه حق وإنسان معروف بطبيعتين متوحد في الأقنوم» ثم قرروا: لعن نسطور وتجريده وطرده.

٤ ـ وحصل أن كنيسة الإسكندرية خرجت برأي جديد عرضه البطريرك ديسقوريوس على ملأٍ من الأساقفة فأقروه عليه وقرروه وهو: «إن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت والناسوت».

وقد صدر هذا القرار عن مجمع أفسس الثاني. الذي رفضه عدد من الكنائس وسموه «مجمع اللصوص». فقررت ملكة الرومان عقد مؤتمر عام للخروج من هذا الخلاف الذي أحدثه مجمع أفسس الثاني. فانعقد تحت إشراف زوج الملكة في خلقيدونيا بعام ٤٥١م وقرر المجتمعون:

«إن مريم العذراء ولدت إلّهنا يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلّهية ومع الناس في الطبيعة الإنسانية وشهدوا أن المسيح له طبيعتان وأقنوم واحد ووجه واحد ولعنوا نسطورس ولعنوا ديسقورس ومن يقول مقالته ونفوه إلى فلسطين كما لعنوا مجمع أفسس الثاني وسموه مجمع اللصوص»[2].

٥ ـ وفي هذه الأثناء ظهر يعقوب البرادعي داعية قوي الشكيمة مؤيداً للمذهب

---

(١) محاضرات في النصرانية نقلا عن ابن البطريق.
(٢) أبو زهرة ص ـ ١٤٢ عن ابن البطريق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصري الذي يقول بالطبيعة الواحدة. وأخذ يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية ونظراً لنشاطه الكبير وتأثيره الحاسم أصبح كل من يذهب في الإعتقاد إلى الطبيعة الواحدة هو «يعقوبي» نسبة إليه مع أن هذا المذهب نشأ قبله وهو مذهب الكنيسة القبطية وبطريركها ديسقورس. وقد كان البرادعي تابعاً له.

٦ ـ وفي سنة ٥٥٣ م انعقد المجمع الخامس في القسطنطينية فتبنّى قرارات المجامع السابقة ومنها مجمع خلقيدونيا وأكد من جديد أن المسيح ذو طبيعتين كما أكّد على إنكار عقيدة الطبيعة الواحدة التي اعتنقتها كنيسة مصر.

٧ ـ وفي سنة ٦٨٠ م انعقد المجمع السادس بالقسطنطينية فقرر:

«لعن وطرد كل من قال ويقول بالطبيعة الواحدة وبالمشيئة الواحدة».

* * *

بعد هذه الجولة في تاريخ المسيحية، نستطيع أن نستعيد ما قاله المؤلف في اليعقوبية وانعكاس مقولته على آيات التكفير في القرآن، كما نستطيع أن نضع تقييماً علمياً لأقوال المؤلف. فقد قال:

«وإجماع المفسرين متفق على أن وفد نجران كان مسيحياً على المذهب اليعقوبي كما يتضح من التكفير المكرر في الآيات ١٧ و٧٢ و٧٣ واليعقوبية لا تمثل المسيحية بل هي بدعة كفرها مجمع ٤٥١م».

أي: إن المؤلف يرى أن تكفير القرآن لم يكن إلا لليعقوبية وأن هذا التكفير يلتقي مع تكفير المسيحية لها، بل هو تأكيد له ومحدِّث عنه. وهذا الإلتقاء بين القرآن والمسيحية يعطي الدليل على اتفاقهما في الإيمان والعقيدة ولكن هذا القول محمول على عدد من الأخطاء هي الآتية:

ـ إنَّ آيات القرآن لم تذكر اسم الطائفة التي ألصق الكفر بها، لأنها وضعت مبدأ عاما لا يحصره زمان ولا مكان حددت بموجبه علامات الكفر فقالت بكل صراحة: «إن كل من قال بأن الله هو المسيح أو بأن الله هو ثالث ثلاثة يقع في الكفر».

ـ ولقد تبين من مقررات المجامع المسكونية أن العقيدة استقرت على التأليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتثليث. وأن هذه هي العقيدة التي ندَّد بها القرآن.

ـ وهذا التنديد القرآني هو جزء غير قابل للانفصال عن عقيدة كل مسلم وقناعته الدينية لأنه يرى في المسيح عبداً لله آتاه الكتاب، ويستطيع الله أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعاً.

لذلك: نختتم مزاعم التشويش التي عددها المؤلف لننتقل إلى الإقحامات. وفي توقعنا أننا لن نجد في مزاعم الإقحام أكثر مما وجدناه في مزاعم التشويش «تلاعبٌ في الألفاظ» و«التواء في المعاني» «ودوران على الآيات والمناسبات» و«استهتار بنا جميعاً حتى في الدلالة على الآيات».

هنا نبدي ملاحظة نرى وجوب إبدائها: وهي إن دلالة المؤلف على الآيات ليست صحيحة دوماً. فهو يطلق الأحكام مستدلا عليها بآيات لا تتضمن شيئاً من مقاصد تلك الأحكام، لذلك: اضطررنا إلى وضع الأرقام الصحيحة.

كيف رأى حالات الإقحام في سورة المائدة؟

إلى جانب التشويش الذي أحدثته تلك الآيات على سورة المائدة وجد المؤلف الآيات ذاتها تنقض فتخترق انسياب السُّورة وتجثم في وسط الكلام محدثةً جفاء بين طبيعة الكلام ومقاصده.

وقد وقع هذا الإقتحام ـ كما يقول ـ على آيات عقائدية حاسمة فأقام بين المسيحية والإسلام جداراً منع التلاقي وفرض المواجهة العقائدية على تاريخها منذ نزول القرآن حتى الآن.

أما الآيات التي اقتُحمت أسوارها فهي: الآيات: ١٥ و١٩ و٢٠ و٧٥ من سورة المائدة.

وللوقوف على حقيقة «المقالة» أفردت لكل آية بحثاً مستقلاً، تناولت فيه حجج المؤلف وأدلَّته ثم أخضعتها لاختبار النقد والتمحيص كالآتي:

الآية ١٥: ﴿ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسوا حظّاً ممَّا ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العَداوَةَ والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يصنعون﴾ (١٤) ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ (١٥) ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السَّلام ويخرجُهم من الظُّلُمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (١٦).

قال المؤلف: «إن الخطاب في الفصل جميعه من (١٣ ـ ٣٥) موجه إلى بني إسرائيل، فهو جدال معهم وحدهم يفتح ويختتم بالنداء عليهم باسمهم الصريح: ﴿يا بني اسرائيل﴾ لذلك بدت الآيات ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ غريبة عن المناسبة والموضوع بسبب كونها ـ في الأصل ـ جزءاً من الجدال العقائدي مع وفد نجران المسيحي. كما إن ما في الآيات من تنديد بالنصارى يتعارض مع تصريح القرآن بأنهم أقرب الناس مودَّة للَّذين آمنوا وأنهم لا يستكبرون، وأن الله أثابهم بما قالوا جنات عدن. ٨٢ ـ ٨٦ المائدة».

«وإنَّ ما ورد في الآية (١٤) من نسيانهم بعض ما ذُكِّروا به ينْصرف إلى وفد نجران اليعقوبي لا يتعداه إلى المسيحية الرسمية التي لم يقم بينها وبين الإسلام تعارف أو لقاء أو حوار».

١ ـ لقد استعرضنا تحت عنوان «التشويش الأول» آيات سورة المائدة بدءاً من بدئها حتى الآية ٤٠ وبيَّنا أن ما سمَّاه المؤلف فصلاً مستقلاً تخصص لليهود ليس كذلك.

ثم كان من مهمات الدعوة أن تُعلِن إلى الناس عامة وإلى أهل الكتاب منهم بوجه خاص، أن الرسول جاءهم بنور من الله وكتاب منير يهدي به الله من اتَّبع رضوانَه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

وهذا حكم عام لا يُخصص بأحد ولا يستثنى منه أحد ـ بمنطق القرآن ـ.

وفي الآيتين (١٧ ـ ١٨) عَوْدٌ بذهن القارىء إلى ناقضي الميثاق من النصارى ولكنهما لا تُطلِقان الأسماء بل تركزان على المعتقدات.

فكُل قائل بأن المسيح هو الله أَوْ أَنَّ الله هو ثالث ثلاثة يكون كافراً.

٢ ـ في هذه المجموعة (١٣ ـ ٣٥) مواضيع متعددة متنوعة تتجاوز اليهود.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ففي الآيات من ٢٧ ـ ٣١ أنباء عن ابني آدم.

وفي الآيات من ٣٢ ـ ٣٤ تحديد للسبب الذي استوجب وضع أول قانون جزائي للبشر، وتحديد الجزاء على من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً.

٣ ـ أما خاتمة المجموعة أو الفصل ـ كما سماها المؤلف ـ فهي لم تورد «بني اسرائيل» نصّاً ولا معنى.

وقد كنا في موضوع «التشويش الأول» طفنا على الآيات من ٣٥ ـ ٤٠ فتبين أنها خطاب عام تضمن مجموعة من القيم والأحكام والمواعظ والتشريعات يفيد منها المجتمع كافة بمختلف طوائفه.

٤ ـ إن الآيات ٨٢ ـ ٨٦ التي تحدثت عن موَّدة الذين قالوا: «إنَّا نصارى» نزلت في مناسبة محددة فهي لا تحوِّل نصارى الأرض في كل زمان وكل مكان إلى أشد الناس مودة للنبي والذين آمنوا ولا تطلق الدموع من جميع المآقي التي يُقرَأ أمَامها القرآن مثلما فعل أصحاب النجاشي.

وقد ذكرنا في مناسبة حديثنا عن هذه الآيات أن المراد بها، هم النجاشي وصحبه كما روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسُّدِّي «أن القرآن لم يُرِدْ جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين» تفسير الرازي.

بل ذهب آخرون ـ كما جاء في الرازي ـ أن كفر المؤلهة والمثلثة هو أغلظ من كفر اليهود لأنهم ينازعون في الإلٰهيات في حين أن اليهود لا ينازعون إلا في النبوات.

٥ ـ والآية (١٤) آية إخبارية ابتدات بالحرف (من) الذي يفيد التبعيض ويفيد التجزيء فلا ينصرف الذهن إلى أن المقصود هم جميع النصارى بل البعض منهم هم الذين نسوا حظاً مما ذكروا به.

لأنه من المعلوم أن الإسلام استقبل الذين آمنوا من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ومشركي العرب. فهؤلاء جميعاً:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تخلوا عن هوياتهم الدينية وانتماءاتهم العقائدية بعد أن انتموا إلى الإسلام فما كان يقبل من أيٍّ منهم أن يكون مسلماً ثم يبقى محتفظاً بيهوديته أو نصرانيته أو مجوسيته أو وثنيته.

والوفد، سواء أكانوا جماعة النجاشي أم غيرهم، عندما قرئت عليهم الآيات من ٨٢ ـ ٨٦ لم يظلوا على نصرانيتهم بل آمنوا بالإسلام وهاجروا من انتمائهم الأول بدليل ما جاء على لسانهم في الآيتين (٨٣ و٨٤) **﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾** و **﴿ما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾** (٨٤).

فالأوصاف التي أطلقتها الآيات من ٨٥ ـ ٨٦ لا تنال من النصارى من ظل على الألوهة والتثليث والبنوة من الله بل هي من نصيب ذلك الصنف منهم الذي تحدثت عنه آيات القرآن في مناسبات عديدة:

﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله﴾ ٣/ ١٩٩ آل عمران.

﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾(٢٨/ ٥٣ القصص).

لذلك حددت الآية ٥/ ٨٥ من المائدة نوع الجزاء الذي نالوه على هذا الإيمان بقولها: **﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾** وهذا الثواب لا يناله غير المحسنين الذين عرفوا الحق فاتبعوه وانقادوا له حيث كان وأين كان.

الآيتان ١٩ و٧٥: يلخص المؤلف آراءه في آيات التكفير بقوله:

ـ كان التكفير لبدعة اليعقوبية وليس للمسيحية.

ـ إن تكرار التكفير دليل على الإقحام في القرآن.

أما نحن فلنا أن نضع رأينا في مواجهة آرائه كما يلي:

١ ـ لقد سبق أن استعرضنا في بحث «التشويش الثالث» جملة المراحل التي مرت فيها المسيحية والهرطقات التي كان يفرزها العقل المسيحي بين الحين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحين. فتتصدى لها المجامع المسكونية بالتصحيح حينا وبالطرد واللعن والملاحقة أحياناً. إلى أن استقرت استقراراً عقائدياً متفقا على أسسه وأركانه لدى كل من يتبع المسيح ويؤمن بالإنجيل.

وقد مرَّ معنا أن المذهب اليعقوبي هو مذهب الكنيسة القبطية الذي ابرزه مجمع أفسس الثاني. وأن يعقوب البرادعي تبناه وانتمى إليه، وكانت تسمية المذهب باسمه فيما بعد بسبب شخصيته الفذة وتأثيره الكبير وقوة حجته، حتى قيل إنه رسم ٨٩ أسقفا وآلافاً من الكهنة والقسس[١].

وهذا المذهب يتلخص في أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللّاهوت بالناسوت.

ولكن مجمع خلقيدونيا انعقد للبحث في هذا المذهب وأصدر قراره المعروف في شهر اكتوبر من عام ٤٥١م[٢].

ومن مقابلة مقررات «أفسس الثاني» و«خلقيدونيا» يتبين أن الخلاف بينهما، لم يكن على «ألوهية المسيح» بل على «طبيعته». فالبرادعي وجماعته ينطبق عليهم ما ينطبق على جماعة خلقيدونيا الذين يمثلون العقيدة المسيحية ـ كما يقول المؤلف ـ لأنهم يؤمنون بالألوهية من خلال طبيعتين للمسيح فيما اليعاقبة يؤمنون بها من خلال طبيعة واحدة.

وبذلك يكون التكفير القرآني شاملاً للفريقين ـ لأنه استهدف العقيدة ـ دون حصر أو استثناء.

٢ ـ وكنا في بحث «التشويش الثاني» استعرضنا آيتي التكفير رقم ١٧ ـ ١٨ وبينا أوجه الربط القرآني بينهما وبين ماسبقهما وما تلاهما، مما يَنْفِي عنهما شبهة الاقتحام.

---

(١) تاريخ الأمة القبطية.

(٢) أوردنا نص القرار في بحث التشويش الثالث.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ـ أما ورود التكفير «مكرراً» في الآيتين ٧٢ ـ ٧٣ فإن لنا فيه رأيا يخالف رأي المؤلف ويتلخص بالآتي:

بعد أن استقصى القرآن حديثه عن اليهود وأجمل آراءهم في الآية (٧١) **﴿وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصمّوا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصمّوا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾**.

افتتح مقالاً خاصّاً للحديث عن الكفر الذي وقع فيه أتباع المسيح وذلك بدءاً من الآية ٧٢ حتى ٧٧ ليبين أن الكفر لم يتجمَّد على اليهود بل زحف أيضاً حتى شمل النصَّارى الذين يؤلهون المسيح ويجعلونه مع الله شريكاً، لذلك يحضهم القرآن على التوبة والاستغفار (٧٤) ويوضح لهم أنه ليس إلاّ رسولاً قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة، كانا يأكلان الطعام (٧٥) فكيف يمكن التوجه بالعبادة إلى البشر؟.

ثم يختتم المقال بنهي يُطلقه بصوت عال **﴿قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضَلُّوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾** (٧٧).

٤ ـ وإذا قلنا: إن القرآن استقصى الكلام مع اليهود في الآية (٧١) فذلك لأن السورة امتدت بعدها على مدى خمسين آية تحدثت في مواضع شتى لم يرد فيها أي ذكر لبني إسرائيل تلميحاً أو تصريحاً إلا في الآية (٧٨) التي ذكرت كيف لُعنوا على لسان داوود وعيسى، وفي الآية (٨٢) التي وردت فيها المقابلة بين موقفهم العدائي الشديد من الذين آمنوا وبين الموقف الودود الذي وقفته النَّصارى.

الآية ١٨: وليست الآية ١٩ ـ كما قال المؤلف ـ فيها يستنكر القرآن على اليهود والنصَّارى ادعاءهم خصوصيَّة محبة الله بهم وبنوته لهم دون غيرهم من سائر خلقه. **﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فَلِمَ يعذبكُم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾** (٥/١٨).

قال المؤلف: اليهود وحدهم هم الذين يتبجحون بهذا الإدِّعاء وليس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النصارى، لذلك كان إدخال «والنصارى» إقحاماً قُصِد منه تسويتهم باليهود خلافاً وتجاوزاً على حقيقة التنزيل القرآني.

ولكن الواقع التاريخي يتعارض مع قول المؤلف:

أ ـ فاليهود تبجحوا بأنهم أحباء الله وشعبه المختار، ولم يَصِفوا أنفسهم بأنهم أبناؤه.

ب ـ في حين أن النصارى هم الذين قالوا إنهم أبناء الله، لِما رَوَوْا عن المسيح أنه قال: «أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم». ولما يكررون في كل يوم نداءهم إلى الله بالصلاة: أبانا الذي في السماء.

ج ـ أما اعتماد المؤلف على الآية ٥/ ٨١ للتنويه بأن الذين لُعِنوا على لسان داوود وعيسى هم بنو إسرائيل وليس النصارى ولا المسيحين، فهو اعتماد خاطىء.

ـ لأن الذين لعنوا على لسان داوود لم يكونوا كل اليهود بل الذين كفروا منهم وهم أصحاب السبت «أهل قرية أَيْلَة التي كانت حاضرة بحر القلزم» وقد ذكرتهم الآيات ٧/ ١٦٣ و١٦٤ و١٦٥ و١٦٦ من سورة الأعراف وتحدثت عن العقاب الذي وقع عليهم **﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** (٧/ ١٦٦) وذلك استجابة لدعاء داوود: **﴿اللهم العنهم واجعلهم آية﴾** فمسخوا قردة وخنازير (ابن كثير ـ والرازي).

ـ ولأن الذين لعنوا على لسان عيسى هم «أيضاً» الذين كفروا به من بني إسرائيل حيث تحدوا ربّه إن كان يستطيع أن ينزِّل لهم مائدة من السماء تكون عيداً لأوَّلهم وآخرهم فـ **﴿قال عيسى ابن مريم أللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون عيداً لأوّلنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾**(٥/ ١١٤). **﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بَعْدُ منكم فإني أعذِّبُه عَذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين﴾**(٥/ ١١٥).

وقد قال أكثر المفسرين: «إن رسالة عيسى بدأت خطواتها الأولى بين اليهود من بني إسرائيل. وإن عيسى نفسه قال: جئت من أجل خراف بني إسرائيل الضَّالة. فهؤلاء تحدوه بالمائدة. فلما نزلت وأكلوا منها ظل قسم منهم على الكفر فقال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عيسى اللهم العنهم كما لعنت أصْحاب السبت. (الرازي).

الآية ٥٤: نود الإشادة إلى خَطأٍ يتكرر باستمرار عند المؤلف، فهو دوماً يضع للآيات أرقاماً مختلفة عن أرقامها الحقيقية إذ يبتعد عن الرقم الحقيقي إما إلى الأمام وإما إلى الوراء لذلك وجب تنبيه قارئه إلى ضرورة التحقق بوساطة القرآن مباشرة.

هنا يقول: «والإقحام الأكبر بل الدس الأكبر على القرآن هو في آية الموالاة. **﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصّارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾(٥٤)**.

غير أن هذا النص هو نص الآية ٥١ ـ من سورة المائدة وليس الآية ٥٤ منها.

لذلك سوف نركز مناقشتنا لأقوال المؤلف انطلاقاً من الآية ٥١ ـ التي شكلت الإقحام الأكبر بل الدس الأكبر وكانت سبب البلاء التاريخي والإجرام الكبير في حق القرآن والمسيحيين مما شوّه صحة موقف القرآن من النصارى وخلق التناقض في أحكامه. (المؤلف ص ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٤).

غير أننا لا بد من تسجيل تحفظنا على عواطف المؤلف، وحرصه الشديد على القرآن الذي دوّن فيه ـ كما قال المؤلف ما ليس منه ـ بعد أن ثبت لنا من خلال الصحائف التي رافقناها في الكتاب أنه لم يتوخَّ الخبر الصادق ولا التفسير الصحيح ولا المناسبة الحقيقية ولا المعاني اللغوية بل كانت همومه تنتقل به من موقع إلى موقع ليتهجم منه على شخصيات تاريخية وقيم وثوابت أخلاقية وعقائدية ترسخت في وجدان أتباع القرآن وكان جُلُّ غاياته يتركز على جدران العقيدة الإسلامية لإحداث الخلخلة والشروخ والشكوك فيها وفي كتابها.

هذا التحفظ، اضطرتني إليه تلك الدموع التي تترقرق على صفحات كتاب المؤلف أَسَفاً وَحُزْناً على القرآن.

بعد ذلك أعود لأضع العلامات التصحيحية على تفسير المؤلف للآية ٥١ ـ من سورة المائدة.

فهو بعد أن حمَّلها وزرَ البلاءِ التاريخي والدسِّ الإجرامي عاد فبرَّأ القرآن ممَّا جاء فيها بحق النَّصارى وقادتها مع غيرها ثم قام بالتحليل والتركيب حتى أنتهى إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنها موضوعة مقحمة على القرآن، فهو يقول:

ـ بعضهم أولياء بعض: أي إن اليهود أولياء النصارى والنصارى أولياء اليهود.

وهذا ـ في رأيه ـ غير معقول.

ـ والنصارى هم الأحق بالموالاة مع المسلمين كما ذكر القرآن في الآية (٨٢).

ـ والموالاة محظورة على سبيل الحصر مع الجهات التي عددتها الآية (٥٧) وهي: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾**٥/ ٥٧).

فالذين استهزأوا بالدين واتخذوه هُزُواً ولعِباً هم اليهود فقط وهم الكفار الذين عنتهم الآية.

ـ والفصْل الممتد من الآية ٥٤ ـ ٨٩ كله تحذير من اليهود وحملة على من يوالونهم ولا يوجد فيه ما يخرج عن موضوعه غير آيات الجدال مع وفد نجران من ٧٥ ـ ٨٠.

تلك هي الأدلة التي ساقها المؤلف على الإقحام في الآية. ولنا عليها التصويبات التالية:

١ ـ «أولياء» هي جمع مفردُهُ «ولي» ولها في الشرع معنى وفي اللغة معان.

ـ فالولاية في الشرع حق الاشراف والرعاية من الأب ثم من يليه في «العصب» على نفس القاصر وماله.

ـ وفي اللغة تعني «المناصرة والمحاباة» ومنه الحديث الشريف « من تولاَّني فليتول عليا»[١] وقوله (ص) جواباً على أسامة عندما قال لعلي لست مولاي إنما مولاي رسول الله فقال النبي (ص) «من كنت مولاه فعلي مولاه»[٢]. وفي تفسير الآية: **﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم أن**

---

(١) لسان العرب.

(٢) لسان العرب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تولوهم﴾ (٦٠/٩: الممتحنة) أي تنصروهم.

والولاء يأتي بمعنى النسب ومنه الحديث «الولاء للكُبْر أي للأعلى فالأعلى»[1].

فالتولي في الآية يعني الاتباع وقبول الأوامر والإرشادات.

والمسلم الذي اتبع الإسلام ديناً، صار ولاؤه للإسلام لأنه صار من المسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم فلا يجوز أن ينقل ولاءه إلى اليهود أو النصارى لأنه بذلك يكون قد ربط نفسه بهم وأصبح منهم.

أما احتجاج المؤلف بأن الآية نفسها تنفي «منطقياً» أن تكون كلمة «النصارى» من أهل النص فهو احتجاج مغلوط، لأنه قام على فهم «خاطىء» لكلمات الآية، حيث توافر في ذهنه أن قصد الآية هو «تولي اليهود للنصارى وتولي النصارى لليهود» وهذا الفهم لا تستسيغه ألفاظ الآية لأن المقصود هو: «إن النصارى بعضهم أولياء بعض واليهود بعضهم أولياء بعض» وذلك بسبب الوحدة القائمة في العقيدة والرأي.

٢ ـ أماالآية ٥/ ٨٢ فهي آية المودة وليست آية الموالاة.

والفروق بين المفهومين أكثر من أن يغفلها المؤلف، وأوصاف أهلها ليست بالضرورة قائمة لدى كل نصراني في كل الأمكنة والأزمنة، لأنها نزلت بصدد حادثة خاصة. ووصفت مجموعة معينة، مررنا سابقاً على ذكرها، فهي لا تؤخذ قاعدة أبدية يتسم بها نصارى الأرض قاطبة.

٣ ـ والموالاة جاءت تصريحاً وتلميحاً متتابعة من الآية ٥١ ـ ٥٩ مما ينبغي معه استخراج معانيها وشروطها المتكاملة من الآيات جميعها:

ـ ففي الآية ٥١: نهي مطلق عن موالاة اليهود والنصّارى ماداموا يهوداً أو نصارى.

---

(١) لسان العرب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ وفي الآية ٥٢: يصف القرآن من يوالون هؤلاء خشية أن تصيبهم دائرة بأنهم ذوو قلوب مريضة.

ـ وفي الآيتين ٥٥ ـ ٥٦: تأكيد على أن الولاية لله ولرسوله وللذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

ـ وفي الآيتين ٥٧ ـ ٥٨: يحدد مواقيت استهزائهم بالمسلمين **﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾**(٥/ ٥٨).

ـ وفي الآية ٥٩ ـ تساؤل عن أسباب نقمة أهل الكتاب على المسلمين وهو تساؤل استنكاري ينطوي على التأنيب لأن نقمتهم لا تقوم على سبب إلا أن المسلمين آمنوا بالله وما أُنزل إليهم وما أُنزل من قبل.

وهو تساؤل يستنكر هذا الموقف المعادي لأنه لا يعتمد على سبب معقول وقد كان القرآن خلص من التحليل إلى أنَّ الحسد هو هذا العداء، ولا سبب سواه فقال في الآية ٢/ ١٠٩ البقرة: **﴿ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراًحسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾**.

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾(٢/ ١٣٥: البقرة).

لذلك لا يجوز تفسير آية الموالاة على أنها محْظُورة مع اليهود فقط، لأن تعبير «أهل الكتاب» في الآية هو لبيان الجنس كقوله **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾** وقوله: **﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزَّة فإن العزة لله جميعاً﴾**(٤/ ١٣٩: النساء). و**﴿يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبينا﴾**(٤/ ١٤٤: النساء).

ففي هذه الآيات جميعها: صراحة مطلقة في التحذير من الموالاة لغير الله ورسوله والمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة والصلاة والزكاة هما الركنان اللذان وضعتهما شريعة الإسلام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبذلك يخرج من هذا التَّعريف، اليهودي والنصراني، اللذان ظلاَّ على طقوسهما ولم يتَّبعا الإسلام.

٤ ـ أما قول المؤلف بأن الآيات من ٥٤ ـ ٨٩ تشكل فصلاً كاملاً مخصصاً للحملة على اليهُود ومن يوالونهم فلا يخرج عن هذا الموضوع غير آيات الجدال مع وفد نجران وهي الآيات من ٧٥ ـ ٨٠.

هو قول غير ملائم مع واقع الآيات:

ـ ففي الآية ٦٥: أنبَّ القرآن أهل الكتاب لأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل.

ـ وفي الآية ٦٧: نداء إلى الرسول كي يبلغ ما أنزل إليه والله يعصمه من الناس.

ـ والآية ٦٨: تأكيد على أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل.

ـ والآية ٦٩: طمأنة لِلَّذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر وعملوا الاعمال الصالحة، بأنه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

ـ وفي الآيات ٧٢ ـ ٧٧: تكفير لمن ألَّه المسيح وغالى في دينه غير الحق.

ـ وفي الآيات ٨٢ ـ ٨٦: مقارنة بين عداوة اليهود ومودة الذين آمنوا من النصارى.

ـ وفي الآيتين ٨٧ ـ ٨٨: دعوة إلى عدم تحريم الطيبات التي أحلَّها الله.

هنا لا بد من ذكر سبب المناسبة: وهو أن بعض المسلمين ممن بلغ إيمانهم درجاته القصوى، ظنوا أنهم بالترهب أو بإخصاء أنفسهم يستطيعون التفرغ إلى العبادة والتخلص من مغريات الدنيا وموبقاتها فنهاهم الرسول (ص) ونزلت هذه الآية لتذكيرهم بأن ما حلله الله لا يحرمه الإنسان.

* * *

تلك آيات الفصل، نود من القارىء أن يستعيد قراءتها في القرآن مباشرة ليتبين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدار الشطط والغلط في أحكام المؤلف ومقولاته.

إذ سوف يجد أنها لم تخصص للحديث عن اليهود بكاملها بل حتى القليل منها الذي تحدث عن الموالاة لم يتفرد باليهود بل أطلق أحكاماً عامة شملت أهل الكتاب جميعاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

المسيحية ضحية تعبير «أهل الكتاب» في القرآن

توطئة: «أهل الكتاب» تعبير يعني اليهود والنصارى والمسيحيين.

بحث أوّل: «أهل الكتاب» في القرآن المكّي.

بحث ثان: «أهل الكتاب» في القرآن المدني.

خاتمة: تعبير «أهل الكتاب» لا يقصد المسيحية الرسمية مطلقاً.

* * *

توطئة:

وضع المؤلف في التوطئة عنواناً يلخص خطته ورأيه في الفصل كله.

وهذا العنوان هو: «أهل الكتاب تعبير يعني اليهود والنصَّارى والمسيحيين».

وقال: «والمعروف: أن التعبير القرآني «أهل الكتاب» يشمل اليهود والنصارى ولكننا سوف نرى في استقراء الآيات التي ورد فيها هذا التعبير أنه لم يقصد المسيحية الرسمية على الإطلاق، ولذلك تكون النتيجة الحاسمة لهذا الواقع القرآني أن المسيحية تذهب ضحية تعبير «أهل الكتاب» في القرآن وفي تكفيراته لأهل الكتاب ص ٥٧ من المؤلف.

أما نحن: فلن نضع النتيجة قبل المقدمة مثلما فعل المؤلف. بل سوف نتعقب مقولاته حتى آخر هذا الفصل وبعدها نقول كلمتنا بإطمئنان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحث الأول

«أهل الكتاب» في القرآن المكي

قال المؤلف: «ورد تعبير أهل الكتاب ومترادفاته عشرين مرة في عشر سور مكية. وها نحن نستقرئها لنعرف معناها». . . . ثم قام باستقرائها وتحليل كلماتها ووضع بعد ذلك نتائج ما قام به.

لذلك سوف نتتبع استقراءاته ونستعيد تحليلاته لبيان أوجه الخطأ والتضليل فيها.

١ ـ قال: توجد في سورة المدثر آية مدنية تفسر آية مكية هي: ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون**﴾(٧٤/ ٣١).

ثم أوضح مفهومه من هذه الآية بالآتي:

«هنا يظهر أهل الكتاب والمسلمون في موقف واحد من التصديق بالقرآن وسنرى أنه موقف يعني النصَّارى» ص ٥٨.

فتفسير الآية عند المؤلف هو توحيد الموقف من القرآن بين النصارى والمسلمين، كلاهما مصدِّقٌ فيه مؤمن به، فأهل الكتاب هنا ـ باجتماعهم مع المسلمين على القرآن ـ هم النصَّارى حصراً.

أما نحن: فإن لنا قولاً على أقواله نلخصه بالآتي:

ـ إن سورة المدثر هي سورة مكية وآياتها دون استثناء نزلت في الزمن المكي، فكيف يقال في هذه السورة آية مدنية تفسر آية مكية؟ وأين الآية المدنية؟ مادام المؤلف لم يشر إلا إلى الآية (٣١)؟ من السورة؟ وهل هي المكية والمدنية في آن واحد؟.

لسنا على انتظار الجواب منه.

ـ المؤلف انفرد من بين المفسرين والقرَّاء بمقولته تلك. فلم يفهم أحد ممن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قرأ هذه الآية أو كتب فيها، أنها أوجدت توافقاً وتصادقاً في موقف المسلمين وأهل الكتاب من القرآن.

لقد نزلت الآية تعقيباً على عدد الزبانية التسعة عشر في الآية (٣٠) فقالت: إن الله جعلهم ملائكة دحضاً وردّاً لأبي جهل وشركائه من المشركين عندما استهزأوا من هذا العدد الذي لا يمكن أن تكون لديه استطاعة قيادة جهنم وتعذيب جميع أبنائها، وخاصة ما روي عن «أبي الأشد بن أسيدة بن كلدة الجمحي» الذي كان شديد البأس عندما قال: اكفوني منهم اثنين وأنا بالباقي. فأعلنت الآية أن هؤلاء ليسوا بشراً بل ملائكة، وقوتهم لا تقاس بها قوة البشر وقدرتهم. وعندئذٍ قال المسلمون: «ويحكم لا تقاس الملائكة بالحدادين، إشارة إلى أن أبا الأشد كان حداداً فذهب هذا القول مثلا بين الناس.

أما استيقان أهل الكتاب ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾: فلأن هذا العدد موجود في كتبهم، فإذا سمعوه من القرآن تيقنوا. وقيل: كذلك أتباع النبي المؤمنون عندما يسمعون منه هذا العدد دون تعليم أو مرجع آخر يؤمنون بأنه وحي من الله فيزدادون يقينا وإيماناً أما أهل الكتاب الذين يرجعون إلى حقيقة كتبهم فإن ارتيابهم بصحة الرسالة وصدقها يزول. (تفسير الرازي. وابن كثير ـ لهذه الآية).

هنا يدخل تعبير: «أهل الكتاب» في التعميم، ليشمل اليهود والنصارى، ويبتعد عن التخصيص بالنصارى، الذي دفعه المؤلف إليه.

٢ ـ وفي الأنعام دل المؤلف على آيات، ثم دلَّل بها كما يريد لها أن تكون لا كما هي كائنة بالفعل. وهي الآيات (٢٠، ٩٠، ١١٤، ١٥٦، ١٥٧).

لقد فسَّرها وأوَّلها ووظفها لمصلحة أغراضه ولم يجد من حاجة إلى الاستعانة بأي مرجع تفسيري أو لغوي أو تاريخي. بل اعتمد على ما في صدره من ذخائر اللُّغة والعلوم. مع ما في ذلك من اعتداد يرفُضُه منطق التأليف.

أ ـ **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعْرِفُون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾** (٦/ ٢٠).

قال المؤلف: «الضمير في «آتيناهم» و«يعرفونه» و«أبناءهم» يعود عودا واحداً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أهل الكتاب. فهذه المعرفة العميقة للكتاب يتفق عليها ويشترك بها المسلمون والنصارى، وهي دليل الوحدة المصدرية للمعرفة بينهما».

ولو أن المؤلف تتبَّع أسباب النزول، وقرأ الآية مع ما قبلها، لوقع على معناها الحقيقي. فقد نزل الأمر إلى النبي في الآية ١٩/٦ أن يقول ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة قُلِ الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ، أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إلَه واحد وإنني بريء مما تشركون**﴾.

وذلك عندما جاء رؤساء مكة إلى النبي وقالوا له يا محمد ما وجد الله غيرك رسولاً وما نرى أحداً يصدقك، وقد سألنا اليهود والنَّصارى فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم، فأرنا من يشهد لك بالنبوة. فأنزل الله هذه الآية قائلاً له قل: ﴿**أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد...**﴾.

ثم نزلت الآية (٢٠) استطراداً وتأكيداً عندما سُئِل بعضُ علماء اليهود والنصارى فأجابوا أنهم يعرفونه ويعرفون نُبُوَّته كما يعرفون أبناءهم.

وقد صحَّ في كتب التفسير والسيرة أن عمر (ر) سأل عبد الله بن سلام اليهودي الذي أسلم قائلاً: «أنزل الله هذه الآية على نبيه، فكيف هذه المعرفة؟» فقال: «يا عمر، لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني، ولأَنَا أشدُّ معرفةً بمحمد مني بابني لأني لا أدري ما صنع النساء، وأشهد أنه حق من الله». (اقتباس عن تفسير الرازي).

ب ـ ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة**﴾ (٨٩) ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾(٦/ ٩٠). فعلى النبي أن يقتدي بهدى أهل الكتاب والحكمة أي التوراة والإنجيل (ص ـ ٥٨ المؤلف).

هذان السطران بحرفيتهما أثبتناهما من قول المؤلف لكي نحاسبه عليهما.

ـ فلقد جمع «ضَغثا» من الآية (٨٩) وهو القسم الأول إلى «ضَغث» من الآية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٩٠) وقدمهما إلى القراء على أنهما يشكلان الآية ٩٠ من الأنعام[1] فأضاع بذلك معنى الآيتين.

وفي الحقيقة لا يستطيع قارىء القرآن أن يعرف عائدية الضمير في «آتيناهم» و«بهداهم اقتده» ما لم يرجع بالقراءة إلى الآيات السابقة بدْءاً من ٧٥ التي تشكل سرداً متواصلاً متكاملاً لموضوع واحد هو الآتي:

ـ لقد تحدث القرآن عما جرى لإبراهيم مع قومه وكيف توجَّه بالفطرة والإلهام الإلٰهي إلى من فطر السماوات والأرض حنيفا. (الآيات من ٧٥ ـ ٨٢).

ثم لخصَّت الآية (٨٣) نتيجة ما جرى بقولها: **﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾**.

ـ وبعدها من الآية ٨٤ وحتى ٨٨ سردت الآيات نِعمَ الله على إبراهيم إذ وهبه اسحق ويعقوب الذين رزقهما الله بالهداية. ونوحاً من قبلهم، منحه الله هدايته وأنعم عليه بذرية من الأنبياء وهم داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع.ويونس ولوط. حيث تنتهي الآية ٨٦ من تعدادهم وتقول **﴿وكلاً فضَّلنا على العالمين﴾** هؤلاء الذين اجتباهم الله وهداهم إلى صراطٍ مستقيم (٨٧).

بعد تعداد الأنبياء، والتأكيد على تفضيلهم على العالمين. أجملت الآية (٨٩) ماهية تفضيلهم وعلاماته بقولها: **﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكْفُرْ بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾**(٨٩).

ـ فأولئك إشارة إلى من سبق ذكرهم من الأنبياء.

ـ والكتاب يعني الكتب المنزلة، وقد يكون مقصودها «أن الله أعطاهم العلم الكثير».

ـ والحكم أي النفوذ والسلطان على النَّاس وتوجيههم.

---

(١) الضَّغث: هو التباس الشيء بعضه ببعض والضغث من الأمر ما كان مختلطاً. وضَغَثَ الحديث إذا خلطه: وسميت «أضغاث أحلام» لأنها مختلطة فدخل بعضُها في بعض.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ والنبوة، وهي الدرجة الرفيعة الثالثة التي يتفرع عنها حصول المرتبتين والعطيتين السابقتين.

ثم ختم هذه الآيات المتتالية المتكاملة المعاني بالآية (٩٠) التي جاءت بالأمر الإلهي إلى الرسول كي يقتدي بأولئك الأنبياء ويهتدي بهديهم: **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾**(٦/ ٩٠).

بعد هذا ألا نستطيع التساؤل: كيف قرأ المؤلف الآية (٩٠) على هذه الصورة؟ أليس من المثير أن يستغفلنا جميعاً فيُسبغُ معاني القرآن وأحكامه على من يشاء من عباد الله؟ وكيف أباح لنفسه أن يصادر الهداية من الأنبياء ليخلعها على النصارى؟ ثم كيف أحال المقصود من «الكتاب والحكمة في الآية ٨٩» إلى التوراة والإنجيل وهما أي هذان الكتابان متأخران جداً عن زمن الأنبياء الذين عددتهم الآية. و«الكتاب والحكمة فيها» من عطايا الله لأنبيائه الوارد ذكرهم؟.

تساءلنا هذه التساؤلات ثم عدنا إلى طبيعة المؤلف وغاية التأليف هذا فلم نجد جواباً غير أنَّ الغاية لديه تبرر له من الوسائط مالا يبرره العلم والحقيقة.

ج ـ **﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾** (٦/ ١١٤).

لقد عرض المؤلف هذه الآية وعرض أوجه الاستدلال بها كالآتي:

«فأهل الكتاب الذين يشهدون للقرآن هم النصارى وحدهم. ويختم بقوله ـ أي القرآن ـ **﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا، لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾**(١٥٦ ـ ١٥٧: الأنعام)».

فهاتان الطائفتان هما اليهود والنصارى من بني إسرائيل.

فلا يذكر القرآن المسيحيين بمكة على الإطلاق **﴿إنّ هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾** (٢٧/ ٧٦: النمل).

«وما اختلف بنو إسرائيل إلى يهود ونصارى إلا في المسيح. والقرآن ينتصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للنصارى من بني اسرائيل على اليهود بالدعوة لله والمسيح ـ (٦١/ ١٤) الانعام)».

تلك كانت أقوال الاستاذ الحداد بحرفيتها.

وهذه ملاحظاتنا عليها:

ـ وكعادته دوماً، اقتطع المؤلف ما يريده من الآية، وأهمل مالا يفيده.

فالآية ﴿أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذّي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً والذين آتيناهم الكتاب يعملون أنّه منزّل من ربّك بالحقّ فلا تكونن من الممترين﴾ (٦/ ١١٤ الأنعام) فقد حذف من أولها ومن آخرها ما لا يمكن فهم الآية من دونهما.

فالآية هي جزءٌ من سرد قرآني لمعاناة النبي مع الكفار والمعارضين الذين أقسموا أنهم سوف يؤمنون إن ظهرت لهم آية من النبي، ولكنَّ القرآن يُعلن عدم الثقة بايمانهم فتقول الآية ٦/ ١١١. ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبَلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ثم جاءت الآية ٦/ ١١٤ بصيغة الاستفهام الاستنكاري لتؤكد على أن النبي لا يبتغي حكما بينه وبينهم إلا الله، فهو الذي أنزل الكتاب (القرآن) على نبيه مفصلاً مشتملاً على العلوم والعقائد والشرائع. والذين أوتوا الكتاب من قبله (التوراة والإنجيل). يعلمون مما في كتبهم أنَّه القرآن منزل بالله والحق.

وقد أوردت الآية تعبير «الحكم» بدلاً من «الحاكم» للتفريق والدلالة على أن الحكم أكمل من الحاكم لأنه لا يحكم إلا بالحق لذلك تلتمس من عنده الشهادة وعنه يصدر القرار.

فأين هذه المضامين التي اكتشفها المفسرون في الآية ١١٤ من قول المؤلف «إنها تعني النَّصارى وحدهم الذين يشهدون للقرآن».

ـ أما الآيتان (٦/ ١٥٦ ـ ١٥٧) فما ندري سبب استدلال المؤلف بهما، وهما تعالجان موضوعاً مختلفاً لقد خوطب بهما أهل مكة كيلا يقولوا: «أنزل الكتاب من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبلنا على طائفتين[1] وقد غفلنا عن دراسته لاختلاف لغتنا. فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن بلغتهم».

ـ كما ربط المؤلف ربطاً غير محكم ولا حكيم بين الآيتين ٢٧/٧٦ النمل و ٦١/١٤ الصف. بقوله:

«فلا يذكر القرآن المكي «المسيحيين» على الإطلاق لأن ﴿**هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون**﴾ ٢٧/٧٦. وما اختلف بنو اسرائيل إلى يهود ونصارى إلاّ في المسيح. والقرآن ينتصر للنصّارى من بني إسرائيل على اليهود بالدعوة لله والمسيح. ٦١/١٤».

فالمؤلف يقرأ كما يشاء ويفسر كما يشاء ويتجاوز باستهانة واستهتار كل من كتب في القرآن والتفسير، لذلك تخرج أحكامه غير محكمة ونتائجه غير منتجة.

وهو لو عاد إلى سورة النمل وإلى سورة الصف، عوداً علمياً نزيهاً لما فاتته حقائق تنزيل آياتهما، وَلَمَا كان تورَّطَ في هذه النتائج الخاطئة.

ففي سورة النمل:

ـ ابتدأت بآيات ست، أعلنت إلى النبي أنه يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم.

ـ ثم تلتها آيات القصص والأخبار مبتدئة «بإذ» على أنها منصوبة بمضمر محذوف تقديره «اذكر» ﴿**إذ قال موسى لإهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون**﴾الآية: ٧.

ـ ولا تنتهي قصة موسى مع قومه ومع الوحي الذي كلمه حتى تبدأ قصة سليمان وملكه وكيف حشر الله له جنوده من الجن والإنس والطير، الآية ١٧، وقصة الهدهد وبلقيس ملكة اليمن ثم قصة صالح مع ثمود، الآية ٤٥، التي تستمر حتى الآية ٥٣، لتأتي قصة لوط التي تنتهي في الآية ٥٨.

ـ ثم تتفرغ الآيات من ٥٩ ـ ٦٦ وحتى ٧٥ للحديث عن ملكوت الله وملكه

---

(١) المراد بالكتاب من قبل: التوراة والإنجيل والمراد بالطائفتين: اليهود والنصارى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبدء الخلق ومعاده وتصريف شؤون المخلوقات. وعلم الله الذي أحاط بكل شيء. بعد ذلك تأتي الآية (٧٦) لتقول: ﴿**إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون**﴾.

أي: كان بنو اسرائيل يختلفون في رواياتهم عن الأنبياء، لعدم وجود مرجع يقيني ثابت موحد فجاء القرآن بالسرد الحقيقي والتاريخ الصحيح لهم، مزيلاً كل لبس وايهام.

وتأتي بعدها الآية (٧٧) لتقول عن القرآن ﴿**وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين**﴾.

تلك هي الأبعاد الحقيقية للآية (٧٦) من سورة النمل. ما كان يمكن إدراكها دون مقارنتها وقراءتها مع الآيات التي ترتبط بها.

ـ أما الآية ٦١/١٤: الصف. فليس بينها وبين الآية (٧٦) ارتباط، إن في الموضوع أم في المناسبة:

ـ لأن الآية (٧٦) جاءت خاتمة لقصص وحوادث وقعت قبل ظهور النصرانية.

ـ ولأن الآية (١٤) الصف تحدثت عن الحواريين الذين أعلنوا مناصرتهم للمسيح عندما قال للحواريين ﴿**من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين**﴾.

ـ وتأييد المؤمنين وإظهارهم على الكافرين، لم يتم على أيدي الحواريين وفي زمنهم بل في زمن تأخر أكثر من ثلاثة قرون وبالتحديد لم يكن الإظهار قائماً بمعناه الكامل إلا بعد أن أعلن الإمبراطور حمايته لهم وأوضح موقفه الحازم في مجمع نيقية بعام ٣٢٥ م.

ـ على أن ذلك كله تم قبل بعث الإسلام مما ينفي ما ذهب إليه المؤلف في قوله بأن الإسلام هو الإظهار النصراني على بني اسرائيل.

د ـ وقبل الانتهاء من هذه الفقرة نودُّ التنبيه إلى أن المؤلف استغْفَلَ قُرَّأءَهُ عندما قال إن الآيتين ٢٠ و ١١٤ من سورة الأنعام هما آيتان مكيتان مع أنهما مدنيتان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالإضافة إلى غيرهما مثل الآيات: ٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣) الجلالين ـ وابن كثير.

* * *

٣ ـ وفي سورة الأعراف اكتشف الأستاذ الحدَّاد أن القرآن خاطب اليهود والمشركين بالتعبير الإنجيلي الشهير عن الغني والفقير فقال في الآية ٧/ ٣٩[1] **﴿إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخِيَاط وكلذلك نجزي المجرمين﴾** ثم أردف قائلاً:

إن تخصيص اليهود والمشركين بهذا الخطاب، الذي هو إنجيلي في الأصل، دليل على أن الإنجيل هو مصدر القرآن ودليل على أن أهل القرآن هم النصارى وهم خارج عقاب المنع من دخول الجنة لأنهم ليسوا من الكافرين بآيات الله ولا المستكبرين عليها، ويؤيد هذا الاستثناء الآيتان: ٧/ ١٥٨ و ٧/ ١٦٨.

فالأولى نصت على أن النصارى هم الذين ورثوا الكتاب وأقاموا أحكامه، وأن الذين بدلوه وخالفوه هم اليهود.

والثانية نصت على أن النصارى هم الأمة التي تهدي بالحق وبه تعدل.

أما نقاشنا لأقوال المؤلف فيتلخص في الفقرات الآتية:

أ ـ اعتمد القرآن في عملية «الإيصال» على أساليب متعددة منها: «سرد القصص» و«الأمثال» وذلك لتمكين قواعد التهذيب في النفوس وتركيز القناعات الأخلاقية في الضمائر.

وقد اتخذ من اللغة العربية وعاءً للمعلومات وأداةً لإيصالها. كما استعاد الكثير من المشاهد والمواضيع والقصص والأمثال والمفردات المتداولة بين النَّاس منها مالَهُ أصل في زوايا الكتب السابقة الباقية، ومنها ما هو مبثوث في الثقافة العامة للمجتمع. والمتتبع المختص بالتاريخ والألسُنِيَّات يستطيع اكتشاف العديد من المفردات الآرامية والسريانية والفارسية وغيرها في القرآن.

---

(١) الآية: هي ٧/ ٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الظاهرة التي تلازم كل أثر ديني أو ثقافي، هي التعبير العملي عن الأصالة في تواريخ الشعوب حيث تجد في النصوص المتأخرة التفاتاً إلى الوراء على الدوام. ولكن هذا لا يحط من قيمة الجديد ولا يَصِمُهُ بالمحاكاة والتقليد.

ولقد حاول المستشرقون ـ ومازالوا ـ أن يفسروا هذه الظاهرة في القرآن، فأبرزوا وجوه الاستعارات ذات الأصول التوراتية أو الانجيلية مشفوعة بشروح تخفف من قوة الإبداع القرآني وتبجِّلُ التوراة والإنجيل بصفتهما النبع الذي تتحدَّر منه الجداول إلى القرآن.

ولكن هذه الطريقة هجرت بعد أن اعتمد العلماء طريقة الأصالة التراثية التي أثبتت أنه ما من نص إلا سبقته نصوص وأن الأجيال اللاحقة تنمو على جذور الأجيال السابقة في الأفكار والمعتقدات ولا تكون إلا بمعيار الفروق بين جذور الأشجار وسوقها وفروعها.

إذا قرأنا القرآن تحت ضوء هذا المنظور العلمي نجد فيه ظاهرة إرث واستيلاء على الخطاب الإجتماعي الذي كان سائداً في عصره، والذي يعود في أصوله إلى أبنية فكرية وعقائدية تداعت وآلت إلى التفتت، فأقام من تلك الأنقاض وفي مكانها بناءً جديداً يلبي حاجات المجتمع في العقيدة والسياسة والفكر والتشريع دون أن يهمل الملامح القديمة التي كانت قد حفرت لها أخاديد في ذاكرة الشعوب لذلك يرى قارىء القرآن عناصر ومتفرقات شتى من الكتب المقدسة وحكايات الشعوب والأمثال المأثورة البيئية، عُصرت جميعها وصُهرت حتى خرجت شيئاً آخر استطاع أن يكون إبداعاً خَاصّاً سما عن التقليد والمحاكاة.

وهذه السمة الذاتية أو هذه الخصوصية في القرآن هي التي رافقته مع الخلود، فتربع على كرسي الدهر، ولو كان اقتباساً أو تقليداً كما يريد المؤلف، لفقد أهميته، وخبا ضياؤه، وانزوى في كهوف المكتبات، وفي زوايا المساجد والتّكايا، وبَطَلَ أن يكون رفيق النّاس وجليسهم وأنيسهم في كل مكان وفي أي زمان.

ب ـ بعد هذه الإشارة العابرة، وعلى ضوئها صار تفسير الالتقاء بين بعض الكلمات في آيتين من القرآن والإنجيل سهلاً واضح القاعدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالآية الإنجيلية: ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله (٢٤) فتحيّر التلاميذ من كلام يسوع فقال: يا بني ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله (٢٥) مرور جمل من ثقب أبرة أيسر أن يدخل غني في ملكوت الله ـ مرقس الإصحاح ١٠ ـ.

والآية القرآنية: **﴿إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخِيَاط وكذلك نجزي المجرمين﴾** (٧/ ٤٠: الأعراف).

وإذ يقوم بين الآيتين وجه واحد للتشابه، فإن أوجها عديدة من الخلاف تقوم أيضاً.

أما وجه التشابه الوحيد فهو في الصورة المجازية التي شبّهتا بها «استحالة دخول أصحاب الأموال إلى الجنة باستحالة دخول الجمل في سم الخياط» (ثقب الإبرة) وهي صورة عبَّرت عن الاستحالة المطلقة. ولكن أوجه الخلاف المتعددة يمكن الدلالة على بعضها كالآتي:

ـ في عصر السيد المسيح كانت مفاسد المجتمع وشروره ومخازيه مصدرها الثراء الفاحش الذي كان يتمتع به الأمراء وقادة الجيوش، لذلك ركزت المسيحية على المال والثروة فحضت على نبذهما، وتنمية المناقبية الإنسانية وإحلالها في أسمى مواقع النفس. ومن يقرأ الإنجيل يلمس كيف كان المسيح يدعو قائلاً: «دعوا ما لقيصر لقيصر» و«مجاناً أخذتم مجانا اعطوا» «لا تقتنوا فضة ولا ذهباً» ويقول لمن سأله ماذا يفعل لكي يصير من أتباعه: «بع كل ما لديك ووزعه وتعال اتبعني» لذلك جاءت الآيات ٢٤ ـ ٢٥ من إنجيل مرقس معبرة تعبيراً حاسماً عن موقفه من الغنى والأغنياء وقاطعاً كل التقاء بينه وبينهم إن في هذه الدنيا أم في ملكوت الله.

أما في عهد النبي فلم يكن الثراء قد انحط بالذات الإنسانية إلى هذا الدرك. وكان الفقراء في حاجة إلى أموال الأغنياء، فكان الغني مقبولاً بين المؤمنين إذا حسن استخدامه للمال فالمؤمن الغني يستطيع أن ينال الكثير من الثواب إذا عرف كيف يتصدق على الفقراء ويؤتي الزكاة وينفق في سبيل الله. لذلك لم يكن في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسلام استحالة دخول الغني في الجنة بشكل مطلق. ولكن استحالة الدخول كانت محتمة على من يكذب بآيات الله ويستكبر عنها. ولا يعذب الغني في النار على غناه. ولكن يعذب إذا اكتنز الذهب والفضة دون أن ينفقها في سبيل الله: ﴿**والذين يكنزون الذَّهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾(٣٤ ـ ٣٥: التوبة).

ـ في عهد المسيح كانت طبقات المجتمع التي تضاربت مصالحها. مبنية على النظم الماليّة الفاسدة التي تترك الحرية أمام الغني حتى درجة الانفجار من الغنى، وتهمل الفقير حتى الانسحاق تحت سنابك الفقر.

أما في عهد النبي فإن تعدد العقائد، والعبادات، والتوزع على الأصنام، كان مصدر البلاء الأعظم الذي يعانيه المجتمع، ويحول بينه وبين إيجاد ذاته وجوداً كريماً.

فكان شعار المسيحية هو الكفاح ضد الغني.

وكان شعار الإسلام هو الكفاح ضد الكفر والشرك بالله.

ـ وعند المسيح نجد أن الاستحالة القائمة في وجه الغني هي بالدخول إلى ملكوت الله بالتحديد الذي سمي أيضاً الحياة الأبدية، وهما مفهومان معنويان ليس لهما تصوُّرٌ مادي لأن «ملكوت الله» يرد حينا مع كلمة «إنجيل» وحيناً مع كلمة «يسوع المسيح». فقد جاء في الإصحاح الرابع من انجيل متى «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعفٍ في الشعب».

وفي الإصحاح الأول من إنجيل مرقس «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.

أما حياة الأبدية، فقد تحدد معناها في الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا. «تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الأب قد أتت الساعة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجّد ابنك ليمجدك ابنك أيضا. إذا أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته».

وإذا كان هذا هو المفهوم الإنجيلي لملكوت الله فإن معاجم اللغة تعطينا مفهوماً لغويا يؤكد المعنوية فيه دون المادية. ففي لسان العرب: «ملكوت الله سلطانه وعظمته. والملكوت من الملك كالرهبوت من الرهبة. وقوله تعالى: ﴿فسبحان من بيده ملكوت كل شيء﴾ معناه تنزيهه عن أن يوصف بغير القدرة.

ولكن الجنة في القرآن هي وجودان خالدان، مادي ومعنوي، يحيا فيها الأبرار بأجسادهم حياةً في أقصى كمال الحاجات، ويسعدون سعادةً لا يكدرها مرض ولا شيخوخة ولا خوف ولا أذى ولا توقع موت. ففيها تلغى الأعمار ويزول الزمن وينتهي كل وقت، ويختفي كل محدَّد، وهي عند الله، عرضها كعرض السَّماوات والأرض وقد ورد ذكرها وصفاً وترغيباً وجزاءً ومآباً بالمفرد والمثنى والجمع في أكثر من مئتي آية من آيات القرآن.

فهي لذلك: تختلف اختلافاً شديداً متنوعا عن ملكوت الله في الإنجيل. وترفض: أن تكون قد استقت مصدرها من الإنجيل ـ كما زعم المؤلف ـ.

ج ـ أما قول المؤلف: إن الآية ٧/ ٤٠ توجهت إلى اليهود والمشركين بخطابها واستثنت النصَّارى لأنهم بمقتضى التعبيرين الإنجيلي والقرآني خارجون عن عقاب المنع من دخول الجنة. فهو قول لا يستطاع التماسه من الآيات القرآنية والإنجيلية على السواء. لأن كلا منهما حددت شرائط الدخول وموانعه دون التعرض للأشخاص والفئات، فصار بمقتضاها كل من توفرت فيه تلك الشروط من أهل الجنة، وكل من تخلفت عنه استحال ذلك عليه، نصرانيا كان أم مسلماً أم يهودياً أم من أي اتجاه دينيٍّ آخر.

* * *

٤ ـ أما قراءة المؤلف للآية ٤٠/٥٣ من سورة غافر، فقد كانت قراءة خاطئة أدت إلى فهم خاطىء. إذ قال: «إن القرآن لم يخاطب في مكة من أهل الكتاب إلا بني إسرائيل من يهود ونصارى».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ فالمؤلف كان في أكثر من مكان في كتابه صرح بوجود اليهود والمسيحيين في مكة إلى جانب المعارضة مع المشركين «كما قامت نظريته» على خلو مكة من اليهود، مما أجل الجدال القرآني معهم إلى الزمن المدني، حيث كانوا يتمركزون في الطائف ومن حولها.

وهذه النظرية ترددت في اكثر كتبه[1].

ـ والآية (٥٣) مرتبطة بالآيتين (٥١ ـ ٥٢) حيث جاء فيهما: إن الله ينصر رسله والذين آمنوا معهم. ثم أعطت الآية (٥٣) مثالاً على هذا النصر «في موسى» إذ آتاه الله الهدى وأورث بني إسرائيل الكتاب. فالهدى الذي أعطي إلى موسى هو تزويده بالمعجزات والدلائل القاهرة. وأما ميراث بني إسرائيل للكتاب فهو الإرث العلمي والكتابي الذي تركه الأنبياء السابقون.

ـ وبعد ذلك يتم هذا التسلسل الإخباري بالآية (٥٥) التي خاطبت النبي، ناصحة بالصبر وانتظار وعد الله، الحق الذي لا بد ناصره مثلما نصر سواه من الأنبياء **﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾** (٤٠/٥٥).

٥ ـ ويستمر خطأ المؤلف، وهو يقرأ ويفسر الآيتين ٤٥/١٦ ـ ١٨ من سورة الجاثية. **﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة﴾**. **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾**.

فقد فسر الكتاب بالتوراة.

وفسر الحكم بالحكمة والحكمة بالإنجيل.

وخرج من ذلك بنتيجة مفادها: «إن هذه الآية وجهت إلى اليهود والنصارى». وأن المقصود بتعبير «ثم جعلناك على شريعة من الأمر» هو «أمر إلى النبي محمد أن يتبع شريعة النصارى» لأن «النصارى هم الراسخون بالعلم» و«أولوا العلم»[2]

---

(١) أنظر القرآن دعوة نصرانية للمؤلف ص ٢٧٥ وما بعدها.

(٢) ص ٦٠ من المؤلف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتمثل أخطاء المؤلف في الآتي:

أ ـ لقد وردت كلمة «الحكمة» في عشرين آية من آيات القرآن.

«ثمان منها مقرونة بالكتاب، الكتاب والحكمة»، و«ثلاث مع الكتاب والتوراة والإنجيل»، و«واحدة مع الملك وآتاه الله الملك والحكمة»، و«ست مرات لوحدها» و«واحدة مع الموعظة الحسنة»، و«واحدة مع آيات الله وفصل الخطاب».

وفي جميع تلك الآيات لم ينصرف معناها إلى «الإنجيل» حتى لقد ورد تفسير معناها «بالسنة» في الآيات ١٢٩/٢ و١٥١ و٢٣١ و٢٦٩ من سورة البقرة وورد معناها «بالخشية من الله» في الحديث الشريف «رأس الحكمة مخافة الله».

وثمة تفريق قرآني واضح بين «الحكمة والإنجيل» وهو يقطع في الدلالة على أن كلاً من «التعبيرين» يعني مفهوماً مختلفا عن الآخر.

﴿**آتينا لقمان الحكمة**﴾(٣١/ ١٢) فلا يعقل أن يكون لقمان أوتي الإنجيل.

﴿**ولقد آتينا إبراهيم الكتاب والحكمة**﴾(١/ ٥١).

ففي الآية الأولى وفي الثانية: جاءت الحكمة بمعنى «العلم والفهم والقدرة على التعبير» وفي الحديث عن المسيح قال القرآن: ﴿**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾(٣/ ٤٨) فالعطف القائم بين هذه المسمَّيات الأربعة هو عطف مغايرة لا عطف مشاكلة، مما يدل على أن الإنجيل الذي أنزل على عيسى هو غير الحكمة التي علمه الله إياها.

ب ـ ولا يختلف تعبير «الحكم» في الآية ١٦/٤٥ الجاثية وفي سواها من الآيات التي ورد فيها وهي تزيد على عشرين آية. التمس المفسرون لها معاني مختلفة ولكنهم لم يجدوا معنى «الإنجيل» في أي منها فقد قال الرازي وابن كثير: قد تكون بمعنى «العلم والحكمة» وقد تكون بمعنى «العلم بالأحكام بين الناس» وقد تكون «علم أحكام الله ـ الفقه».

ج ـ أما خطاب الآية إلى النبي ﴿**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعها ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون**﴾(١٨/٤٥ : الجاثية).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإن المقصود هو: الشريعة التي أنزلت عليه، والتي أمر باتباعها وليس شريعة النصارى أو سواهم الذين وصفتهم تتمة الآية بأنهم «ذوو أهواء» وأنهم «لا يعلمون» وقد اكملت الآية (١٩) ما قبلها في التحذير من شرائع الغير بقولها: ﴿**إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين**﴾.

وكان القرآن قد حذّر النبي مثل هذا التحذير وبين له أن الشرائع التي نزلت على الأنبياء هي الواجبة الاتباع حتى تنسخ بشريعة أخرى، وأن لكل نبي شرعة شرعهاالله، لا يجوز له العدول عنها إلى سواها: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة**﴾(٥/ ٤٨: المائدة).

ذلك كله: أغفله المؤلف، وهو يتضمن الرد الكافي على أقواله في «الحكمة والحكم والشريعة» وفي تخصيص اليهود واستثناء النصارى.

٦ ـ قال المؤلف:

أ ـ إن «أهل الذكر» هم النصارى على وجه الحصر والتحديد في القرآن، وقد بلغت صراحة القرآن قمتها بالتخصيص في الآيتين(١٦/ ٤٣: النحل و ٢١/ ٧: الانبياء) وهما بلفظ واحد: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون...**﴾.

أما نحن: فقد استعرضنا جميع الآيات التي ورد فيها تعبير «أهل الذكر» وكلمة «الذكر» فلم نجد في أيٍّ منها تخصيصاً بالنصارى.

ـ ففي الآيات: (١٥/ ٦ ـ ٩ و١٦/ ٤٤ و٢٥/ ٢٩ و٣٦/ ١١ ـ ٦٩ و٣٨/ ١ ـ ٨ و٤١/ ٤١ و٤٣/ ٥ و٥٤/ ٢٢ ـ ٣٢) وردت كلمة الذكر للدلالة على القرآن (الرازي ـ وابن كثير).

ـ وفي الآيات (١٢/ ١٠٤ و٢٥/ ٨ و١٦/ ٤٣) وردت بمعنى الكتب الماضية.

ـ وفي الآية (٢١/ ١٠٥) وردت بمعنى التوراة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أما في الآيتين المعتمدتين من المؤلف:

ـ فالآية ١٦/ ٤٣ ـ النحل: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون**﴾ هنا توجه القرآن بالخطاب إلى الذين انكروا نبوة محمد، بداعيِّ أن الأنبياء لا ينبغي أن يكونوا إلا ملائكة. فقال لهم اسألوا أهل الكتب السابقة «الصحف والزبور والتوراة والإنجيل» عن طبيعة الرسل والأنبياء، فهم ينبئونكم ـ إن بقيتم على شكوككم ـ بأن الأنبياء كانوا رجالاً ولم يكونوا ملائكة.

ـ ولا تختلف الآية ٢١/ ٧: الأنبياء عن الآية (٤٣) نصّاً ومعنىً ودلالةً.

ـ وفي الآية ٢١/ ١٠٥ ـ الأنبياء برهان شديد على خطأ مقولة المؤلف: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثُها عبادي الصالحون**﴾.

فالزبور هو الكتاب الذي نزل على داود.

وقد أطلق القرآن تعبير الذكر على مانزل قبله أي قبل الزَّبور. وهذا يعني انصراف الدَّلالة على التوراة والصحف. من دون الإنجيل والنصَّارى لتأخرهم في الزمان.

ب ـ وقد أوردالمؤلف الآية (٩٤) من سورة يونس واستخرج منها شهادةً قرآنية على أن النبي ينتمي إلى عقيدة النصَّارى، وبالأخص إلى أستاذِه النصراني ورقة بن نوفل ص ٦٠ ـ المؤلف.

أما الآية فهي: ﴿**فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾(١٠/ ٩٤).

وفي تفسيرها اتفاق تام لم يشذ عنه غير المؤلف أبداً، وهو يتلخص:

ـ في أن الخطاب موجه إلى النبي.

ـ وأنه إن راوده تردد في مصدر ما أنزل إليه من الوحي القرآني فليسأل أهل الكتب السابقة الذين يجدون في كتبهم الآيات الدالة على صدق رسالته وصدق مصدرها، وبذلك يزداد يقيناً.

ولقد صحّ بالتواتر عن النبي (ص) أنه قال عند نزول هذه الآية «رب لا أشك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفيني ما أنزلته إلي من الدلائل الظاهرة».

ـ بل لقد توسع بعض المفسرين فقالوا: إن الله تعالى يعلم أن النبي لن يشك في ذلك وأنَّها نزلت لكي يصدر عنه هذا التصريح ومثال ذلك ونظيره قوله تعالى للملائكة: ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ (٣٤/ ٤٠: سبأ) ليصرحوا ما صرحوا به في الآية التي تليها (٤١) ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن﴾ ومثل قوله لعيسى ابن مريم: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾(٥/ ١١٦: المائدة) لكي يصرح عيسى بقوله متبرءاً من ذلك. (الرازي).

لهذا: ينبغي طرح أقوال المؤلف جانبا وعدم الأخذ بها بسبب تناقضها الصارخ مع جميع المراجع وبعدها السحيق عن معاني الكلمات.

٧ ـ قال المؤلف: القرآن هو دعوة للإيمان بالكتاب النصراني. لذلك كان اليهود «في شك منه مريب» ولذلك صرحت آياته بأنه هو «شرع موسى وعيسى» في كتابيهما، وأن مهمته هي العمل على توحيدهما في دين واحد.

كيف تيسَّر هذا الأكتشاف للمؤلف؟ هو يجيب: إنَّهما الآيتان ٤٢/ ١٣ ـ ١٥ من سورة الشورى. اللتان أوضحتا هذه الغايات الجليلة. مثلما أكدتا أيضاً على أن القرآن المكي لم يخاطب المسيحية مطلقاً.

أما الآيتان فهما: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾(١٣). ﴿وماتفرقوا إلاَّ من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لقُضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾(١٤) ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم أللّه يجمع بيننا وإليه المصير﴾(١٥).

وأما ما يستفاد من معانيهما فهو:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ تحدثت الآية: (١٣) عما شرعه الله ووصّى به الأنبياء بدءاً من نوح وهو أن يقيموا الدين وأن لايتفرقوا فيه. وأن دعوة التوحيد كانت دوماً «كبيرة» على المشركين ولكن الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

ـ والدين الواحد الذي تطابقت عليه الأنبياء هو الإيمان بالكليات ـ الثوابت ـ. (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر).

أما الشرائع والأحكام، أي التكاليف فإنّها ليست من المتطابقات، إذ جعل الله لكل من الأنبياء شرعةً ومنهاجاً يتلاءمان مع طبيعة الإنسان وتطوره في الزمان والمكان ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ (٥/ ٤٨: المائدة).

ـ فالدين الذي دعت إليه الآيات ليس ما تبقى بين يدي اليهود والنصارى من مخلفات القرون، بل ما هو ثابت تواتره عن الأنبياء جميعاً بدءا من نوح فيما يتعلق بالكليات.

ـ وأوامر القرآن إلى النبي هي في الثبات على ما أنزله الله إليه. والابتعاد عن أهواء الآخرين، ففي ذلك ضلالة عن الطريق التي رسمت له، وأن يقابل محاولاتهم بقوله: «آمنت بأي كتاب صحّ نزوله عن الله» وأن يدعوهم إلى التوحيد. فإن أبوا فهو مأمور بأن يعلن القطيعة العقائدية معهم ويقول: ﴿**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجّة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا(يوم القيامة) وإليه المصير**﴾.

هذه هي مجمل المعاني التي يمكن استخراجها من الآيات.

أما ما استخرجه المؤلف فلم يكن منها ولا يمت بصلة لها بل هو وليد الخيال والهوى والإرث العاطفي الذي ساهم في تكوين آرائه.

٨ ـ أورد المؤلف الآيات: ٣٥/ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ من سورة فاطر وقال: إنها تشكل فصلاً مستقلا لا يستقيم معناه إلا بدلالة الآية (٢٨) التي فيها ﴿**. . . كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور**﴾.

ثم تأسّف على أسلوب الذين فهموا كلمة «العلماء» هنا بالمعنى اللغوي، أو الذين ذهبوا بها إلى أمة محمد التي قالت الآية (٢٨) أنها اصطفيت من الله لميراث الكتاب: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالعلماء في رأي المؤلف. سواءٌ في الآية (٢٨) أم من سواها من الآيات هم النصارى ـ بالدليل القرآني ـ لأنهم «المقسطون» و «المحسنون» و«الذين يخشون الله» و«الذين أورثوا العلم» وهم الذين تكررت أوامر القرآن في أن يلجأ النبي إليهم لكي يتعلم منهم ما يشكل عليه ويسألهم ما يغيب عنه.

وأهل العلم النصَّارى، هم نقيض أهل العلم اليهود الظالمين وأول من كفر به. وأشد الناس عداوة للنبي والذين آمنوا.

هذا الطرح الخطير بصراحته، والصريح بخطورته. استوجب منا تقديم تحليل لآيات سورة فاطر كي نكتشف المقصود من «العلماء» وعما إذا كانت لَصِيقَةً بالنصَّارى أو جامدة على زمن، أم إنها مفهوم يتحرك على الدوام مع الإنسان على طريق التقدم والتطور.

أ ـ بدأت السورة بتوجيه الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة(١) ثم ذكَّرت بنعمة الله الذي خلق الخلائق وخلق رزقها من السماء والأرض (٣) فإن كُذِّبَ الرسول الذي يبلِّغ هذه الآيات فقد كُذِّبت من قبله الرسُلُ ووعد الله حق فلا يأخذ الناس الغرور(٤ ـ ٥) والله أرسل الرياح فأثارت السحاب وساقته إلى بلدٍ ميت فأحيا به الأرض بعد موتها فله العزة جميعاً وإليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعملُ الصالحُ يرفعُه (٩ ـ ١٠) وهو الذي خلق الناس من تراب ثم من نطفة ثم جعلهم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر معمر ولا ينقصى من عمره إلا في كتاب كان ذلك على الله يسير (١١) والبحار ليست على السواء. فهذا بحر خلقه الله عذب فرات وهذا ملح أجاج ومن كلٍّ خلق للناس لحماً طرياً وحلياً للزينة والله هو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو الذي سخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى (١٢ ـ ١٣) فيا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد(١٤) إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٥) هذه المجموعة الرائعة من الآيات. التي تحدثت في شتى المواضيع التي لها ارتباط بكينونة الإنسان وبقائه ونعم الله عليه. اختتمت بالآية النتيجة وهي فقر الإنسان وحاجته إلى الله في كل شيء، وجبروت الله وغناه عن كل شيء مرتبطة «بالفاء» التي تفيد «العطف التعقيبي» الذي يربط ما قبله بما بعده ربطاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محكماً يجعل من الأول بمنزلة المقدمة ومن الثاني نتيجة لازمة.

ب ـ ويبدأ بالآية (١٨) نسق جديد من الكلام، هو الحديث مع النبي عن خشية الله، والذي يستمر حتى الآية (٢٨) موضحاً أن الخشية تترافق مع العلم، فهي عميقة بمقداره، وضحلةٌ بمقداره، فما يستوي الأعمى والبصير (١٩) ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ولا الظل ولا الحرور(٢١) وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور (٢٢) إن أنت إلا نذير (٢٣) إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير (٢٤) وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزّبر وبالكتاب المنير (٢٥) ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير (٢٦) ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحُمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (٢٧) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنمَّا يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور(٢٨).

جاءت هذه الآيات متتابعة متكاملة، فالأولى منها وجهت النبي إلى إنذار من يخشون الذي تبوأوا من مراكز العلوم ما جعلهم يختلفون عن المتخلفين بمقدار ما يختلف الأعمى عن البصير والظُّلمات عن النور والظل عن الحرور والأحياء عن الأموات. فالعلم بالنسبة إليهم هو الحياة والجهل في سواهم بمنزلة الموت... فإن لم يسمعوك فإن ساكني القبور لا يسمعون، وإن كذبوك فقد كذب الذين قبلهم رسل الله وأعرضوا عن البينات والزبر والكتاب المنير.

ج ـ ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن عظمة الله وتفرده وجبروته، معيدة ذهن القارىء إلى الآيات الأولى من ١ ـ ١٧، متوجهة إلى النبي، مستخدمة صيغة التخصيص في خطابه، وهي في الوقت ذاته تخاطب كل ذي بصر وبصيرة، ليتفكر في خلق الله ومخلوقاته من جماد ونبات وحيوان وإنسان.

د ـ وبعد هذا التعداد لعظمة الله ونِعَمهِ، جاءت نهاية الآية (٢٨) لكي تختتم جميع الآيات وتشكل النتيجة المنتظرة لتلك المقدمة الواعدة.

فالخشية هي بمقدار معرفة «المختشي» والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعلم أعلى في الدرجة من العبادة لأن العلم مناط بالتقوى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(٤٩/ ١٣ : الحجرات).

والعالم يعرف أكثر من سواه أن الله عزيز ذو انتقام فمعرفته بتفرد الله بالعزة تخلق الخوف في نفسه، ومعرفته أن لا مغفرة إلا منه تخلق الرجاء لديه.

لذلك انتهت الآية بقولها: ﴿إن الله عزيز غفور﴾لأنّه لن يفقه معاني عزّة الله وغفرانه غير العلماء فكانوا بهذا أصحاب الخشية والاستغفار والرجاء.

٩ ـ وفي الآيات ٢٦/ ٢٧ ـ ٤٦ ـ ٤٨ ـ ٤٩ من سورة العنكبوت استخرج المؤلف موقف القرآن من أهل الكتاب في الزمن المكي. وهو موقف وصفه المؤلف بأنه «قول فصل» فقال: إن الله جعل «وراثة الكتاب» في ذرية إبراهيم دون غيرهم، وفي ذرية إسحق ويعقوب منْهم على سبيل الحصر والقصر.

ـ هؤلاء هم «أهل العلم» أتى القرآن على ذكرهم كفريقين.

الظالمون منهم وهم اليهود.

والمحسنون المقسطون المتقون وهم النصَّارى.

ـ والنصارى هم الذين آمنوا بالدعوة القرآنية لذلك أَوجب أن يكون الجدال معهم بالتي هي أحسن وأَمَر بالالتقاء والتسليم معهم بأن الله واحد والتنزيل واحد بينهم وبين جماعة محمد (ص ـ ٦٣ ـ ٦٤).

قبل أن نختبر مقولات المؤلف، ندّون الآيات التي اعتمدتها مقولاته تسهيلا على القارىء في تقصيه عن الحقيقة وعوناً له على محاسبة المؤلف.

﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجرٌ إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم(٢٦) ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (٢٧) ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلّهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون(٤٦) وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون(٤٧) وما كنت تتلو من قبله من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون (٤٨) بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون(٤٩)﴾ (العنكبوت).

* * *

وراثة الكتاب:

من الواضح أن المؤلف يركز على القرآن ليستخرج منه أحكامه، فهو لا يعتمد على سواه لأن مهمته محصورة فيه، إنه يسعى لاصطياد قناعة المسلمين قبل غيرهم، وفي ظنه أنهم كانوا منذ أن كانوا حتى الآن ضحية فهم خاطىء وتاريخ مزوَّر لنصوص القرآن ومناسباته، لذلك يتصدى لتصحيح ما تواطأ عليه المسلمون في فهم ميراث إبراهيم من الكتاب والدين.

يجزم المؤلف بأن الإرث الإبراهيمي انتقل منه مباشرة إلى ذرية إسحق ويعقوب.

ودليله القرآني طوع إشارته، إذ سرعان مايستدعي الآية (٢٦) ليقرأها بصوت مرتفع ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾.

وهو لو تبصر بالآية لأبصر فيها أكثر مما أعطى.

ـ فالحديث عن هبة الله لإبراهيم إسحق ويعقوب جاء مسبوقاً بحرف العطف (الواو) لكي يتحقق الارتباط والاستمرار مع ما سبق.

ـ وهو لم ينف وجود إسماعيل، لأن «هبة» إسحق كانت بعد أن اجتاز إبراهيم المحنة التي ورد الإخبار عنها في الآيتين ٢٤ و ٢٥ وكان إسماعيل فتى عند أبيه.

ـ والآية لم تقل أن الله جعل النبوة والكتاب في ذرية إسحق ويعقوب، إذ لوكانا هما المقصودين بذلك لوردت بصيغة المثنى «ذريتهما» ولكن ورودها بصيغة المفرد «ذريته» عاد بالضمير إلى إبراهيم، وامتدت كلمة الذرية لتشمل أبناء إبراهيم وذراريه، ومنهم الإبن الأكبر إسماعيل.

ـ وما دام المؤلف لا يتحرك إلا بين آيات القرآن وبالإستناد إليها فإن تفنيد أقواله وتشتيتها لن يكون إلاّ من آيات القرآن وبالاستناد إليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ففي الآية (٢٦) قال إبراهيم: ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾.

وفي الآية (٢٧) قال الله: ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فلم يرد فيها ذكر لإسماعيل لأنها نزلت في الاخبار عن مجيء إسحق الذي تَلا مجيء إسماعيل بسَنوات كما اتضح من تسلسل الأحداث في الآيات من ٩٩ ـ ١١٢ الصافات، التي بينت أن إسماعيل كان الذبيح ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ (٩٩) و﴿رب هب لي من الصالحين﴾ (١٠٠) ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ (١٠١) ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ (١٠٢) ﴿فلما أسلما وتَلّه للجبين﴾ (١٠٣) ﴿ونادنياه أن يا إبراهيم﴾ (١٠٤) ﴿قد صدّقت الرّؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ (١٠٥) ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ (١٠٧) ﴿سلام على إبراهيم﴾ (١٠٩) ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ (١١١) ﴿وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين﴾ (١١٢).

ضمن سياق هذا التسلسل يتبين أن اسماعيل هو الولد البكر، وهو الذبيحة التي نذرها إبراهيم على نفسه لأنه لم يبشر بإسحق إلابعد النذر والفداء، أي إن الشروع في وفاء النذر والذبح كان على ابن لإبراهيم غير إسحق، نظراً إلى أن إسحق لم يكن قد ولد بعد.

ولقد أجمعت الكتب السماوية وكتب التاريخ على أن إسماعيل هو ابن إبراهيم من هاجر، وأن هاجر كانت أَمَةً مصرية عند زوجته سارة فقدمتها إلى إبراهيم ليتزوجها عسى أن يرزق منها بعقِبٍ بعد أن يئست هي من الإنجاب بسبب عقمها وشيخوختها، فولد إسماعيل من هاجر، ولكن الغيرة بدأت تدب في صدر سارة عندما شاهدت إسماعيل يشب ويترعرع، وحينما بلغ الثالثة عشر من العمر وكانت سارة قد رزقت بإسحق فعزمت على إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها[1].

ولقد أوضح القرآن أن إسماعيل شارك أباه في بناء الكعبة.

---

(١) عندما طردت هاجر وابنها كان إسحق رضيعاً بين يدي أمه سارة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود﴾ (٢/ ١٢٥ : البقرة).

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة... ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك..﴾ (٢/ ١٢٧ و١٢٨ و١٢٩ البقرة).

وإسماعيل الذي هو بكر إبراهيم وأول ذريته كان من الأنبياء الذين تلقوا الوحي مبشرين ومنذرين ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾(٤/ ١٦٣ ـ ١٦٤ : النساء).

ففي الترتيب: ورد إسماعيل قبل إسحق.

وسواء أكان تقديمه للتمييز أم لفارق السن فإنه بكر ذرية إبراهيم ورفيقه في بناء الكعبة، وهو أول من اختتن فكان بذلك أوَّلَ من نُفِّذت فيه هذه السُّنة الإلٰهية التي تذكر بعهد الله[1].

وهو أحد الرسل الذين أوحى إليهم الله بعد إبراهيم.

ولكن المؤلف: أسقطه من الحساب نِهَائيا، فقد أغفله من الذرية وأهمله من الانتساب إلى إبراهيم.

وذلك خدمة للفكرة التي امتلأ بها، وهي أن الإرث النبوي المنحدر من إبراهيم حلَّ في اسحق وحده، باعتباره هو رأس الذرية ثم انحدر في أصلاب الأبناء والأحفاد حتى عيسى عليه السلام، وأن السماء ـ بعد عيسى ـ توقفت عن إرسال الرسل وإنزال الكتب.

وبذلك، يصل المؤلف إلى نهاية الشوط ليقرر النتيجة، وهي أن السماء لا

---

(١) أول من أختتن كان اسماعيل وهو بعمر ثلاث عشرة سنة حيث قام أبوه بختانه ثم ختن جميع الذكور من الخدم وكان عمر ابراهيم تجاوز التسعين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعرف شيئاً عن محمد (ص) ولا عن القرآن ولم تكن لها بهما أية علاقة.

ولو تقدم المؤلف بأفكاره على شكل آراء شخصية لقلنا: هذا شأنه فهو حرٌ في تفكيره وتعبيره. والقراء أحرار في القبول والرفض. ولكنه نسب فكره إلى القرآن، فكان من حق كل إنسان أن يتقصى ويتتبع الحقائق من مصادرها ليقول فيها كلمته.

أهل العلم:

هذا العنوان، بمضامينه وغاياته، أفرد المؤلف له الفقرة (٨) من هذا البحث فقدَّم آياتٍ من سورة فاطر مصراً بالاستناد إليها على أن القرآن كان على الدوام يحصر ويقصر الوصف «بالعلم والعلماء» و«أولي العلم» و«الذين أوتوا العلم» باليهودالظالمين وبالنصارى المحسنين المقسطين.

وكنا: فيما سبق من فقرات بيَّنا أوجه الخطأ في هذه المفاهيم.

وذلك بعد أن قمنا بتحليل الآيات التي اعتمد عليها وتحليل غيرها من آيات السورة، وقدمنا الأدلة على أن تقويم القرآن للعلم والعلماء يرتفع عن مستوى الانغلاق والالتصاق بفئة أو شعب أو زمان أو مكان أو كتاب أو دين لأن العلم ـ في رؤية القرآن ـ هو أفضل ما أنعم الله به على الإنسان وإن العلوم وإن كانت كلها شريفة وكريمة ـ في المبدأ والمطلق ـ إلا أن العلوم الإلٰهية التي تبحث عن سنن الكون والخلق والخالق والموجد والموجودات هي أشرفها وأكرمها وأن خشية الله تكون أعمق وأصدق في نفس العالم.

لذلك نكتفي بالإشارة إلى ما تقدم من الرأي والرأي المضاد ويبقى الحكم إلى القارىء.

غير أن تفسير المؤلف للآيتين ٤٢/ ١٤ الشورى و ٢٩/ ٤٩ العنكبوت، أوجب أن لا يَعْبُرَ دون تفتيش وتدقيق بسبب تركيزه على أنهما نزلتا في النصارى بالتخصيص.

فهما: لم تقدما دليلاً على أن مفهوم «الذين أوتوا العلم» هو الوصف الذي تخصصت به طائفة النصارى وتجردت منه جميع الطوائف الأخرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالآيتان: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ (٢٩/٤٨).

﴿وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾(٤٢/ ١٤).

ـ ففي الآية ٢٩/ ٤٩ ينصرف تعبير «الذين أوتوا العلم» إلى من حفظوا آيات القرآن البينات في صدورهم، لأن الضمير «هو» يعود إلى الكتاب الذي أنزله الله على النبي والذي كانت قد أفصحت عنه الآيتان السابقتان: ﴿وكذلك أنزلنا اليك الكتاب... (٤٧) ...وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك.... (٤٨) ...بل هو آيات بينات...(٤٩)﴾.

فالآية(٤٩) مؤكدة على أن القرآن هو آيات بينات في صدور الحفاظ والذين أوتوا العلم وهم الذين آمنوا به واتبعوه وهي نتيجة حتمية لتفسير الآيات متكاملة تبتعد كثيراً عن مقولة المؤلف.

ولقد تأكد هذا التفسير بما أورده صحيح مسلم عن النبي (ص): يقول الله تعالى «إني مبتليك ومبتلٍ بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظاً لأنه محفوظ في الصدور ميسَّر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظاً ومعنى.

ولذلك جاء في الكتب المتقدمة: «أنا جيل المسلمين محفوظة في صدورهم».

ـ أما الآية ٤٢/ ١٤ فإن الذين «أورثوا العلم من بعدهم» هم الأجيال التالية من اليهود والنصارى الذين وصفتهم الآية بقولها: ﴿لفي شك منه مريب﴾ أي من كتابهم وليس من القرآن، لأنهم لم يكونوا شاكين في القرآن بل كانوا رافضين له. فالضمير يعود إلى الكتاب الذي أورثوه مِمَّن كان قبلهم.

لذلك: يمكننا القول بأننا لم نر وجهاً للمقابلة بين الآيتين ١٤ و٤٨ كما رأى المؤلف في خاتمة الصحيفة ٦٤ من كتابه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحث الثاني

أهل الكتاب في القرآن المدني

قال المؤلف: ورد اسم أهل الكتاب في القرآن المدني مقروناً بالثناء حيناً ومقروناً بالتنديد والتكفير حيناً آخر. ومن الطبيعي أنه لم يقصد في كليهما فئة واحدة فكان لا بد من الاعتماد على القرائن لتحديد المقصد القرآني في كل آية (ص ٦٥ من المؤلف).

ويتابع: «أمَّا السُّور المدنية التي وَرَد فيها هذا التعبير فهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والحشر، والبينة، والحديد، والمائدة.

* * *

أولاً: في سورة البقرة:

دلَّ المؤلف على الآيات: ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٧ ـ ٤٩ ـ ٨٥ ـ ١٠١ ـ ١٠٥ ـ ١٠٩ ـ ١٢١ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٧٦ من هذه السورة وقال:

ورد تعبير «أهل الكتاب» و«مترادفاته» في هذه الآيات:

وفي جميعها: ـ يكون الخطاب متوجها إلى اليهود عندما يكون في الآية تكفيرٌ أو تنديد.

ـ ويكون متوجِّهاً إلى النصَّارى عندما يكون فيها الرضى والثناء.

أما المسيحيون فلا دخل لهم في هذه الآيات ولا في سورة البقرة كافة (ص ٦٥ ـ ٦٦ من المؤلف).

ونحن: قبل أن نقف عند كل آية وقوفاً مستقلا نقدم ملاحظات عامة على أقوال المؤلف بصورة عامة، هي الآتية:

أ ـ ما فتىء المؤلف يركز على الفروق العقائدية بين النصرانية والمسيحية، فهما في رأيه فئتان من أتباع المسيح آمنت به كل منهما إيماناً خاصاً بها يختلف عن الأخرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأن «النصَّرانيَّةَ» هي الإسلام الذي جاء ليدعو بدعوتها ويؤمن بإيمانها ويعتَقِدُ بمعتقداتها، وقد ذابت فيه ذوباناً مطلقاً فأصبح هو تعبيرها الديني.

أما المسيحية فلم تغير موقفها من المسيح والإسلام وهي على ما قامت عليه منذ العهود المسيحية الأولى حتى الوقت الحاضر.

ولكن هذا التفريق يرفضه التاريخ ويرفضه المنطق على السواء.

ـ أما في التاريخ فيكفي العودة إلى مجمع نيقية الذي انعقد في ٣٢٥ م. فقد أورد ابن البطريق في تاريخه ما قاله أساقفة المجمع الذين وضعوا قانون الإيمان النيقاوي أمام الامبراطور عندما وضع سيفه وخاتمه وقضيبه أمامهم وقال: سلطتكم على مملكتي لتصنعوا ما تشاؤون. فقالوا بصوت واحد: «أظهر دين النصرانية وذبَّ عنه». . . . «أظهر دين النصرانية» ولم يقولوا أظهر دين المسيحية. وما ذلك إلا لأن «النصرانية» تعبر عن المسيحية بالمعنى العام. . . وقولهم هذا ـ في مطلق الأحوال ـ يجب أن يحمل على عدم الفرق بين المفهومين وإلا كان ذلك ظهر من الأساقفة.

هذا مع التنويه بأن قانون الإيمان النيقاوي انعقد للرد على بدعة آريوس التي كانت تقول بوحدانية الله، وبِكَوْنِ الابن مخلوقاً غير أزلي وغير أبدي.

أي إن النصرانية ـ بالمعنى الذي ألصقه المؤلف بها ـ هي ذات جذور أريوسية. فلو كانت «النصرانية» غير المسيحية أو لو كانت المقولات الأريوسية هي النصرانية لجاء التفريق على لسان الأساقفة.

ـ أما من ناحية المنطق فإن التنديد بالنصارى والنصرانية صريح في آيات القرآن. وهذا يعني أنه استهدف عقيدة قائمة تتمثل في فئة بشرية لها وجود مادي وهي على معارضة ومواجهة مع الدين الإسلامي أوجب وبرَّر التَّنديد بها في القرآن.

وهذا الافتراض المنطقي والواقعي يتعارض مع قول المؤلف في قيام وحدة المعتقد بين النصرانية والإسلام وفي ذوبان النصرانية بالإسلام.

إذ لو كان ذلك صحيحاً في الواقع لكان التنديد القرآني هو عبثاً كلامياً لا يرمي إلى غاية ولا يستهدف أحداً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم كيف يندد القرآن بفئة تبنّته وآمنت به وانضمت إليه وذابت فيه؟.

ب ـ وتضطرب قواعد المنطق عندما يقول المؤلف:

إن الإسلام حمل عقائد النصرانية وتبناها ودعا بها وترجم إنجيلها إلى العربية فكان القرآن، لأنَّ الأمر لو كان صحيحاً لذاب الإسلام فيها ورفع اسمها واتخذ شعائرها وطقوسها. ولما كان العكس هو الذي تحقق.

إذ لا يعقل بمنطق الأمور أن تسود النصرانية عقيدةً وطقوسها وكتاباً ورسولاً. ثم ينطوي ذلك كله ويذوب وينتهي ويكون تابعاً لمن أخذ عنه كل ذلك.

ج ـ إن الذين أسلموا من أهل الكتاب يهوداً أم نصارى لم يُشِر إليهم القرآن بتعبير «أهل الكتاب» إلا مع الفارق عن سواهم، وهذا الفارق هو الإسلام أو الأيمان، فهم لا يردون في القرآن إلا ضمن الصيغ: «الذين آمنوا من أهل الكتاب» «الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به» أي بالقرآن.

أما تعبير «أهل الكتاب» مجرداً عن هذه الإشارة فقد ظل ملاحقاً لمن ظل على كتابه من اليهود والنصارى ورفض الإسلام والقرآن.

* * *

على ضوء ما تقدم نستطيع أن نضع ملاحظاتنا على ما استخلصه المؤلف من آيات سورة البقرة كالآتي:

١ ـ إن الآيات من ٤٠ ـ ٦١ تضمنت وصايا الله لليهود وتذكيرهم بالنعم التي أغدقها عليهم، فقد أخرجهم من أرض مصر ونجاهم من آل فرعون، ولكنهم قابلوا ذلك بالكفران واتخاذ العجل إلهاً، ثم تاب عليهم وغفر لهم ومع ذلك لم يلبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من كفرٍ وتردُّدٍ وتشكيكٍ وطرح المطاليب التعجيزية على موسى.

في هذه الآيات وردت كلمة الكتاب مرتين، مرة في الآية ٤٤ ومرة في الآية ٥٣ وفي كلتيهما لم يخطىء أحد بأن المقصود هو التوراة ولم ينصرف هذا القصد عند أحد إلى الإنجيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ أما هذا التعبير «أهل الكتاب» فقد أطلق على اليهود فيما تبقى من الآيات باستثناء إحدى عشرة آية، يجب الوقوف عندها لتحديد العائدية والمقصود.

الآية ٩١ **﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم﴾**.

فهذا القول يقع فيمن بقي على معارضته وكفره بالقرآن من اليهود الذين تمسكوا بالتوراة والنصارى الذين تمسكوا بالإنجيل.

الآية ١٠٥ **﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خيرٍ من ربكم﴾**... هنا التعبير جاء عاما من تابعي التوراة وتابعي الإنجيل الذين ظلوا على مواقفهم.

ـ الآيات ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ تضمنت تبادل الاتهام والتكفير بين اليهود والنصارى وهم يتلون التوراة والإنجيل، أي كل منهم يتلو كتابه.

ـ الآية ١٢١ **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾**.

فالكتاب هنا ـ باتفاق أكثر المفسرين ـ هو القرآن. والذين يتلونه هم المسلمون ومن يكفر به هم الرافضون له من اليهود والنصارى وسواهم.

ولا يستساغ أن ينصرف القصد إلى الذين آمنوا من النصَّارى فقط، لأن في اليهود فئة آمنت أيضاً وكذلك المسلمون وجميع هؤلاء يتلونه حق تلاوته. لذلك كان لابد من اتجاه القصد إلى كل من آمن به ويتلوه حق تلاوته دون تحديد ولا قصر على فئة.

ـ الآيتان ١٤٤ ـ ١٤٥ **﴿إن الذين أوتوا الكتاب﴾** في الآيتين هم: أحبار اليهود وعلماء النصارى، لأنهم في الأولى وصفوا بالعلم وفي الثانية وصفوا بالتشدد العقائدي. وهاتان الصفتان لاتتوافران إلا في العلماء وهم في العادة عدد قليل.

ـ وكذلك الآية ١٤٦ التي أضافت المعرفة إلى **﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾** وهم علماء اليهود والنصارى الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وذلك بدليل الآية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٥٧ من سورة الأعراف ﴿يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ والآية ٦ ـ من سورة الصف ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾.

ـ والآية ١٧٦ ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾.

فالاختلاف:

ـ إما في القرآن فيكون في «كونه حقّاً منزّلاً من الله» أم لا.

ـ وإما في التوراة والإنجيل فيكون في «التحريف وكتمان ما اشتمل عليه من البشارة بالنبي».

وفي الحالين: يكون الذين اختلفوا في الكتاب هم اليهود والنصارى.

هذه هي الآيات: التي ورد فيها تعبير «أهل الكتاب» و«مترادفاته» لم يخطىء أحد في فهمها غير المؤلف. وكل من يقرأ القرآن أو يتتبع كتب التفسير يرى أن كلا منها أخذت معناها من مناسبتها ووجه الخطاب فيها، لذلك: تغدو دعوة المؤلف إلى رفع الظلم القرآني عن غير اليهود دعوة في الهواء (ص ـ ٦٦).

* * *

ثانيا: في سورة آل عمران:

قال المؤلف: إن التعميم الذي يبدو للقارىء من ظاهر «تعبير أهل الكتاب» ينبغي أن لا يقيد الباحث الذي يلتمس الحقيقة التي تكمن في الغالب وراء المنظور، لذلك فهو ملزم بالاستقراء وتفحُّص القرائن ما قَرُبَ منها وما بَعُدُ. وإذ ذاك سوف يبدو لديه جليا:

أن أول خطوة على طريق الجناية التي ارتكبت في حق القرآن كانت في إقحام قصص آل عمران (٣٣ ـ ٦٤) على السورة التي عقدت بكاملها على الجدال مع اليهود مما أوهم الناس بأن تعبير «أهل الكتاب» في آياتها هو شامل للأمم الكتابية من يهود ونصارى ومسيحيين، مع أن القرآن صرَّحَ بغير ذلك في العديد من آياته حتى في السورة ذاتها وصف الأمة النصرانية بأنها الأمة المثالية (الآيتان ٣/ ١١٣ ـ ١٩٩) وكذلك عندما فصل فصلاً حاسماً بين النصارى واليهود من جهة وبين المسيحيين من جهة ثانية في الآية ٣/ ١١٠»، ص ٦٩ ـ ٧٠ من المؤلف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ ـ كنا ناقشنا مقولات الإقحام على آل عمران، ووضعنا تحليلاً للآيات المدَّعى إقحامها، وبيَّنا مدى ارتباطها وتكاملها مع ماسبقها وما تلاها مما يؤكد على أنها لم تكن دخيلة على السورة ولا ممكنة الاستقلال عنها وذلك في الموضوع: (ثانيا ـ الاقحام في سورة آل عمران) وقد تتبعنا آنذاك مواضيع السورة بكاملها بدءاً من بدئها وحتى آخر آية منها. واستعنا على فهمها بالمدلول اللغوي الموثوق، والتفسير الذي رصد المناسبات رصداً حكيماً مسنداً، فتبين بعد تلك الجولة، أن جدال القرآن مع اليهود لم يستغرق كامل السورة، ولا أكثر من اليسير منها، أما ما تبقى فهو المواضيع المتعددة حول العقائد والشرائع وحوار الآخرين.

ب ـ و «أهل العلم» و «الراسخون في العلم» و«أولوا العلم قائماً بالقسط».

يقول المؤلف: هي تعابير مرادفة لتعبير «أهل الكتاب» ومؤدية إليه.

وهؤلاء فريقان في نظر القرآن: الظالمون بِعِلْمِهِمْ وهم اليهود، والمقسطون بعلمهم وهم النصارى من بني إسرائيل، ومن تنصر معهم من العرب مثل ورقة بن نوفل. لذلك ينصرف كل إعلان في القرآن عن إيمان أهل الكتاب إلى هؤلاء النصارى، وكل تكفير لأهل الكتاب يعني اليهود وحدهم.

أما المسيحيون فلا يتطرق الكتاب إليهم. وقد بدا ذلك بوضوح في الآيتين ٣/ ١٨ ـ ١٩ (ص ـ ٦٧ ـ ٦٨ من كتاب المؤلف).

كان المؤلف في مقدمة هذه الفقرة «ثانياً» توَّضح كثيراً من التعميم في فهم «أهل الكتاب» وأوجب على كل باحث أن يلتمس الحقيقة فيما وراء الظاهر.

ولكن هنا اتبع عكس خَطِّه، فاستخدم التعميم في حكمه.

ـ فهو يرى أن كل إيمان منسوب إلى أهل الكتاب يعني النصارى (هنا تخصيص الإيمان بهم وتعميم الكفر على سواهم).

ـ ويرى أن كل كفرٍ منسوب إلى أهل الكتاب يعني اليهود (هنا تخصيص الكفر بهم وتعميم الإيمان على سواهم).

ـ ويرى أن المسيحية لم يجادلها القرآن لأنه لم يكن معنياً بها ولا معنية به(هنا تعميم غير مقيد) ولقد كنا في الفقرة (٩) من البحث الأول ومن خلال دراستنا لآيات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سورة العنكبوت أفردنا عنواناً «لأهل العلم» تعرضنا فيه إلى الرؤية الخاطئة التي يعانيها المؤلف.

ـ فلا تعبير «المقسطين» محصورٌ بالنصارى من بني إسرائيل.

ـ ولا تعبير «الظالمين» محصورٌ باليهود.

وكل من التعبيرين لا يطلق ولا يلصق إلا إذا توفرت مقوماته وأسبابه ولم يحل أي حائل دون إلحاقه بمن يستحقه.

﴿قل أمر ربي بالقسط﴾(٧/ ٢٩) و**﴿ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾**(١١/ ٨٥) و**﴿أقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسِرُوا الميزان﴾**(٥٥/ ٩) و**﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾**(٤٩/ ٩) و**﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾**(٥/ ٤٢).

فالقسط: هو الحق والعدل، وهو ليس مقصوراً على النصارى أو غيرهم.

وكذلك الظلم: هو البعد عن الحق في القول أو في العمل. وتلك صفة قد يتوافر وجودها في غير اليهودي أيضاً، وقد جاءت في القرآن منسوبة إلى فئات وأشخاص دون تحديد فئوي أو طائفي **﴿إني إريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾**(٥/ ٢٩) **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كَذِباً وكذَّب بآياته إنه لا يفلح الظالمون﴾**(٦/ ٢١).

ج ـ ولقد عكف المؤلف على المقارنة بين الآيات ليستخرج الخصوص من العموم والعموم من الخصوص كي يصل بالقارىء إلى أنه عندما تقع عيناه في القرآن على تعبير «أولي العلم» أو «أهل الكتاب» أو «الذين أوتوا الكتاب» فلا يتردد ولا يخالجه شك في أن المقصود هم النصارى.

كما أن اليهود هم المقصودون بتعابير الظلم والظالمين.

أما الآيات التي اعتمد عليها وقارَنَ فيما بينها لاستخراج هذا الحكم القرآني فهي:

ـ الآيتان ٣/ ١٨ ـ ١٩ ـ آل عمران.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ الآيات ٣/ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٣ ـ آل عمران.

ـ الآيات ٣/ ٦٥ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ آل عمران.

ـ الآيات ٣/ ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠ ـ آل عمران.

ـ الآيتان ٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ آل عمران[1].

وإننا في هذه الفقرة: سوف نتتبع تلك المقارنات متخذين من تقسيماته مساراً متشابها:

١ ـ الآيتان ـ ٣/١٨ ـ ١٩:

كل من الآيتين قرَّرت حكم القرآن في موضوع معين، وكل من الحكمين لا يقترب ولا يلتقي مع مقولة المؤلف:

ـ ففي الآية (١٨) شهادة بأن لا إلّه إلا الله صادرة عن الله والملائكة وأولي العلم. هنا: أولوا العلم كافة دون انحصار ولا استثناء، وفي ذلك تعظيم للعلماء إذ قرن شهادتهم بشهادة الله والملائكة.

٢ ـ الآيات ٣/ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٣:

﴿فإن حَاجُّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعنِ وقل للذين أوتوا الكتاب والأُميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد(٢٠) إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط.. (٢١) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون (٢٣)﴾

قال المؤلف: إن الآية (٢٠) لم تحدد المقصود «بأهل الكتاب» مما أوهم بأن الخطاب موجه إلى أهل الكتاب عامة لذلك بادرت الآيتان ٢١ و ٢٣ إلى إبعاد الوهم والإشارة إلى أن اليهود هم المقصودون.

---

(١) الآيات موضوع المقارنة من سورة واحدة، ولكن المؤلف درسها منفردة ضمن خمس فقرات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ فهم من أهل الكتاب الذين قتلوا ويقتلون النبيين.

ـ وهم الذين يُدْعَوْن إلى كتاب الله ثم يتولون عنه وهم معرضون.

ولكن قول المؤلف عدا عن أنه غير مدعومٍ بأيِّ مرجعٍ يخالف جميع من قرأ القرآن.

فقد اتفقوا:

ـ على آن آيات الله الواردة في الآية (٢١) مقصودٌ بها آيات القرآن.

ـ وأن الذين كفروا بها ويكفرون هم جميع الذين عارضوها ويعارضون.

أما الذين يقتلون النبيين فهم اليهود في السابق وكل من يأتي ويقوم بقتل النبيين، والآمرين بالقسط.

ـ وأن الذين أُوتوا نصيبا من الكتاب واحتكموا إلى النبي ليحكم بينهم بكتاب الله ثم تولوا فهم قومٌ من اليهود ـ وليس الجميع ـ نزلت هذه الآية فيهم لمعالجة حالة خاصة وهي: إن هؤلاء جاؤوا إلى النبي ليجدوا عنده رُخْصَةً في ترك الرجم للمُتزانيين فحكم الرسول بالرَّجم فأنكروا عليه ذلك، فطلب النبيُّ منهم أن يجلبوا التوراة ويرجعوا إليها في حدِّ الزنى.

* * *

٣ ـ الآيات ٣/٦٥ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣:

لقد ظهر الارتباك على المؤلف وهو يقرأ الآية(٦٥)، فها هي تخاطب أهل الكتاب كافة مندِّدة في احتجاجهم بإبراهيم وادعائهم أن التوراة والإنجيل هما دين إبراهيم وشرعه: **﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾**.

ثم ازداد ارتباكه وهو يقرأ الآيتين ٦٦ و٦٧.

فالأولى نفت أن يكون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والثانية أكدَّت على أن النبي والذين آمنوا معه هم أولى بإبراهيم من اليهود والنصارى. لقد وجد المؤلف في هذه الآيات ما ينفي تفسيراته ومقولاته فأكبَّ عليها محاوِلاً تفتيت مضامينها وتحويرَ معانيها عن طريق مقابلتها بالآيات (٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣).

ولكن محاولته اعترضتها الموانع الآتية:

ـ إن الفكرة التي أُفرغت في الآيات من ٦٥ ـ ٦٨ تكاملت واستقرَّت معانيها واستقلت بتمام هذه الآية، لينتقل بعدها الخطاب القرآني إلى أفكار جديدة.

ـ فكانت الآية (٦٩) من أجل مناسبة خاصة لذلك سبقت بحرف «من» ليفيد التبعيض والتجزئة: ﴿**ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم**﴾ فقد نزلت في جماعة من اليهود تمنوّا إضْلاَلَ «معاذ بن جبل» «وعمار بن ياسر» عن دينهما وقد صار استخدام فعل «ودَّ» والحرف «لو» للدلالة بهما على الرغبة والتمني.

ـ ثم جاء تحديد هوية «أهل الكتاب» في الآية (٧٠): ﴿**يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون**﴾ فدلَّت على أنهم فئات من اليهود والنصارى التي تشهد بأنّ آيات القرآن هي آيات معجزات، ولكنها تظل على كفرانها بها ومعارضتها لها.

ـ ومثل الآية (٧٠) وصفت الآية (٧١) تلك الفئات بأنها تُلْبِسُ الحقَّ بالباطل وتكتم الحق وهي على تمام العلم به.

ـ وفي الآية (٧٢) ورد الإخبار عن بعض أهل الكتاب من اليهود والنصَّارى الذين كانوا يتظاهرون بالإيمان أمام المسلمين حتى اذا خَلَوْا إلى أنفسهم عادُوا إلى الكفر وعاد الكفر إليهم. وهنا وَرَد الخطابُ بصيغة التجزئة «طائفةٌ من أهل الكتاب»

ـ وكذلك القسم الأول من الآية ٧٣ ـ ﴿**ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم**﴾ فقد اتفق المفسرون على أنه تتمة للآيتين السَّابقتين.

* * *

ومن ذلك يتضح أن صراحة الآيات وقطعيتها لا ينال منها استنتاج المؤلف من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآيات الأخرى وإن القرائن التي استخرجها لا تنسجم مع مضامين النص ولا تتفق مع غاياته.

* * *

٤ ـ الآيات: ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠١:

وفي الآيتين (٩٨ و٩٩) ـ كما قال المؤلف ـ تعميم، ولكن الآية (١٠٠) تبادر فتقيِّدُه وتردُّهُ إلى التخصيص باليهودية (ص ـ ٦٩ ـ من المؤلف).

﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله...(٩٨) قل ياأهل الكتاب لم تصدُّون عن سبيل الله...(٩٩) يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين..(١٠٠) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم (١٠١)﴾.

إن التعميم في الآيتين (٩٨ و ٩٩) لا يتناقض مع التخصيص في الآيتين (١٠٠ ـ ١٠١).

ففي الآيتين ٩٨ و ٩٩ تحذير عام لأهل الكتاب من الكفر بآيات الله ومن إضلال الكافرين لهم. وفي الآية (١٠٠) تحذير للمؤمنين من أن يقعوا في إضلال هذا الفريق المضلّل من اهل الكتاب، ثم تأتي الآية (١٠١) بصيغة التعجب الاستفهامي (وكيف تكفرون؟) وهي صيغة يراد بها المنع والتغليظ لأنَّ صدور الكفر عنهم غير ممكن الحصول مادامت تتلى عليهم آيات الله وبينَهُمْ رسُولَهُ (ص) الَّذي يُزِيلُ وُجُودُه كلَّ شُبْهَةٍ وَيُقَرِّرُ كلَّ حُجَّةٍ.

٥ ـ الآيات ١٨٦ ـ ١٨٧ من آل عمران و١ ـ من البينة و٨٥ من المائدة:

وكذلك يقول المؤلف: إن صيغة العموم في الآيتين ١٨٦ ـ ١٨٧ التي تشير إلى أهل الكتاب كافَّة تحددها وتُوضِّحها صِيغَةُ الآيتين (١ ـ البينة) و (٨٥ ـ المائدة) ص ٦٩ ـ من المؤلف.

ـ في الآية ١٨٦ خطابٌ مُوجَّهٌ إلى الرَّسُول والمؤمنين يخبرهم عما ينتظرهم من المواجهة والاضطهاد والأذى من الذين أوتوا الكتاب والمشركين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ وفي الآية ١٨٧ ـ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ألاَّ ينبذُوه ولا يكتموه.

وقال: مال البعض إلى توسيع مساحة العموم في الآية الثانية ليشمل الجميع حتى المسلمين، لأنهم أيضاً من حملة الكتاب الذين أخذ الله منهم الميثاق بألايكتموه. ويروون في صحة هذا الرأي حادثة وقَعَتْ لِلْحَسَن عندما سأله الوالي ما الذي بلغني عنك فقال ما كلُّ الذي بلغك عني قلته ولا كلُّ ما قلته بلغك عني: قال: أنت قلت إن النفاق كان مقموعاً فاصْبَح قد تعمَّم وتقلَّد سيفاً؟ قال نعم. قال ما الذي حملك على هذا ونحن نكرهه؟ قال: لأنَّ الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه.

وقال قتادة: مَثَلُ عِلْمٍ لا يُقال كَمَثَلِ كَنْزٍ لا يُنْفَقُ منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب.

وروي عن علي (ع) ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتَّى أخذ على أهل العلم أن يُعلِّموا.

ـ أما الآية (١) من سورة البيِّنة فإن موضوعها يختلف عن موضوع الآيتين ١٨٦ ـ ١٨٧ . وليس من مقاصدها تخصيص العموم الوارد فيهما أو تحديده.

فهما إذ تتحدثان عن الأذى المنتظر وقُوعُهُ على المسلمين من قبل «الذين أوتوا الكتاب ومن الذين أشركوا، تتحدث الآية (١) من البينة عن «الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أنهم لن ينفكُّوا حتى تأتيهم البينة أما البينة فهي الرسول الذي يتلو صُحفاً مطهرة (٢) فيها كتبٌ قيمة(٣) وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة(٤).

قيل: وكيف صحَّ أنهم سوف يضلّون حتى تأتيهم البينة؟ أي إن انفكاكهم عن الكفر حاصل بمجيء البينة التي هي النبي محمد (ص)؟.

قالوا: إن أهل الكتاب من يهود ونصارى وكذلك المشركين كانوا يقولون قبل البعثة لن ننفك عما نحن عليه حتى يأتي النبي الموعود المكتوب في التوراة والإنجيل، فلما جاء لم ينفكوا بل ازدادوا تصلبا وامتناعاً (الرازي).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أما الآية ٨٥ ـ من سورة المائدة، فلا علاقة لها بالموضوع الذي طرحه المؤلف.

بل هي وصف للثواب الذي لقيه النصارى، الذين فاضت عيونهم من الدمع عندما تليت عليهم سورة مريم وهم ـ في الأسناد الراجح ـ النجاشي وصحبه، كما مرَّ معنا.

ثالثاً: في سورة النساء:

أورد المؤلف مجموعتين من آيات هذه السورة وقال: إن كلاًّ منهما عالجت موضوعاً معيناً مستقلاً.

ـ فالمجموعة الأولى التي تكونت من تلازم الآيات (٤/ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦) خاطبت أهل الكتاب بصيغة العموم مع أنها تقصد منهم اليهود بالتخصيص مما خلق شبهة في شمول الصيغة لأهل الكتاب كافة من يهود ونصارى.

ـ وفي الآيات (٤/ ٥٠ ـ ٥٣ ـ ٥٤) وردت صيغة «الذين أوتوا الكتاب» في الآية (٥٠) مما أوهم أنها شاملة لجميع أهل الكتاب، فبادرت الآيتان ٥٣ ـ ٥٤ إلى إزالة الوهم والتوضيح بأن خطاب الآية (٥٠) مخصوص به آل إبراهيم الذين أوتوا الكتاب والحكمة، أي التوراة والإنجيل.

ـ غير أن مضامين الآيات، في المجموعتين لا يلتقي مع حاجات المؤلف وأطروحاته.

أ ـ فالآيتان (٤/ ٤٤ ـ ٤٥) لا تُقْرآن مستقلتين عما قبلهما وخاصة الآية (٤٣) لأن الآيات الثلاث تتكامل وتلتقي حول موضوع واحد.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكَارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جُنُباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم الغائط أو لامستم النساء فلَمْ تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيبا فامسَحوا بُوجُوهكم وأيديكم إن الله كان عَفُوّا غفورا(٤٣) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤) والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً(٤٥)﴾.

ـ ففي الآية (٤٣) بيان عن أحكام الطهارة والتحذير من السكرعند الصلاة.

ـ وفي الآيتين (٤٤ ـ ٤٥) بيان عن أن الذين «أوتوا نصيباً من الكتاب» اشتروا الضلالة وأرادوُا أن يُضِلُّوا المؤمنين عن الفروض المفروضة والواجبات المكتوبة والله هو الأعلم بأعداء المسلمين وكفى به وليًّا ونصيرا.

ـ ومن المفيد أن نُمْعِنَ في تعبير «الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» لنلمس الفروق المعنوية بينه وبين تعبير «الذين أوتوا علم الكتاب».

ففي التعبير الأوَّل خُصُوصِيَّةٌ وتجزيءٌ، وفي الثاني تعميمٌ دون تحديد.

وقد ثَبَت بالتَّواترأنَّ الآيتين ٤٤ و ٤٥ نزلتا في حِبْرَيْنْ من أحبار اليهود كانا يأتيان رأس المنافقين «عبد الله بن أُبَي» ورهطة فيثبطونهم عن الإسلام.

ب ـ على هذا الأساس يمكن فَهمُ الخصوصِيَّة في صيغة «الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» في الآية (٥١) حيث نزلت في «حُيَيّ بن أخطب» و«كعب بن الأشرف» اليهوديين الذين يؤمنان بالجبت والطاغوت. وقد اختلفوا في معنى «الجبت الطاغوت» فبعضهم قال «الجبس» ثم أبدلت السين بالتاء وهو كل رديء. و«الطاغوت» من الطغيان وهو الإسراف في المعصية. وقال صاحب الكشاف: الجبت هو الأصنام وكل ما عُبِدَ من دُون الله، والطاغوت هو الشيطان. وقال الكلبي: الجبت والطاغوت في هذه الآية هما حُيَيّ بن الأخطب وكعب بن الأشرف اللَّذان كانا مرجِعاً لليهود، فأطلق القرآن عليهما هذين الإسمين لإضلالهما الناس.

* * *

رابعاً: في سورة الحشر:

من المتفق عليه بين المفسرين والمؤرخين أن هذه السورة سُمِّيت باسمها لأنَّها أوَّلُ حشرٍ «لأهل الكتاب» وقع على يهود المدينة، فقد حُشروا وأخرجوا من جزيرة العرب بِذُلٍّ لم يقع عليهم مثلُه من قبل، وقد كانوا أهل عزٍّ ومَنَعةٍ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسبب الحشر والإخراج هو أن بني النضير منهم كانوا قد تعاهدوا مع النبي على أن لا يكونوا معه أو عليه، ولكنهم نقضوا عهدهم بعد معركة «أُحُد» فاجتمع منهم أربعون راكباً بقيادة كعب بن الأشرف وخرجوا إلى مكة وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة فهدر النبي دم كعب فقتله أخوه من الرضاعة وهو محمد بن مسلمة الأنصاري. ثم جاءهم النبي بالكتائب وأمرهم بالخروج من المدينة فقالوا: الموت أحبُّ إلينا ثم استمهلوه عشرة أيام ليتدبَّروا الرأي ولكنهم أجمعوا على الحرب وأقاموا التحصينات. وكان المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أُبَيّ يحثونهم على البقاء والمقاومة ويَعدِوُنهم بالقتال معهم. وبعد واحدٍ وعشرين يوماً من الحصار طلبوا الصلح بعد أن يئسوا من معونة المنافقين ووقعوا فريسة للرعب. فتم جلاؤهم عن المدينة على أن يحمل البعير الواحد لكل ثلاثة أبيات مايشاؤون من متاع.

وقد نزلت الآيات (٥٩/ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢) متحدثة عنهم.

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾(٥٩/ ٢).

إن تعبير «الذين كفروا من أهل الكتاب» فيه تحديد وتبعيض. وهو هنا لا يشمل جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى كما لايشمل جميع اليهود بل يعني الذين شملهم حكم الجلاء عن المدينة.

أما النصرانية: فلم تكن معنيّة بهذه الآيات لخصوصيتها في بني النضير.

* * *

خامساً: من سورة البينة:

لقد استخرج المؤلف من سورة البينة معاني عديدة لكل منها خطر وشأن فقال:

١ ـ فالذين كفروا هم اليهود والمشركون. (٦٨/ ٦: البينة و٥/ ٨٥: المائدة).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ الصُّحف المطهرة التي احتوت على الكتب القيمة هي أسفار الكتاب المقدس (٩٨/ ٣ ـ ٤) البينة.

٣ ـ والمفسرون أخطأوا إذ قالوا:

ـ إن القرآن وهم «أهل الكتاب» بالكفر.

ـ وإن الصحف المطهرة والكتب القيمة هي «القرآن بِسُوَره وآياته».

٤ ـ إن البينة التي أتى بها النبي بناءً على طلب الكفار والمشركين تشكل الشهادة القرآنية المحكمة بأنه تلا عليهم الكتاب المقدس بأسفاره كلها.

٥ ـ إن آيتي ﴿**رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة(٣) فيها كتبٌ قيِّمة(٤)**﴾ تقضيان على أسطورة أميّة محمد.

تلك المعاني الخمسة استخلصها المؤلف من الآيات الأولى من سورة البينة فاحتلت الصحيفتين ٧٣ و ٧٤ من كتابه لم يشارك أحداً في رأيه ولم يعتمد على مؤيد.

أما نحن فإن لنا عليها تحفظات واعتراضات تتلخص بالآتي:

أ ـ إنه وإن كان عدد من العلماء ومن بينهم الواحدي في كتابه البسيط، قالوا: إن الآية (١) من سورة البينة هي من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، فإن أيا من العلماء لم يقل بأن القرآن حصر الكفر في اليهود والمشركين بالمعنى المحدد المضغوط لمفهوم المشركين عند المؤلف.

بل اتفقوا على أن الكفار جنسان: **أحدهما**: الذين كفروا من (فرق اليهود وفرق النصَّارى) لأنهم أحدثوا في الدين أحداثاً غريبة عنه، كاعتقاد اليهود بأن عزيراً ابن الله واعتقاد النصارى بأن المسيح ابن الله... والثاني هم المشركون الذين لم يكونوا ينسبون إلى كتاب فجاء ذكر الجنسين في القرآن بصيغة الإجمال (الذين كفروا) ثم أردف الإجمال بالتفصيل (من أهل الكتاب والمشركين) وقد دخل على الآية حرف «من» لالكي تفيد التبعيض الذي هو من طبيعة الحرف ولكن لتفيد «التبيين» هنا لأنه إن صحَّ شرعاً وواقعاً أن ليس جميع أهل الكتاب كفاراً أو صحت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجزئة بالنسبة إليهم فذلك لا يصح في المشركين الذين لا ينتسبون إلى كتاب.

جميع ذلك كما قلنا: إذا اعتبرنا أن أهل الكتاب جنس والمشركين جنس آخر في هذه الآية.

أما إذا اعتبرنا أن كلمة «المشركين» هي وصف ثان لمن كفر من أهل الكتاب فإن الحرف «و» يكون حرفاً لعطف الصفات المتعددة في الموصوف الواحد. وفي القرآن أمثلة كثيرة على هذا الأسلوب البياني مثلما ورد في الآية ٩/ ١١٢ من سورة التوبة ﴿**الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر الحافظون لحدود الله**﴾ ويكون وصفهم «بالمشركين» محمولاً على أن ما في عقيدتهم لا يخرج عن الشرك لأن النصارى مثلثة واليهود مشبهة وهذا كله شرك بالله.

لذلك:

ـ أمكن القول: إن المؤلف أخطأ فهم القرآن إذ نسب إليه حصر الكفر وتحديد «حزبه» باليهود والمشركين العرب وحدهم.

ـ وأخطأ إذ وجد تكاملاً والتقاءً بين آية البينة والآية ٨٥ من المائدة لأن النصارى الذين قالت آية المائدة إن عيونهم فاضت من الدمع عندما سمعوا القرآن كانوا على الخصوص والتحديد جماعة معينة. وكان ما جرى لهم حادثة معينة فهم لم يكونوا قاعدة لتعم كل النصارى أينما وجدوا وأنى وجدوا وهي لم تكن قاعدة لتعبر عمليا عن رد الفعل عند كل نصراني عندما يقرأ عليه القرآن. على أنه إذا بقينا على نسبة هذه الحادثة إلى «النجاشي وأصحابه» فإنها تكون قد حصلت قبل القرآن المدني بسنوات.

ب ـ ليس من المستساغ في أيِّ معيار أن تكون أسفار التوراة هي البينة التي طلبها المشركون والذين كفروا وليس من المقبول في أي منطق أن يربط هؤلاء انفكاكهم عن كتابهم وعقيدتهم ليتبعوا كتاب محمد وعقيدته بمجرد أن يتلو عليهم أسفاراً من كتابهم.

فالتوراة بين أيديهم، يتلونها ويمارسون شريعتها، من قبل مجيء محمد بألفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عام فلا يُعقَل أن يجدوا في تلاوَتهِ إياها عليهم سببا لانفكاكهم عنها، واتباعهم لسواها.

بل العكس المفترض، قد يكون الأصح، فتلاوته لها على أنها البينة المطلوبة تدعم حجَّتهم بها وتعلقهم فيها وليس انفكاكهم عنها.

غير أن الصحيح كان غير ذلك تماماً.

فقد تحدَّوه أن يأتي «ببينة» أي «بمعجزة» تَضَعُه في مصافِّ الأنبياء ليؤمنوا به، فجاءته البينة«صُحُفاً تطهرت من الناقص والقبيح، و«كتبا قيمة» مستقيمة تبين الحق من الباطل، وهي القرآن بآياته. لذلك اتجه رأي أكثرية العلماء في فهم الآيتين (٢ ـ ٣) ﴿رسول من الله يتلو صُحُفاً مطَّهرة. فيها كتب قيمة﴾ على أنهما بمجموعهما في محل بدل إجمالي للتعبير الوارد في الآية الأولى حتى تأتيهم البينة.

ج ـ وعلى هذا الأساس فالكفر الذي ورد ذكره في الآية (١) من السورة لا يعم جميع أهل الكتاب بل يلحق بمن ثبت كُفرُه منهم، وقد اجتهد بعض العُلماء فألحقوا المجوس بأهل الكتاب، أَخْذاً من قوله عليه السلام: «سَنُولِيهم سُنَّة أهل الكتاب».

د ـ بعد ما تقدم لم تعد من حاجة إلى التنبيه مجَّدداً على خَطَأِ المؤلف إذ قال: فالإعلان بأن البينة المطلوبة أتاهم بها محمد هو شهادة قرآنية مُحَكَّمَةٌ على أن محمداً تلا الكتاب المقدس بأسفاره كلِّها ص ٧٤ من كتابه.

لأنه ـ على أساس هذا الفهم ـ لن يبقى للآيات معنى ولا هدف.

* * *

سادساً: في سورة الحديد:

وسورة الحديد غير متفق على مكان نزولها، فهي في «ابن كثير» مدنية وفي الإمام الرازي «مكية» وعند الجلالين «مكية ومدنية».

لذلك لن نحاسب المؤلف على إلحاقها بالسور المدنية. بل سوف نعارضه في استنتاجاته التي استخرجها من الآيات ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ منها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ فقَدْ فَهِمَ من الآية ٢٦ أنها تصريحٌ قرآني صريح في حصر النبوة والكتاب بذرية إبراهيم من حفيده يعقوب.

ـ وفهم من الآية ٢٧ أن الذين آمنوا هم النصارى من أمة عيسى وأن الذين فسقوا هم اليهود الذين وصفتهم الآية ١٦ بقولها **﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾**.

ـ وهؤلاء هم الذين تردد ذكرهم في الآية (٢٩) بأنهم أهل الكتاب حيث وردت صيغة التعميم في موطن التخصيص.

تلك المفاهيم، التي استخرجها المؤلف من سورة الحديد (ص ـ ٧٤ ـ من كتابه) فأين أوجه الخطأ فيها؟ سوف نلقي على تلك المفاهيم بعض الضوء لبيان ما اعتورها من أخطاء:

أ ـ إن النبوة والكتاب جعلت في ذرية نوح وإبراهم. لم يستثن القرآن ولم يخصص بل نصَّ على أن «الجَعْلَ» في الذرية كان عاما يختار الله منها من يشاء لحمل الرسالة وتَلَقِّي الكتاب وفي الآية ٢٦/٥٧ نفسها تصريح في هذا التعميم:

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون﴾ كما إن الوضوح يبلغُ أقصاه في بعض الآيات الأخرى مثل الآيات من ٨٤ ـ ٨٩ من سورة الأنعام **﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدَيْنا ونوحاً هدينا من قبلُ ومن ذريَّته داوودُ وسليمان وأيوبُ ويوسفُ وموسى وهارونُ وكذلك نجزي المحسنين(٨٥) وزكريَّا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين(٨٥) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين (٨٦)﴾ ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين(٨٩)﴾**.

من هنا: يبدو فشل المؤلف ـ إذ أراد ـ بالاستناد إلى القرآن أن يستبعد إسماعيل عن شَرف النبوة، لينفي وينكر ظهورها في أحد أبنائه وهو محمد (ص) لذلك حرص على جَعْلِ النبوَّة والكتاب في ذرِّيَة إبراهيم من ولَدِه إسحق وحفيده يعقوب حصراً دون ولده إسماعيل أو واحدٍ من ذراريه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ ربط المؤلف بين الآيتين ٢٦ و ٢٩ وقال:

ـ ﴿إن الذين آمنوا وأوتوا أجرهم. . .(٢٩)﴾ هم النصارى.

ـ ﴿وإن الذين فَسَقوا. . .﴾ (الآية ذاتها) هم المسيحيون اليعاقبة.

ـ وإن الآية ٢٩ ـ نزلت بلهجة استعلاءٍ على المسيحيين، تعبيراً عن تعويض المسلمين بفتح مكة عن فشلهم في غزوة مؤتة. «فأهل الكتاب» في هذه الآية هم اليعاقبة بصيغة عامة. ولكن المدقِّق في الآيتين والمتتبع لهما في مراجع التفسير ينتهي إلى غير تخيلات المؤلف.

١ ـ فهو لو قرأ الآية كاملة لوجد أن القسم الذي استبعده منها أحدث بعده خللاً في توازُن المعنى.

فالآية: ﴿ثمَّ قفينا على آثارهم﴾ (نوح وإبراهيم وذريتهما) ﴿برُسُلنا وقفَّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقَّ رِعايتها فآتَيْنا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ (٢٧) فالرهبانية لم تكتب إلا للتوسُّل بها لاكتساب مرضاة الله. ولكنهم ضمُّوا إليها التثليث والاتحاد وطلب الدنيا وعندما أدركوا النَبي آمن به من آمن فأوتوا أجرهم.

ويدُلُّ على هذه المعاني ما رُوِي عن النبي (ص) قال: من آمن بي وصدَّقني واتَّبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون ـ (الرازي).

فالخطاب في الآية شامل جميع من اتبع عيسى ابن مريم والذين آمنوا منهم بالإسلام لم يكونوا قبل إسلامهم يختلفون عن الجميع، لذلك يكون التركيز على تسميتهم «نصارى» تفريقاً لهم عن المسيحيين، يتعارض مع معاني الآية.

٢ ـ و«اليعاقبة» لم يكونوا وحدهم الفاسقين ولم يخصص الفسق بهم.

لأن هذه الصفة أطلقت على جميع من ترك أوامر الله عز وجل بدءاً من إبليس الذي كان أول الفاسقين ﴿وفسق عن أمر ربه﴾ أي مال عن طاعته. وعلى هذا جاء تعبير الآية: ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ ليدل على جميع من لم يؤمن بالرسالة ممن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذكرتهم الآية: ﴿الذين اتبعوا عيسى ابن مريم﴾.

٣ ـ أما الآستعلاء الذي اكتشفه المؤلف من الآية ٢٩ وعلل سببه، بأنه إظهار التباهي بالتعويض الذي ناله المسلمون في فتح مكة عن فشلهم في غزوة مؤتة.

فما ندري من أين وكيف استقى هذه المعلومات؟.

فهو ـ بارك الله فيه ـ لا يجد في نفسه حاجة إلى اعتماد أي مرجع تاريخي أو فقهي أو تفسيري.

أما نحن، الذين نفتقد هذه الثقة العمياء ترانا مضطرين على الدوام إلى سؤال المراجع الموثوقة والأسانيد المسندة احتراماً منّا لوقت القارىء وعلمه.

لذلك عدنا إلى «الإمام الرازي» و «ابن كثير» و «الجلالين» وتواريخ السيرة بحثاً عن مزاعم الاستعلاء أو التباهي بالتعويض عن فشل مؤتة فما وجدنا شيئاً على الإطلاق.

كل ما وجدناه في هذا الخصوص هو ما يلي:

ـ جاء في الجلالين أن الآية السابقة من سورة الحديد ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ (٧/٥٧) نزلت في غزوة العَسْرة وهي غزوة تبوك حيث أشارت نهاية الآية: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ إلى عثمان الذي شارك مشاركة فعالة في تجهيز الغزوة من أمواله.

ـ إن الآية ٢٩ صرّحت بأن أهل الكتاب كافة هم على خطأ في ادعائهم التخصيص الإلّهي لهم بالنبوة والكتاب والفضل. وأفهمتهم أنهم لا يقدرون على شيءٍ من فضل الله وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقد فسر العلماء كلمة «لئلاَّ» التي ابتدأت بها الآية. بأنها زائدة على الفعل يمكن أن يفهم مقصود الآية من دونها: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألاَّ يقدِرون على شيءٍ من فضل الله وأن الفَضْل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (٢٩/٥٧).

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سابعاً: في سورة المائدة:

في سورة المائدة وطوال الصفحات ٧٥ و٧٦ و٧٧ و٧٨ من كتابه طفق المؤلف يجترح الأخطاء دون توقف.

ـ فهو يرى أنَّ سلسلةً من آيات الجدال مع اليهود توضعت في هذه السورة مع أن تصفيتهم من الحجاز كانت قد تمت منذ نزول سورة الصف حيث جاء ذكر ذلك في الآية ١٤ من تلك السورة.

لذلك: كان لا يوجد تفسير مقبول لإقحام النَّصارى ضمن آيات اليهود غيرَ محاولة إيهام النَّاس أن الجدال القرآني استمر مع وفد نجران مثلما استمر مع اليهود.

ـ ويرى أن الآية (٥) أقامت الوحدة الدينية بين المسلمين وأهل الكتاب (النصارى).

ـ وإن «أهل الكتاب» في الآيات (١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١) هم اليهود فقط بدليل افتتاحية الفصل بالنداء إلى بني إسرائيل(الآية ١٣) واختتامه بقصة موسى من (٢٢ ـ ٢٩):

ـ إن منع الموالاة للذين أوتوا الكتاب والكفار في الآية ٦٠ مقصور على اليهود والكفار العرب وذلك بدلالة الآيات من (٦٣ ـ ٦٧) التي كشفت حقيقة العلاقة بينهم وبين المسلمين.

ـ والآيات ٦٨ و٦٩ و٧١ وإن كان ظاهر التعبير فيها شاملاً لأهل الكتاب كافة فإنها خاصة باليهود لأن الفصل جميعه ردَ على اليهود بدءاً من الآية ٦٦ ـ حتى الآية ٧٣.

ـ في الآية ٦٦ ـ يبدو انتماء الإسلام إلى النصرانية واضحاً جداً إذ يدعو اليهود دعوة صريحة إلى اتباع التوراة والإنجيل وإقامتهما ديناً واحداً، وهذه هي العقيدة النصرانية بلحمها ودمها.

تلك خلاصة عن مقولات المؤلف نوجز مناقشتها بالآتي:

١ ـ مع أن إخراج اليهود ورد ذِكْرُهُ في سورة الحشر ـ كما مرَّ معنا ـ ومع أنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يثبت تاريخياً أن الآية ١٤ من سورة الصف نزلت إعلاناً عن تصفيتهم في الحجاز لأنها ركزت على قصة دعوة المسيح واستجابة الحواريين لنصرته وهي قصة تعود في التاريخ إلى ما قبل نزول آية الصف بأكثر من ستة قرون كما أن إظهار الذين آمنوا بالمسيح على الذين كفروا فيه. ثم في القرن الرابع الميلادي منذ أن أعلن قانون الإيمان النيقاوي بعام ٣٢٥ م.

مع ذلك كله: لا نرى أن الخوض في تاريخية جلاء اليهود عن الحجاز يمكن أن يفيد هذا البحث.

٢ ـ أما الوحدة التي وجدها المؤلف في الآية ٥ من هذه السورة بين المسلمين والنصارى من أهل الكتاب، فهي غير موجودة إلا في خيال المؤلف.

فالوحدة «بِعُرف المؤلِّف ومفهومه» كانت اندماج الدَّعوة الإسلامية نبيّاً وكتاباً ورسالةً بالنصرانية. فهل قام شيء من ذلك؟.

هل انضم الإسلام أو انضوى تحت دعوة النَّصرانية؟ أم إن الذين آمنوا به نصارى ويهود ومجوس ومشركين وصابئة وسواهم هم الذين انضموا إليه وآمنوا به وأقاموا شعائره وحفظوا كتابه وتَبِعُوا نبيه؟.

القول بغير ذلك: هو عبثٌ في التاريخ والأديان وعلم الإجتماع.

إذ متى حصل في التاريخ، أنَّ فئة أو جماعةً تبنَّت دستور فئةٍ أو جماعة أُخرى، فعبَّرت عن ذلك بأن طوتها، بشرياً وفكرياً وعقائديا تحت يمينها؟.

وهل يُعقَل في أي منطق أن يكون هدف الإسلام هو النصَّرانية بكتابها وطقوسها فيعبِّر عن ذلك بأنه هيمن على كتابها وطقوسها وألزمها بكتابه وشعائره؟.

إن الذي يسير على يديه، هو الذي يستسيغ هذا الافتراض.

ومع هذا فلا ضير في أن نلقي نظرة على الآية ٥ من سورة المائدة.

ـ هذه الآية لها ارتباط وثيق بالآيتين (٣ و ٤) كما لها العلاقة الموضوعية ذاتها بالآية (٦)، ففي الآية (٣) أعلن القرآن أن الإسلام أصبح له من القوَّة في السلطان والرسوخ في الروح ما بعث الاطمئنان في نفوس أبنائه. فما عادوا يخشون عليه من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خصومه الذين أدركهم اليأس من أن ينالوا منه. هذه المرحلة هي مرحلة كمال الدين وإتمام النعمة.

﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونِ اليوم أكملت لكُم دينكم واتممتُ عليكم نعمتي ورضِيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ (٥/ ٣: المائدة).

ـ وفي الآيتين ٤ و٥ اتصال بالآية ٣ وعود إليها.

فبعد كمال الدِّين وإتمام النعمة بالإسلام، أتم الله نعم الدُّنيا في المآكل والتزاوج.

﴿يسألونك ماذا أحلَّ لهم قل أحلَّ لكم الطيِّبات وما علَّمتم من الجوارح مكلبِّين. . .﴾ (٥/ ٤) ﴿اليوم أحلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصَنات من المؤمنات والمحصَناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورَهن محصنين[١] غير مسافحين[٢] ولا متخذي أخدان[٣]. . .﴾(٥/ ٥).

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جُنُباً فاطَّهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أولامَستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن ليطهركم وليتم نعمتَه عليكم لعلكُم تشكُرون﴾(٥/ ٦).

فالآيات ٤ ـ ٥ ـ ٦ وما بعدها من سورة المائدة: لم تتحدث ـ كما قال المؤلف ـ عن قيام الوحدة الدينية بين الإسلام والنصرانية.

بل تحدثت:

ـ عن أمور الدنيا.

---

(١) المحصن هو المتزوج الذي أحصنه الزواج.
(٢) المسافح: من السفاح والمسافحة والتسافح أي الزنا والفجور.
(٣) الأخدان جمع خدن وهو الصاحب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإن كان الإسلام حلَّل طعام أهل الكتاب وذبائحهم فلأنهم يذكرون عليه اسم الله.

ـ والزواج منهم مشروط بأن يكون زواج المحصن، لا زواج المسافح ولا الخدِين.

ـ أما فروضُ الصَّلاة وأحكام الوضوء والطهارة والتيمم فهي قواعد إسلامية ليس لها مقابل في النصرانية.

وذلك كله يدحض ادعاء المؤلِّف بانتماء الإسلام إلى النصرانية واتحاده معها ودعوته بدعوتها.

٣ ـ أما استدلال المؤلف على خصوصية تعبير أهل الكتاب بالآيتين ١٦ و٢١ في اليهود اعتماداً منه على أنَّ الفصل الممتد من الآية ١٣ ـ ٢٩ ابتدأ ببني إسرائيل واختتم بقِصَة موسى:

هذا الرأي يحملُ الأخطاء التالية:

أ ـ إن تعبير «أهل الكتاب» موجودٌ في الآيتين (١٥ و١٩) وليس كما قال المؤلف.

ب ـ ورد هذا التعبير في الآية (١٥) بعد أن كانت الآية (١٤) تحدثت عن النَّصارى بشيء من التفصيل:

﴿ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئُهم الله بما كانوا يصنعون﴾ (٥/ ١٤).

ـ فتعبيرُ «الذين قالوا إنا نصارى» يشمل أتباع المسيح كافةً. فلا يمكن قصرُه على الذين آمنوا منهم بالإسلام. لأنهم ـ كما تقول الآية ـ «نسوا حظا مما ذُكروا به وهو ميثاقهم مع الله في أن يُقِرُّوا بِنُبوَّة النبي محمد.

ـ ولأنهم ظلوا كتلةٌ دينيةً غيرَ مرتبطة بالإسلام، حيث ألصقت بهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة.

ج ـ بعد هذه الآية جَاءَت الآية (١٥) منادية «أهل الكتاب» بأنَّ الله أرسل إليهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسول ليبين لهم الكثير مما يخفون من الكتاب ويعفو عن الكثير وأنه قد جاءهم من الله نورٌ وكتابٌ مبين.

لذلك، كان تجاوزاً من المؤلف ـ وتجنياً ـ أن يَرَى في هذه الآية، نداءً خاصّاً باليهود دون باقي أهل الكتاب.

د ـ أما الآية التي افتتحت بهذا التعبير فقد جاءت تتمة وخاتمة للآيتين ١٧ و١٨. حيث أعلنت الأولى عن تكفير من قال إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم. واستنكرت الثانية تبجح كل من اليهود والنصارى بقوله: نحن أبناء الله وأحباؤه.

فبعد هاتين الآيتين جاءت الآية (١٩) بنداءٍ إلى أهل الكتاب، أي الذين سبق الحديث عنهم في الآيات السابقة: ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل...**﴾(٥/ ١٩).

هـ ـ أما قول المؤلف، أن الفصل كله مخصص لليهود لأنه بدأ «ببني إسرائيل» وانتهى «بقصة موسى» فهو قولٌ باطل:

ـ لأن الآية ١٤ تحدثت عن النصارى حتى يوم القيامة.

ـ ولأن الآية ١٥ استمرار في الحديث عنهم وعن اليهود.

ـ ولأن الآية ١٦ جاءت عامة في الهداية.

ـ ولأن الآية ١٧ تحدثت عن تكفير من ألَّه المسيح.

ـ ولأن الآية ١٨ تحدثت عن تبجح اليهود والنصارى.

ـ ولأن الآية ١٩ تحدثت عن أهل الكتاب كافة.

ـ ولأن قصة موسى تبتدىء من الآية ٢٠ ـ ٢٦ فتشكل كتلة إخبارية مستقلة عما سبقها وخالية من تعبير «أهل الكتاب» ومنفصلة عما تلاها من الآيات ٢٧ ـ ٣١ التي تلت نبأ ابني آدم بالحق[1].

---

(١) يرجى العودة إلى الآيات للتأكد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و ـ أما الموالاة:

ـ فقد تحددت في الآية ٥٥، أنها لله ولرسوله والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

ـ وهي محظورة مع الذين اتخذوا دين المسلمين هُزُواً ولعبا والذين يسخرون من صلاتهم (٥٧ ـ ٥٨) وهو تحظير شامل لكل المستهزئين من أهل الكتاب والكفار.

ومن المفيد أن نفهم «الواو» هنا أنها للعطف الوصفي حيث جاء وصف أهل الكتاب بالكفر. لأن الآراء متفقة على أن صفة الكُفر أطلقت على اليهود مثلما أطلقت على الذين قالوا إن الله هو المسيح.

ز ـ ولا يوجد مع المؤلف أيُّ دليلٍ على أن اليهود وحدهم هم الذين أوقع الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة (٥/ ١٤).

فعدا عما اتفقت عليه كتُبُ التفسير، نجد في التاريخ صُنُوفَ العداوة والبغضاء بلا حصر بين طوائف النصارى أكثر مما هي بين طوائف اليهود وما زالت هذه البغضاء قائمة حتى اليوم.

ح ـ أما الآيتان: ٦٨ و٦٩ فهما غير مُخصصتين باليهود:

ـ فالأولى: **﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتَّى تُقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربكم. . .﴾** (٦٨) فالنداء إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى.

ـ والثانية: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنَّصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾** (٦٩).

هي أيضاً واضحة في التعميم وعدم التخصيص.

ط ـ ولقد وجد المؤلف ما يبحث عنه في الآية ٦٨، فقال إنها دعوة واضحة من القرآن موجَّهة إلى اليهود كي يتَّبعوا التَّوراة والإنجيل ديناً واحداً هو دين النصرانية التي انتمى إليها الإسلام.

وفي الحقيقة: لم يقبض المؤلف غير الباطل والريح، كما جاء في «الجامعة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالآية نفسها: توجهت بالنداء إلى أهل الكتاب كافة طالبة ممن هم على اليهودية أن يقيموا التوراة على حقيقتها، وممن هم على النصرانية أن يقيموا الإنجيل على حقيقته.

وطالبةً منهم جميعاً أن يقيموا أيضاً ما أنزل إليهم وهو القرآن، إذ لا يعقل أن يكون ما قصدته الآية بكلمة «وما أنزل إليكم» هو التوراة والإنجيل، لأنَّ الحديث عنهما سبق في الآية ذاتها مما يجعل من تكرار العودة إليها في الآية نفسها عيباً يَجِلُّ القرآن عن الوقوع فيه ومن يقرأ السورة من أولها متحركاً مع آياتها يجد:

أن الخطاب توجه إلى أهل الكتاب تارة بالرمز وتارة بالبيان اللفظي (يهود ونصارى) حتى ساوت بينهما آية الموالاة ٥١، ثم جمعتهما الآية ٦٦ بضمير الجمع الذي عاد إلى أهل الكتاب عامة في الآية ٦٥.

﴿ولوأن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم...﴾(٦٦).

وبعد: نستطيع ـ في خاتمة هذا البحث ـ أن نبدي دهشتنا من المؤلف، الذي فهم من هذه الآية أنها دعوة من القرآن إلى اليهود لاتباع النصرانية من خلال دمج توراتهم بالإنجيل ليتكون من الدمج، الدين الواحد الذي نادت به النصرانية منذ أيام عيسى، ثم تبناه الإسلام ودعا إليه وآمن به.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

القرآن ينتسب انتساباً مطلقاً إلى الإنجيل وأهله في «أمة واحدة»

توطئة: انتساب القرآن إلى الكتاب والإنجيل.

بحث أول: انتساب القرآن إلى الكتاب وأهله على العموم.

بحث ثان: انتساب القرآن إلى الإنجيل وأهله على الخصوص.

بحث ثالث: انتساب القرآن إلى «النصرانية» تلك «الأمة الوسط» بين اليهودية والمسيحية.

خاتمة: الإسلام دين انجيلي مبني على الشهادة لله وللمسيح.

توطئة

انتساب القرآن إلى الكتاب والإنجيل

«ليس من نبوّة جديدة ولا من كتاب جديد ولم يأت القرآن بدعوة مستقلة بل هو دعوة كتابية «نبوّتها وقرآنها» يقومان على تبليغ العرب دين ابراهيم وموسى وعيسى ويفرضان على أمة محمد «متابعة أهل الكتاب» و«التسليم معهم» بأن الإله واحد والتنزيل واحد والاسلام واحد، وإقامة الدين الواحد تحت شعائرهم» ـ المؤلف ص ٨٠ ـ ٨١ ـ .

* * *

تقدّمت التوطِئَةُ أبحاث الفصل الرابع من الكتاب واعتمدت في أطروحاتها، على آيات من سور «يونس» و«الأنعام» و«الأحقاف» و«النمل» و«الشورى» و«البقرة» و«آل عمران» و«العنكبوت».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهي وإن كانت تمهيداً للبحوث القادمة، وتنبيهاً إليها فقد طرحت عناوين على شكل مسلّمات قرآنية مبثوثة في سور الكتاب وسوف تكون مهمة الفصول القادمة إخراجها من مكامنها وعرضها على حقيقة مقاصدها أمام الأبصار والبصائر التي عميت عنها منذ أن استقرت في القرآن.

لقد قفز المؤلف من فوق مئتين وخمسين صحيفة ليضع بين يدي القارىء نتيجة طازجة وكأنه يقول له: لم تعُد بك من حاجة إلى الوقت والجهد في قراءة الكتاب وتكوين فكرتك الخاصة عنه، فها هي النتيجة سعت إليك بقدميها وعرضت نفسها عليك مطواعة.

إن هذه الطريقة في الكتابة والتأليف تخرج عن المألوف في الكتابة والتأليف لأنها تصادر حق القارىء في حرية الرأي والاختيار، وهي إن أمكن اعتمادها في النادر من الحالات لا يمكن أن تغتفر في «الحوار».

فمما لا يجوز قبوله من كاتب أو مؤلف أن يضع نتيجة الحوار بين «فكرين» قبل أن يبدأ الحوار، وإن كان الأستاذ الحداد يقدم بمؤلفاته تمهيداً وجذباً لإقامة الحوار الإسلامي المسيحي فقد كان جديراً به أن يترك لأصحاب الحوار (طرفيه) حق اختيار المواضيع والأسلوب وتحديد الزمان والمكان، وأن يقتصر هو ـ كوسيط حيادي ـ على إبراز القواسم المشتركة بعيداً عن الإثارة والنيل من جانب لمصلحة جانب آخر.

إن كان المؤلف مقتنعاً تماماً بأن القرآن لم يأت بنبوة جديدة. ولا بكتاب جديد فهذه قناعة تصل به إلى نفي الدين الإسلامي من بين الإديان، وهذا بدوره ينطوي على اتهام مليار من الناس بالتيّه والضلال وفقدان الحجة.

هؤلاء يعتنقونه ديناً عكفت السماء ربع قرن من الزمان على صياغته لكي يظل صالحاً لأبناء الأرض مادامت الأرض، ولكي يحملهم جيلا بعد جيل إلى جنة الخلد وملك لا يبلى.

إن كانت تلك قناعات الأستاذ الحداد فأي حوار يدعو إليه؟ وهل يسمى حواراً ذلك الطرح التقريري الذي يقوم على فكر واحد معترف به. أما الفكر الآخر فيراه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دخيلاً متسلطاً ينبغي شطبه من ذاكرة التاريخ.

لقد أفصحت هذه التوطئة عن طوية الأستاذ الحداد وأظهرته رهين الفكر السلفي الذي يفْتقد العدل والرحمة ويقوم على التشنج وردود الفعل.

إنه يفكر بذهنية القرون الغابرة التي لم تعد وسيلة صحيحة للتقويم والنقد.

كيف نفى، جديد النبوة وجديد الكتاب في الإسلام، وقد التفت من حولهما خلائق لا حصر لها، تقديساً وتمجيداً وترديداً، وفيهم الجم الغفير من أهل العلم والفكر والسياسة والشعر والفلسفة والتاريخ وشتى أنواع المعارف على طول الدنيا وعرضها؟.

فإن لم يكن ذلك كله ديناً مستقلاً وكتابا مستقلا فلماذا يقيم المؤلف معه حواراً؟.

وإن كان الإسلام ـ كما قال ـ تجمعاً بشريا ضلَّ طريقه النصراني الحقيقي، وأن عليه أن يعود أدراجه فيتلمس الهدى بعد الضلال الطويل، فإن الأستاذ الحداد ابتعد عن أن يكون محاوراً واصبح منذراً ومبشراً.

وفي هذه الحالة ماهو مصير دعوته؟.

لقد التمس الأستاذ هذه الدعوة في القرآن فأخبر بها المسلمين مؤكداً لهم أن قرآنهم منذ وجوده على هذه الأرض دعاهم إلى اتباع أهل الكتاب اتباعاً حذافيرياً في طريقة الاعتقاد بالله والتنزيل والشريعة.

ولكن!! كيف استخرج من القرآن هذه الاحكام؟ وأين وجد فيه هذا الإلزام؟.

إن الدعوة إلى التوحيد في الله والتنزيل والدين هي العقيدة التي قام عليها الإسلام ودعا إليها، وكانت بالنسبة إليه ـ دوماً ـ غاية الجهاد ومبرر الاستشهاد.

فمنذ الأيام الأولى للرسالة، عندما كان النبي واتباعه لا يتجاوزن عدد الأصابع مرتين، وكانوا ضيئلي الخطر والأثر، توجهت رسائله إلى ملوك الأرض تقول:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾(٣/ ٦٤).

فالكلمة السواء التي قامت عليها الدعوة: هي توحيد الله في العبادة، وعدم الشرك به، وعدم اتخاذ الأرباب من دونه.

فمن قبل الدعوة كان مسلماً، ومن تولى عنها قامت بينه وبين المسلمين فواصل العقيدة.

إن اليهود، وإن كانوا في المبدأ يقبلون بوحدانية الله فإنهم لا يقبلون بعيسى ولا بمحمد ولا يقولون بشرعية كتابيهما، لذلك لا يمكن اعتبارهم من أنصار الدين الواحد.

والنصارى الذين كانوا لا يزالون يقولون بأن الله هو المسيح، ولا يقرون بشرعية محمد وكتابه، لا يمكن اعتبارهم من أنصار الدين الواحد.

أما المسلمون فهم الذين لا يُقبل الإسلام عند أحد منهم. ما لم يعتقد بالوحدانية وتنزيه الله عن الشريك والولد، وأن الدعوة إلى التوحيد والايمان بالله واليوم الآخر هي الدين الذي جاءت به الرسالات جميعا، والذي أمر به جميع الأنبياء دون تفريق.

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾(٩٨/ ٥)

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾(٢١/ ٢٥).

فكيف تحوّلت المواقع وانقلبت المواقف عند المؤلف؟.

كيف جعل من الإسلام الداعي إلى الوحدة في الله والدين، مَدْعُواً مُشَاكِساً مازال على مشاكسته منذ أربعة عشر قرناً؟.

ونحن الآن في هذا الزمان وقد مرت القرون الطوال على اليهودية والمسيحية والإسلام، يمكننا أن نتساءل؟.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أين تقع معوقات التجمع على دين واحد يؤمن بوحدانية الله ووحدانية مصدر كتبه ورسله؟.

وهل يوجد في الكتب الأخرى ما يوجد في القرآن من صراحة الدعوة إلى الوحدانية وربطها بصدق العقيدة؟.

وبعد: نسأل الاستاذ الحداد، إن كان شخصاً طبيعيا أم أن اسمه يعبِّر عن شخصية معنوية، هل تؤمن أنت ومؤسستك بالكلمة السواء التي دعا إليها الإسلام؟.

هل يعترف حوارك بالوجود الفكري والعقائدي للإسلام؟ رسالةً ونبوةً وكتاباً؟.

وإن كنت لا تعترف فكيف تدعو إلى حوار يتلاقى فيه الموجود مع من لا وجود له؟.

ألا ينبغي، أن يقوم اعتراف مسبق بالوجود المستقل لكل من المتحاورين قبل عملية الحوار؟.

وقبل الاجتهاد لإيجاد القواسم المشتركة التي يمكن أن تكون أساساً للإلتقاء؟.

* * *

سوف لا نستمر في هذه التساؤلات التي تنهمر على الأستاذ الحداد، فما يستطيع لها دفعاً، لكي نعود إلى الفصل بأبحاثه الثلاثة وخاتمته.

بحث أول

انتساب القرآن إلى الكتاب وأهله على العموم

تحت هذا العنوان أثار المؤلف عدداً من الأفكار والمواضيع يمكن بحثها ومناقشتها تحت العناوين التالية:

١ ـ القرآن هو الكتاب المفصل والتفصيل هو التعريب وينطوي على بحثين هما:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ماهية القرآن و«مصادره»

ـ التنزيل والتفصيل.

٢ ـ إيمان القرآن هو إيمان الكتاب.

٣ ـ إسلام القرآن هو إسلام الكتاب.

أولاً: القرآن هو الكتاب المفصل والتفصيل هو التعريب:

قال المؤلف:

١ ـ ماهية القرآن هي إنه الكتاب مفصلاً أي هو الكتاب السابق ولكنه جاء بصيغة مفصلة، وقد أوضحت هذه الماهية الآيتان ١١٤ ـ ١١٥ من سورة الأنعام و ٣٧ ـ من سورة يونس.

٢ ـ مصادر القرآن بدلالة الإعلانات في السور (الشعراء ـ العنكبوت ـ الأعلى ـ النجم ـ البينة).

٣ ـ القرآن هو تنزيل من التنزيل السابق وليس تنزيلاً من السماء، لأن الله أورث الكتاب السماوي لذرية إبراهيم من يعقوب، فلا نبوة ولا كتاب خارج بني إسرائيل إلا بالنسخ عن كتابهم وتفصيله، فالتنزيل هو تعريب الكتاب الإمام (الزمر ٣٩/ ١ والجاثية ٤٥/ ٢ والأحقاف ٤٦/ ٢ ـ ١١ وغافر ٤٠/ ٥٣).

٤ ـ التفصيل هو اصطلاح قرآني معناه التعريب، فالقرآن باعتباره «المفصل» هو النسخة المترجمة إلى العربية من الأصل الأعجمي.

* * *

١ ـ ماهية القرآن:

اعتمد المؤلف على الآيتين ٦/ ١١٤ ـ ١١٥ من سورة الأنعام وعلى الآية ١٠/ ٣٧ من سورة يونس في إثبات انتساب القرآن إلى كتاب سابق أساس، وأن ذلك الكتاب الأساس هو الذي قيل عنه لمحمد: «إنه منزل من ربك بالحق» وهو الذي «لا تغيير لكلماته، وهو الذي ينتسب إليه قرآن محمد لا ريب فيه».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن هذا الطرح الشديد حتَّم قراءة هذه الآيات واستقراءها للوقوف على مدى الصحة والموضوعية في أقوال المؤلف لأن من شأن تلك الأقوال ـ لو كانت صحيحة ـ أن تقلب موازين الفهم والعقيدة والتراث عند المسلمين.

هذه هي آيات سورة الأنعام:

﴿أفغير الله أبتغي حَكَماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزَّلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين (١١٤) وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم(١١٥)﴾.

لن نتوقف عند معنى «مفصلاً» نظراً إلى أن المؤلف خصص له فقرة مستقلة لاحقة لذلك أرجأنا تحليل هذا المفهوم إلى حينه.

وسوف نتعرف هنا على معاني الكلمات «حكماً» و «كتاب» و «منزل» و «الممترين» في الآية ١١٥ وعلى المعنى الإجمالي لهذه الآية مع الآية (١١٤) وذلك كما يلي:

أ ـ إن «الحَكَمَ» هو الله.

والآية هي آية إخبارية وتقريرية، في الوقت ذاته يخبر النبيُّ فيها ويقرر بأنه لا ينبغي أن يكون الحَكَم غير الله. وذلك رداً على المشركين الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليومِنُنَّ بها... (٦/١٠٩) فقال لهم النبي مستنكراً: أفغير الله أبتغي حكماً؟ أي هل يجوز أن يطلب حكماً غير الله؟ وها هو الله تعالى أعطى حكمه وشهادته بالقرآن الذي يشكل الآية العظمى التي لا تماثلها آية؟.

ب ـ إن «الكتاب الذي أنزل مفصلاً...» هو القرآن. وضمير الجمع المخاطب «إليكم» في الآية يعود إلى الجماعات التي خاطبها النبي (ص).

ج ـ إن كلمة «أنزل» من النزول، وهو مصدر ينبثق عنه العديد من المعاني منها الحلول كقوله تعالى: **﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نُزُلا﴾** ومنها «الانحدار من الأعلى» ومنها «التنزيل ـ أي الترتيب».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد وضع هذه المعاني بعضها إلى جانب بعض نستطيع إدراك المعنى في قوله: الكتاب مفصَّلاً:

ـ فالضمير «هو» يعود إلى لفظ الجلالة في أول الآية.

وبذلك يكون المعنى: «إن الله الذي هو أحكم الحاكمين قد أنزل القرآن للناس مفصَّلاً...» وهذه عبارة إخبارية تقريرية كُلِّف النبي بإيصالها إلى الناس.

د ـ أما كلمة «الكتاب» التي وردت في الآية «والذين آتيناهم الكتاب» فهي تعني كتاباً غير القرآن بدليل نسبته إلى من أوتوا ذلك الكتاب. وهؤلاء بالطبع هم غير الذين خوطبوا في بداية الآية لأن مضمون الآية يستشهد بما توافر عندهم من علوم كانوا أدركوها من كتابهم وهي: إن القرآن منزل من ربك (يا محمد) بالحق.

هـ ـ كلمة «الممترين» تعني الشاكين وهنا شرط لا يقتضي وقوعه لهذا صحَّ عن الرسول (ص) أنه قال عند نزول هذه الآية «لاأشك ولا أسأل ـ ابن كثير».

و ـ ثم جاءت الآية ١١٥ ـ تماماً وكمالاً للآية ١١٤.

فبعد أن بينت الآية السابقة أن القرآن نزل بالحق من الله نزولاً معجزاً بتفصيله فكان الآية العظمى التي دلت على صدق النبوة، جاءت هذه الآية لتعلن أن كلمات الله ـ أي القرآن ـ قد تمت صدقاً وعدلاً لأن كلمات الله صدقٌ مطلق وعدلٌ مطلق.

وقد وردت في بعض القراءات «كلمة» بالمفرد وقالوا: إن الكلمة يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم: قال زهير قصيدته وقال قس خطبته وكذلك مجموع القرآن كلمة واحدة في كونه حقاً وصدقاً وعدلاً معجزاً.

بعدما تقدم: نستطيع التماس المعنى العام من الآية كالآتي:

«إن الله أنزل القرآن كأعظم شهادة على صدق النبوة وإن الذين أوتوا التوراة والإنجيل يعلمون من كتبهم أن القرآن منزَّلٌ من الله بالحق دون ريب.

كما نستطيع القول: إن المؤلف أطلق أفكاره واستنتاجاته متأثِّراً بالموروث السلفي الذي استقر في جوانب نفسه.

وهذا من حيث المبدأ ـ شأنه ـ وما كان ينبغي أن نُخْضِعَ دخيلَته إلى النقد لو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تنعكس على كلمات الآية، والآية بريئة منها لغة ومضموناً.

ز ـ وهذه هي الآية ١٠/ ٣٧ من سورة يونس والآيتان ٣٨ و٣٩ بعدها.

﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٣٧) أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣٨) بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين(٣٩)﴾ هذه الآية تشكل جزءاً موضوعياً من آيات يقارب عددها العشرين تناولت شبهات القوم ومطاليبهم وجدالهم في هذه الشبهات والمطاليب، فقد ذكرت الآية (٢٠) أقوالهم **﴿لولا أنزل عليه آية من ربه...﴾** فتتالت آيات القرآن مجيبة على هذا التحدي مذكّرةً إياهم بما لا يحصى من آيات الله سيرهم في البر والبحر والفلك والموج الذي أحاط من كل مكان واستجابة الله لدعواهم...(٢٢) وتمثيل الحياة الدنيا كمثل الماء الذي أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام..(٢٤) و**﴿يوم نحشرهم جميعاً...(٢٨)﴾** و**﴿هناك تبلو كل نفس ما أسلفت...(٣٠)﴾** و**﴿من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي...(٣١)﴾**

ثم يتحداهم القرآن بقوله: **﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده...(٣٤)﴾**.

بعد هذه الأجوبة على الشبهات التي أطلقها القوم أتت الآية (٣٧) مختتمة ما تقدم في عبارات تقريرية حاسمة بقولها: إن ما ورد في القرآن هو من عند الله فلا يستطيع أحد أن يفتري فيه على الله أو أن يدعي أنه من عنده، وأردفت ذلك بتحدٍّ جبروتي قاطع:

﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين(٣٨) بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله كذلك كذّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين(٣٩)﴾ فأفصح القرآن أنه لو كان تعريباً أو نسخاً بشرياً من مصدر آخر لكان في مقدور البشر من المكابرين أو سواهم أن يأتوا بسورة مثل سوره، ولكنهم عاجزون عن ذلك، وما تعنّتَهُم غير صورة من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صور التكذيب التي واجهها الأنبياء السابقون من الأمم الجاحدة السابقة.

وعند بعض كلمات الآية: ﴿أنْ ـ لا ـ يُفْتَرَى من دون الله ولكن تصديق الذين بين يديه﴾ توقَّفَ المؤلِّفُ طويلاً فيما كان خياله يجوب الآفاق حتى عاد إليه محمّلاً بنظرية تتجافى مع منطق الآية في المبنى وفي المعنى، فقد قال في تفسيرها:

إنَّها شهادة من القرآن على أنه ينتسب إلى الكتاب الإمام الذي أنزله الله على حفيد إبراهيم من يعقوب وهو «موسى». لقد كان هذا الإمام بين يدي النبي فعكف على دراسته وتفهمه واستيعابه ثم قام بترجمته إلى العربية تحت اسم جديد هو «القرآن».

ليس هذا التفسير قفزة شعرية تخطى بها الحداد حواجز الفكر واللغة والتاريخ ولكنه اعتقاد قام على تراكمات طويلة مديدة من موروثات غير منصفة.

وإن كان هنا ينسب التعريب إلى النبي ويعتبر الأمية المنسوبة إليه أسطورة، فقد كان له زميل اسمه «أبو موسى الحريري» نسب العلم القديم والجديد والتعريب والترتيب، والترتيل والتفصيل إلى «ورقة بن نوفل» الذي جعل منه «أبو موسى» قسَّ الجزيرة العربية وسيِّد قريش وزعيمها وقائد قادتها ومعلم العرب وملهمهم، وإلى ورقة ـ كما قال أبو موسى ـ انتهت جميع العلوم...

فنحن الآن، تقوم لدينا مدرستان، أو مؤسستان.

ـ إحداهما: مدرسة الأستاذ الحداد.

والثانية: مدرسة «أبو موسى». ولكن من هما؟ الله وحده يعلم الجواب. وأين هما؟ وهل هما شخصان أم مؤسستان اختبأتا تحت وهمٍ من الأسماء؟.

الأولى أنجبت ثلاثة عشر كتاباً. والثانية أنجبت عشرين ونيِّفاً. وهذه الأعداد من الكتب تركزت من حول موضوع واحد لا تحيد عنه ولا تملُّ منه.

جميعها تستعيد قراءة القرآن وكتب السيرة، فتفسرها تفسيراً يبعدها عن القداسة ويقطع صلة السماء بها نهائيا ويعود بها إلى صناعة البشر.

جميعها امتلأت بهاجسٍ واحد هو ذلك الرجل «محمد» الذي لا يزال في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخ أعظم الرجال. فهي جاهدة دائبة على النزول به عن سدة النبوة ووضعه بين البشر يحمل طبائعهم وطموحهم ووسائلهم، فيسطو على كتب السماء ليأخذ منها كتابه ويقتنص سِيَر الأنبياء ليصنع منها سيرته.

فأنت أيها القارىء الكريم، إن قرأت كتاباً واحداً فقط من كل سلسلة، تتكون لديك فكرة واضحة عن فكرها وأسلوبها، ومادة النقاش عندها، وتلمس بيديك روح التحيز والتحدي والاستعلاء الأجوف.

إنني منذ أشهر دفعت إلى الطباعة كتاباً بعنوان «الحقيقة الصعبة ـ في الميزان ـ رقم١» درست كتاب أبي موسى الحريري «قس ونبي» دراسة متبصرة، فتتبعته فصلاً فصلاً وفاصلة فاصلة وكشفت ما خفي من أساليبه وأوضحت ما كمن من نيَّاتِه وأهدافه، وأظهرت خبيئه إلى القراء، خبيئاً بعيداً عن الموضوعية والعلم والحياد، ومهاجراً عن الاستقراء الصحيح والاستنتاج الرصين.

إن تعبير تصديق الذي بين يديه» كان له في كتاب «أبو موسى» حظ وافر من التعليق مثلما هو في كتاب الأستاذ الحداد. لأنهما يتناسخان العواطف والأفكار وأساليب الحوار.

وقد كان لنا على هذا التعبير حظٌّ وافرٌ من القول واجهنا مقولات أبي موسى.

لذلك أضع بين يدي القارىء بعض ما كنت رددت به على مقولات أبي موسى لأنه يصلح أن يكون رداً على الأستاذ الحداد: كما يلي:

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه...﴾(٦/ ٩٢: الأنعام).

﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هُدىً للناس وأنزل الفرقان﴾(٣/ ٣ ـ ٤: آل عمران).

﴿نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهُدىً وبشرى للمؤمنين﴾(٢/ ٩٧: البقرة).

﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير﴾(٣٥/ ٣١: فاطر).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي القرآن آيات عديدة أخرى وردت فيها عبارة «التصديق» بصيغٍ مختلفة مثل:

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ و﴿تصديق الذي بين يديه﴾ و﴿مصدق لما معهم﴾ و﴿مصدق لما معكم﴾ و﴿مصدِّق لما بين يديه من الكتاب﴾.

على هذه الصيغ اعتمد المؤلفان «الحداد والحريري» في العودة بالقرآن إلى أصلٍ نشأ عنه وهو «التوراة والإنجيل»، وقالا:

إن كون القرآن تصديقاً لهما يعني أنه نسخةٌ عنهما، وأن لا كينونة له ولا مهمة لديه غير التبشير بهما والدعوة إليهما. فلا يُقبل منه الإدعاء بكينونة رسوليّة أو شرعيّة مستقلة لأن ذلك يخرجه عن الفلك الذي وضع عليه.

ولكن علماء المسلمين من فقهاء ومفسرين ومن محدثين تواترت أسانيدهم حتى أيام النبوة الأولى حينما كان الرسول على رأس المسلمين يسألونه عن شوارد المعاني وعن غوامض الأمور فيجيب بما تستقر له النفوس وتهدأ عنده العقول.

هؤلاء عندهم لهذه الصيغ القرآنية معانٍ غير ما عناه الحريري والحداد. فـ «تصديق الذي بين يديه» يعني: أن القرآن مصدق لما نزل في الكتابين من الحقائق الإلّهية، ولكن هذا التصديق لا يعني أن الله لم يبق بين يديه سواهما عندما أنزل القرآن، ولا يعني أن تلك الحقائق التي تضمنها الكتابان غطت حاجات الإنسان إلى آخر الزمان.

ذلك تصوُّرٌ مستحيل، لأن الله خلق الإنسان نزَّاعاً إلى التطور، محتاجاً إلى العناية الإلّهية على الدوام لكي تمده بأسباب الكشف عن أسرار حقائق الكون فكانت تفرج له منْها بمقدار استطاعته على التلقي والاستيعاب، فالتوراة والإنجيل نزلا من قبلُ هُدىً للناس، أما بعد توالي القرون وتغير الظروف وتنامي العقول فإن الهداية احتاجت إلى المزيد والجديد، فكان القرآن الذي لبَّى جميع متطلبات الإنسان وأجاب على جميع تساؤلاته.

وحادثة النبي مع اليهود معروفة ومشهودة حينما سألوه عن الرُّوح ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (١٧/ ٨٥: الإسراء)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقالوا له: لقد أوتينا التوراة ومن أُوتيها أوتي العلم الغزير والحكمة البالغة، فنزلت آية قاطعة في رفض مقولتهم وادعائهم العلم. وتأمر النبي أن يعلن لهم أن علم التوراة هو علم قليل إلى جانب علم الله: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولوجئنا بمثله مددا﴾** (١٨/ ١٠٩: الكهف).

فالله يفرج عن أسرار العلوم والحقائق ويوحي بالأحكام والفرائض والأخلاق والشرائع بمقدار ما تتطلبه حاجة الإنسان.

لذلك: صدَّق القرآن على الثابت من الكتابين ورفض التحريف والتبديل ودعا اليهود والنصارى وجميع الأمم إلى وحي الله الذي ضَمَّ بين دفتي القرآن جميع الثوابت والأوامر الإلهية فيما سبق من العصور مضافاً إليه متطلبات الإنسان مهما امتدّ الزمان.

والتصديق: هو عكس التكذيب، وهو الموافقة على رأي مطروح أو قول مبثوث فإذا صدَّقت زيداً في رأي من آرائه أو خبر من أخباره فلا يعني ذلك أنه أُحيط بك وأصبحت نسخة منه لا تتحرك ولا تحيد عنه.

إن تصديق القرآن للكتب السماوية وإيمانه بالرسل والأنبياء دون تفريق هي أوامر الله للدلالة على وحدة الدين الذي جاء به الأنبياء جميعاً. وهو وحدانية الله وعبادته، منزَّهاً، عن الشريك والزوجة والولد والإيمان باليوم الآخر.

﴿وإنه لتنزيل ربِّ العالمين، نزل به الرّوح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ (٢٦/ ١٩٢ـ ١٩٤).

فالكتاب هو القرآن الذي نزل بصيغة الخطاب التوجيهي إلى النبي. وهو تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين، أي الوحي الإلهي على قلب النبي ليكون من المنذرين.

وفي هذا نفيٌ قرآني صريح قاطع لمقولة الترجمة والعمل الإنساني في القرآن، وهو نفيٌ تميَّز بالأسلوب الإلهي الجبروتي الخارق الذي لا يستطاع رده.

لقد كان «أبو موسى الحريري» من قبل «الأستاذ حداد» قد تسمَّر عند الآية القرآنية رقم ١٢/ ١١١ من سورة يوسف التي جاءت بألفاظ مماثلة لألفاظ الآية: ٣٧ ـ من سورة يونس:

﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهُدىً ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (١٢/ ١١١).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كان جديراً به أن يقرأها مع ما سبقها لكي يعرف عائدية الضمير في «الكينونة» وما هو الحديث الذي لم يكن مفترى. بل كان تصديقاً وتفصيلاً وهدى ورحمة للقوم المؤمنين؟.

لأن الآيتين ١٠٩ و١١٠ تسردان الحديث المذكور كالآتي:

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولَدَار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾(١٠٩) ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرُنا فنُجيَّ من نشاء ولا يُردّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾(١١٠) ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق. . . .﴾(١١١).

فالقصص التي قصَّها القرآن. والتي أكد على أنها ليست حديثاً يفترى، هي قصص الأنبياء والرسل وما لاقوه في سبيل رسالاتهم من الأمم الجاحدة. وهذه القصص مصدقة لما ورد بشأنها في الكتب السابقة. لذلك جاء القرآن مثبتاً ومصدقاً ما بقي منها ثابتاً وصادقاً. وفي الوقت ذاته، رافضاً لما تحرف وتبدل. ثم فَصَّلَ كل شيء فيما يتعلق بالتحريم والتحليل والواجبات والطاعات. وعما هو في باطن الغيوب المقبلة. وتنزيه الله عن مماثلة المخلوقات وتفرده بالأسماء والصفات.

فالقرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ويعقلون.

وهو بمقتضى هذه الآيات وسواها «كينونة» وهيْمنَةً واحتواءٌ لثوابت الكون فلا هو تابعٌ ولا مقلِّدٌ ولا منسوخ. وكل فهم له بغير هذا الفهم. وكل تعامل معه بغير هذه الثوابت فيه ضغطٌ لحجمه وقصورٌ عن فهمه. وظلمٌ وافتئاتٌ على علمه.

* * *

ولقد تعامل الناس عامَّةً. والمسلمون خاصَّةً مع القرآن بهذا الفهم. والحادثة التي رواها الإمام أحمد ما يوضح موقف النبي والمسلمين من الكتب السابقة. ويؤكد استقلالية الدين الإسلامي رسالةً، ونبياً، وكتاباً، عما سبقه من الكتب والرسالات لا إنكاراً لها، ولكن تجاوزاً عنها وفيضاً عليها.

فقد حدث جابر بن عبد الله أن عمر (ر) أتى النبي بكتاب أصابه من أهل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب فقرأه على النبي فغضب النبي وقال: أمتهوّكون[1] يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيجيبوكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً، ما وَسِعه إلاّ أن يتبعني.

وقال عندما جاءه بنو قريظة بجوامع من التوراة: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم[2]: هذه الأقوال تنفي أن تكون دعوة النبي تبشيراً بدعوة اليهود أو النصارى.

٢ ـ مصادر القرآن بدلالة الإعلانات القرآنية:

الإعلانات:

قال المؤلف: ثمة إعلانات أربعة في القرآن بيّنت أن محمداً كان يعرف الكتاب المقدس بأسفاره، وأن تلك الأسفار هي الصحف المطهرة والكتب القيمة التي كان يتلوها وهذه الإعلانات هي الآتية:

أ ـ في الآيات: ٢٦/ ١٩٣ ـ ١٩٧ من سورة الشعراء.

ب ـ في الآيات: ٢٠/ ١٣٣ ـ طَه و٢٩/ ٥٠ العنكبوت.

ج ـ في الآيات: ٨٧/ ١٨ ـ ١٩ الأعلى و٥٣/ ٣٦ ـ ٣٧ النجم.

د ـ في الآيات: ٩٨/ ١ ـ ٧ البينة.

في سورة الشعراء:

أورد المؤلف آيات من هذه السورة بإسلوب وترتيب يخدمان غايته فقال: يعلن القرآن عن نفسه بأنه:

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين...﴾ ﴿وإنه لفي زبر الأولين...﴾ ﴿أولم يكن لهم آيةٌ أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل..﴾

---

(١) من هَوَكَ أي احتار وتردد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده. وأورده ابن كثير في تفسير الآية ١٢/ ٣ يوسف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأضاف: «فتنزيل رب العالمين في القرآن هو مما في زبر الأولين أي كتبهم كالتوراة، والإنجيل ـ الجلالان ـ (المؤلف ص: ٨٢ ـ ٨٣)».

ولكن الآيات هي بغير الترتيب والأسلوب والمقاصد التي طلع بها الحداد فقد جاءت بالترتيب الآتي:

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين(١٩٢) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين (١٩٥) وإنه لفي زبر الأولين (١٩٦) أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل (١٩٧) ولو نزَّلناه على بعض الأعجمين (١٩٨) فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين (١٩٩)﴾.

وحملت معها معاني ومقاصد يمكن الإشارة إليها بما يلي:

١ ـ إن «الجلالين» لا يقول إن القرآن موجود في كتب الأولين (التوراة والإنجيل) بل قال بالحرف: إن ذكر القرآن المنزل على محمد موجود في كتب الأولين أي الإخبار عنه والتبشير به والتنبيه إليه ولكن المؤلف تصرف باللفظ وبالمعنى تصرفاً أبعَدَ الآيات عن مقاصدها الحقيقية. وحرَّف على الجلالين فنسب اليهما ما لم يقولاه وحمَّلهما ما لا يمكن أن يحملاه.

٢ ـ «وإنه لتنزيل رب العالمين»:

فالضمير يعود إلى القرآن، وبذلك يكون القرآن هو التنزيل من رب العالمين. وليس نسخاً عن كتب الأولين ولا تعريباً لها. والتنزيل في اللغة يعني الإنحدار من الأعلى. وهنا رمزٌ إلى النزول والتنزيل من السماء إلى الأرض حيث النبي والناس، وبذلك تخرج عملية النسخ والتعريب عن معاني التنزيل خروجاً مطلقاً لأن التوراة والإنجيل موجودان على الأرض بين أيدي الناس وليسا في مكان لا يرقى إليه ولا يستطاع الالتقاء به إلا بانحداره ونزوله من الأعلى.

٣ ـ تنزيل من التنزيل:

وعملية التنزيل لم يكن فيها يدٌ للنبي بل قام بها الروح الأمين الذي نزل بها من السماء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا استبعاد آخر للتوراة والإنجيل من دائرة التأثير في القرآن.

٤ ـ «على قلبك لتكون من المنذرين».

والوحي كان شفوياً، نزل من شفاه الروح الأمين على قلب النبي. ولم ينزل خطاً مكتوباً على قرطاس أو تعريبا من كتاب إلى كتاب.

وكان ذلك، ليجعل من النبي الذي تلقى الوحي واحداً من الأنبياء المكلَّفين بالإنذار والدعوة والتبشير ولو كانت مهمته مقتصرة على النقل والترجمة لما جعله القرآن في عداد المنذرين.

٥ ـ «وإنه لفي زبر الأولين».

وقد ذكرنا تفسير الجلالين لهذه الآية، ونفيد بأن هذا التفسير متفق عليه (الرازي ـ وابن كثير).

والزُّبُرُ هنا هي الكتب، والمفرد منها زبور، وقد سمي كتاب داوود زبوراً: ﴿وآتينا داود زبورا﴾ ـ ٤/ ١٦٣ ـ النساء.

٦ ـ «أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل».

وردت هذه الآية بعد الآية ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ التي أكدت بشكل تقريري أن القرآن منوَّه عنه ومبشر به في زبر الأولين. وقد كان يكفي علماء بني إسرائيل علمهم بذكره والتبشير به من كتبهم، لتقوم لديهم الآية ـ أي الدليل على صحته وصدقه.

٧ ـ «ولو نزَّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين».

وهي عودٌ من القرآن. بصيغة تقريرية حاسمة إلى تأكيد استحالة إيمانهم وشدة كفرهم. فهو لو نزل ببيانه وفصاحته على أعجمي فقرأه عليهم بالعربية التي لايعرف منها شيئاً في الأصل ما كانو ليجدوا في ذلك شيئاً مُعجِزاً ولا آيةً تدفع بهم إلى الإيمان.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في سورة طَه والعنكبوت:

أورد المؤلف الآية ٢٠/ ١٣٣ من سورة طَه و ٢٩/ ٥٠ من سورة العنكبوت وبيَّن ما أراده من ذلك بقوله:

«إن القرآن ليس إلا بيِّنَةً عمَّا في صُحُف الكتاب المنزلة من قبله من إبراهيم إلى موسى إلى عيسى. المؤلف ـ ص ٨٣».

أما الآيتان فهما:

﴿وقالو لولا يأتينا بآية من ربِّه أولم تأتهم بيِّنَةُ ما في الصُحُف الأولى﴾(٢٠/ ١٣٣: طه).

﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾(٢٩/ ٥٠: العنكبوت).

وأما تفسيرهما لمعرفة حقيقة المقصود منهما فهو:

ـ في الآية: ١٣٣ من سورة طَه إخبارٌ عن القوم الذين طلبوا من النبي أن يأتيهم بآية من ربه وقد ورد الإخبار بصيغة الغائب فأجابتهم تتمة الآية بالصيغة نفسها مستنكرة منهم جهلهم أو تجاهلهم ما حلَّ بالأمم الغابرة التي لُعِنت وأُهلكت عندما سألوا الآيات وكفروا بها.

وفي ذلك إشارة إلى «أصحاب السبت» و «أصحاب المائدة» وسواهم من الأمم التي عوجلت بالعقوبة عندما علقت الإيمان بالأنبياء على نزول الآيات المعجزات.

ـ وفي الآية: ٥٠ من سورة العنكبوت، كان جواب الآية على مطالبيهم إنزال معجزة من الله. أن الآية ليست من شروط الرسالة، فالرسول يدعو إلى الله فإذا توقَّف الخلق عن القبول وأراد الله بهم رحمة بين رسالته بآية وهذا من شأنه وإرادته.

ومع ذلك فقد كانت تتمة الكلام في الآية ٥١ من السورة **﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾**.

فدلَّ بهذا على أن القرآن هو الآية العظمى التي منَّ الله بها على الخلق وهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فوق كل معجزة لأنه باقٍ وخالد ومستمر في تحدِّي الخلق أن يضاهوه أو أن يأتوا بسورة من سوره في حين أن معجزة «انقلاب العصا إلى حية» و«إخراج اليد من الجيب بيضاء» و«إبراء المريض» و«إحياء الميت» إنما كانت معاجز آنية لم يبق منها إلا الذكرى وهي ـ وإن كانت قد أدخلت مهابة الإيمان في نفوس أبناء ذلك الزمان ـ فإن الأجيال التالية تقرأ عنها ولا تراها، أما القرآن الذي يتلى بتفوقه وإعجازه من ملايين الحناجر في كل يوم هو لا يزال معجزة مثلما كان في عهوده الأولى.

* * *

في آيات الأعلى والنجم:

الآيتان: ٨٧/١٨ ـ ١٩ ـ من الأعلى. و٥٣/٣٦ ـ ٣٧ ـ من النجم.

لا تقرأ المزدوجة منها لوحدها ولا تفهم مقاصدها ما لم تُتْلَ وتفسر مع سابقها ولاحقها من الآيات.

ففي الأعلى: **﴿سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوّى (٢) والذي قدّر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غُثاءً أحوى (٥) سنقرئك فلا تنسى (٦) إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى (٧) ونيسرك لليسرى (٨) فذكِّر إن نفعت الذكرى (٩) سيذَّكَّر من يخشى (١٠) ويَتَجَنَّبُها الأشقى (١١) الذي يصلى النار الكبرى (١٢) ثم لا يموت فيها ولا يحيا (١٣) قد أفلح من تزكّى (١٤) وذكر اسم ربه فصلّى (١٥) بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خيرٌ وأبقى (١٧) إن هذا لفي الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩)﴾**.

فالآيتان ١٨ و١٩: لا تُقرآن وحدهما مستقلتين عن الآيات السابقة. وبالقراءَة الإجمالية للسورة يتبيَّن: أن اسم الاشارة «هذا» في الآية (١٨) لا يعني ما عناه المؤلف. بل يعود إلى الحقائق الإلهية التي وردت في الآيات السابقة وهي توحيد الله وتسبيحه وتفرّده بالخلق والحياة، ثم تكليفه للنبي أن يوضح للناس هذه الحقائق التي لا ينساها غير الأشقى. الذي مصيره النار الكبرى. وأما من تزكى وذكر اسم ربه فصلى فهو الذي كتب له الفلاح والنجاح.

تلك كلها احكامٌ إلّهية لا يتغير إعلانها ولا الإخبار عنها والتكليف بها مَعَ تغيرٌ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزمان والكتب بل هي مثلما كلِّفت بها الصُّحُف الأولى كَلِّف بها القرآن.

وقد اختار هذا التفسير أكثر العلماء أمثال ابن جرير وابن زيد وقتادة، (تفسير ابن كثير).

ـ ولا يختلف الأمر في سورة النجم عما ورد في سورة الأعلى من حيث المبدأ:

فقد أخطأ المؤلف في قراءة الآيتين (٥٣/ ٣٦ ـ ٣٧)منفردتين ومستقلتين عن الآيات التي ترتبطان بهما.

﴿أم لم ينبَّأ بما في صحف موسى (٣٦) وإبراهيم الذي وفى (٣٧)﴾.

وقال: تعقيباً عليهما في الصحيفة ٨٣ ـ من كتابه: **﴿إن القرآن لهو في الصحف الأولى﴾**(الأعلى: ١٨) التي ترتقي إلى **﴿صحف موسى وإبراهيم الذي وفَّى﴾** (النجم: ٣٦ ـ ٣٧).

لقد كان على المؤلف أن يُمْعن في طبيعة التساؤل الوارد في الآية (٣٦) من النجم. ومن ثم عليه أن يبحث فيما إذا كان الكلام قد انتهى أو انقطعت صلته بسواه. أم إنه قدَّم في الآية (٣٦) كسؤال ليأتي جوابه متعدد العناصر.

فخطابه ليس بقصد تعيين المخاطَب بل بقصد التعليم والهداية فيقول:

إن لم تكن قد نبئت بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى (٣٦ ـ ٣٧) فاعلم:

﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى(٣٨) وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(٣٩) وأن سعيه سوف يرى(٤٠) ثم يجزاه الجزاء الأوفى(٤١) وإن إلى ربك المنتهى(٤٢) وأنه هو أضحك وأبكى (٤٣) وأنه هو أمات وأحيا (٤٤) وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (٤٥) من نطفة إذا تمنى (٤٦) وأن عليه النشأة الأخرى (٤٧) وأنه هو أغنى وأقنى (٤٨) وأنه هو رب الشعرى (٤٩) وأنه أهلك عاداً الأولى (٥٠) وثموداً فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلمَ وأطغى(٥٣) فبأيِّ آلاء ربك تتمارى (٥٥) هذا نذير من النذر الأولى(٥٦)﴾.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكما كانت الآيات من ٣٨ ـ ٥٦ إخباراً عن الأحكام الإلٰهية التي لم تتغير منذ الصحف الأولى. كذلك كانت الآيات السابقة للايتين ٣٦ ـ ٣٧ تمهيداً لهما وتوصيلاً إليهما. وما يليهما من آيات اخبارية تربوية.

﴿أفرأيت الذي تولى(٣٣) وأعطى قليلاً واكدى(٣٤) أعنده علم الغيب فهو يرى(٣٥)﴾؟.

لذلك كانت قراءة الآيات مجتمعة متكاملة. هي الوسيلة الوحيدة لفهمها، ومعرفة مقاصدها أما القراءة المقطعة، المجزوءة المنهوبة، التي تقدم بها المؤلف، فقد بَعُدت بالآيات عن حقيقة بيانها، بعداً شاسعاً.

* * *

في آيات البينة:

كان المؤلف في البحث الثاني، أثناء تعريفه لأهل الكتاب، في القرآن المدني أتى على ذكر الآيات من ١ ـ ٤ من هذه السورة وقال حينذاك مثل ما يقوله هنا وهو:

«إن الصحف المطهرة والكتُبَ القيمة، التي تلاها النبي، كانت البيِّنة التي طلبها المشركون والكفَّار لينفكوا عن عقائدهم، فكانت تلاوة النبي لأسفار الكتاب المقدس هي البينة التي قدمها إليهم. والقرآن بذلك يقدم الشهادة المحكمة أنه ينتسب إلى تلك الأسفار ولقد كنا ناقشنا هذه الأقوال في حينها تحت العنوان: خامساً من سورة البينة. نكتفي بإحالة القارىء إليها منعاً للتكرار.

* * *

المصادر:

بعد أن انتهى المؤلِّف من الإعلانات الثلاثة قال:

«فتلك التصاريح الصريحة تبيِّن معاني تعابيره الثلاثة عن مصادر القرآن.

﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ (١٥/ ٢١ ـ ٢٢ ـ البروج.

﴿إنّه لَقُرآنٌ كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين﴾ (٥٦/ ٧٧ ـ ٨٠ ـ الواقعة).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿حٰم والكتاب المبين إنَّا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أُمِّ الكتاب لدينا لَعَليٌّ حكيم﴾(٤٣/ ١ ـ ٤ ـ الزخرف).

واستطرد مُفَسِّراً تلك الآيات ومستخرجاً منها المعاني الآتية:

ـ فالقرآن العربي مصدره الكتاب المكنون، في اللوح المحفوظ، اسمه أم الكتاب.

ـ وهو قائم على الأرض ومنها نشأ لا من السماء يدُل على ذلك قولُهُ عن نفسه: ﴿فمن شاء ذكره في صحفٍ مكرَّمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام برررة﴾ (٨٠/ ١٢ ـ ١٦ ـ عبس).

فالسَّفرة هم كتبَةُ الكتاب، والكتاب هو، صُحُف مكرَّمة، مرفوعةً مطهرة عن مس المشركين فلا تعني الملائكة على الإطلاق، لأن الملائكة لا أجساد لها تحتاج إلى الطهارة.

ـ والكتاب لم يعد في السماء. بل أنزله الله بواسطة أنبيائه ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة: ٢/ ٢١٣). وهو ميراث بني إسرائيل دون غيرهم ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ (٤٠/ ٥٣: غافر)».

هذا هو كلام المؤلف: ص ٨٣ ـ ٨٤).

فما مدى الصواب والخطأ في هذا التحليل؟.

لمعرفة ذلك يكون من المفيد أن نقف أولاً على معاني المفردات القرآنية التي تتمحور من حولها هذه الآيات. وهي:

«قرآن، مجيد، لوح محفوظ، كريم، كتاب، مكنون، المطهرون، الكتاب المبين، وجعلناه قرآنا عربيا، وأم الكتاب لدينا، وعلي حكيم».

لأن المؤلف تصرَّف في معانيها بدون إمعان فصدرت عنه أحكام وتفسيرات خاطئة.

ـ القرآن: هو كلام الله نزل به الوحي على رسوله، وسمي قرآنا، لأنه مقرون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعضه ببعض أو لأنه يُقرأُ باستمرار بعضُه في الدنيا وبعضه في الآخرة.

ـ مجيد: هي صفة من صفات القرآن بمعنى أنه مصونٌ عن التبدُّل والتغيُّر فإذا ما حكم بسعادة قوم وشقاوة آخرين امتنع تبدُّلُه وقُرِىء بالإضافة «على الجر» حملاً على المضاف المحذوف تقديره «بل هو قرآن رب مجيد».

ـ ومحفوظ: وقد قرىء «محفوظٌ» أي إنه محفوظ في اللوح، ويعني في الملأِ الأعلى. محفوظ عن أن يجري عليه التغير وقد فسر ابن كثير هذه الكلمة بقوله: إنه محفوظ في الملأ الأعلى من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل.

ـ كريم: أي لايهون مهما تكررت قراءته، ولا يمل منه السامعون، فهو على قِدَمهِ يسمعه السامعون وكأنه كلام الساعة.

ـ في كتاب: أي هو مظروف في كتاب، والكتاب هنا هو اللُّوح المحفوظ الذي حفظ فيه القرآن، فالكتاب هنا غير الكتابة وغير القراطيس التي يكتب عليها، بل هو المكان الذي تجتمع فيه الكتابة وهي هنا بالنسبة إلى القرآن، اللوح المحفوظ، مثل كلمة «اللثام» ليس هو المتلثم ولا عملية التلثم، ولكن ما يُتلثم به.

ـ المطهرون: هنا: تعني الملائكة لأن الله طهرهم وأبقاهم على الطهارة، وهذه الصيغة لا تطلق على طهارة الأجساد البشرية لحاجة هذه الأجساد إلى التطهير المستمر، فيقال: «المتطهرون» بالنسبة إلى البشر ولا يقال المُطَّهرون الذين طهرهم الله بخلاف الطَّهارة في البشر يقومون بها هم.

ـ المبين: الموضِّح إلى الطريق، وهذه صفةٌ مجازيَّةٌ للقرآن، لأن المبين هو الله تعالى وقد وُصف بها القرآن مَجَازاً وتوسعاً لأنَّ البيان حَصَل عنده.

ـ جعلناه: أنزلناه وصيرناه، وجعل بمعنى خلق وصيَّر: كقول القائل: جَعَلت الطين خزَفاً. وتأتي بمعنى عمل وهيَّأ. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربيا﴾ أي قلناه أو بيَّناه أو نزلناه. وقوله: ﴿وجعلني نبيا﴾ و﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ و﴿جعلوا لله شركاء﴾. لاتخرج جميعها عن هذه المعاني.

ـ وأم الكتاب: اللوح المحفوظ على قول الكثيرين: ﴿إنه في أم الكتاب لدينا﴾ و﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون﴾ و﴿بل هو قرآن مجيد في لوح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محفوظ﴾. كما إن أم الكتاب يشار بها إلى الآيات المحكمات في القرآن.

وعن المفسرين من يقول: إنها الفاتحة. ومنهم من يقول: إنها السبع الطوال. (سور المئين) وأصلُ كل شيء أُمُّه. فالقرآن مثبت في الأصل ثم نقل إلى سماء الدنيا.

ـ وعليٌّ: أي إنه سما فوق الكتب لأنه مُعْجِزٌ على الدهر.

ـ وحكيم: أي مُحْكَمٌ وذو حكمة بالغة.

* * *

بعد أن وقفنا على المعاني الحقيقية للمفرادت القرآنية. أصبح في مقدورنا تحديد المعاني العامة/ التي تنطوي عليها هذه الآيات. كالآتي:

أ ـ ﴿بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ﴾ (٢١ ـ ٢٢) ـ البروج.

ليس ثمة حاجة إلى البحث بعيداً عن عائدية الضمير «هو» ولا عن عائدية «اللوح المحفوظ» فكلاهما يعودان إلى القرآن بصراحة. وليس إلى «معادٍ» آخر.

وقد وصف بالمجد والتشريف في حفظه وصيانته بالملأ الأعلى (اللوح المحفوظ) وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩).

ب ـ ﴿إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين﴾(٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠: سورة الواقعة).

فكونه في الكتاب، وكون الكتاب مكنوناً، وتحظير مسه إلا من المطهرين ـ الملائكة، وتنزيل من رب العالمين: هي صفات متتالية للقرآن الكريم في الآية (٧٧).

والتصريح للمرة الثانية:

ـ أنه في اللوح المحفوظ. ولا يمسه في الملأ الأعلى إلا المطهرون. وإنه منزل من الله، ينفي عنه شبهة النقل أو الترجمة ويجافي فكرة نشوئه من الأرض بإنشاء بشري.

ج ـ ﴿حم، والكتاب المبين، إنا جعلناه قرآناً عربياً..﴾.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن «حَم» هي آية فسرت على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هذه حَم» أي سورة حَم. وعاد بها كثيرون إلى موضوع «الحروف» التي تبدأ بها السور فَتَقُومُ بها الآية كاملة. ويدخل بعضها في تشكيل الآية فتكون جزءاً منها.

وإضافة فعل «الجَعْل» الذي هو «الخَلْقُ» و«الصيرورة» إلى الله ينفي أن يكون القرآن مجعولاً من بشر سواء أكان ذلك عن طريق النسخ أم الترجمة.

وصياغته باللغة العربية هي من الله بدليل تماسك الآية وترابطها (إنا جعلناه قرآنا عربياً. . .) ثم إن كونه في الأصل موجودٌ منذ الأزل وإلى الأبد في أم الكتاب، دليلٌ آخر على مصدره الإلَهي، لا سيما وقد أُضيفت كلمة «لدينا» وهي حرفٌ يؤكد الظَّرفية المكانية. أي إن القرآن في أمِّ الكتاب عند الله في مكان علي حكيم.

* * *

بقي علينا أن نُحدد أخطاءَ المؤلف في تفسيره للآيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ من سورة عبس رقم (٨٠) وهي: ﴿فمن شاء ذكره، في صحف مكرَّمة، مرفوعةٍ مطهرة، بأيدي سفرة، كرامٍ بررة﴾.

فهو يقول: «إن الكتاب مُيَسَّر، فمن شاءَ استطاع أن يذكره. لأنه في صُحُفٍ مكرَّمة، مرفوعةٍ مطهرة بأيدي الكتّاب الذين كتبوه فالسفرة هم الكتّاب الذين كانوا يكتبونه عند النبي».

ويقول: «إن الكتاب واحدٌ لا يتعدد، وهو مع النبوَّة ميراثُ بني إسرائيل من أبيهم يعقوب (غافر ـ ٤٠/ ٥٣) فلا التماس لنبوة أو كتاب خارجين عن التوراة وذرّية إسرائيل».

وفي تصويب أقوال المؤلف هذه نقول:

ـ لكي نعرف «معاد الآيتين ١٢ ـ ١٣ ﴿فمن شاء ذكره في صحف مكرمة﴾. يقتضي أن نعود إلى الآية ١١ ـ من السورة ذاتها ﴿كلا إنها تذكرة﴾ ليتضح لنا أن الآيتين (١٢ ـ ١٣) هما وصفان للتذكرة. والتذكرة تنطوي على ضمير المؤنث السابق لها في «إنها» كما أن الضمير في كلمة «ذكَرَه» هو ضمير المذكر وكلاهما يعودان إلى شيء واحد. هو باتفاق المفسرين والقراء «القرآن».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أما السفرة فقد قيل في فهمها أقوال: منها: أنها تعني الكتبة من الملائكة لأن الكاتب هو سافر يبين بكتابته عن الشيء الغامض. ومنها: إنها تعني الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله وأنشدوا:

وما أدَعُ السفارة بين قومي وما أمشي بغشٍ إن مشيت

فالكاتب والسفير كلاهما كاشفان ومبينان للعلم والهداية.

وبعضهم قال: إنهم القراء. وإنهم أصحاب رسول الله (ص).

ـ ولكن لم يَدُرْ في خَلَدِ أحَد، ولم يجر على لسان قارىء. ما جرى على لسان المؤلف من أن هذه الآيات تشكل دليلاً من القرآن على أنه لم ينزل به وحيٌ من السماء. وأن التنزيل الذي يصف نفسه به هو تعريبه وقراءَتُه باللغة العربية عن «المِثْل» النصراني. ص ٨٤ ـ ٨٥ من المؤلف.

أما ميراث:

ـ النبوة.

ـ والكتاب، في ذريَّة إبراهيم من حفيده يعقوب. وأنه لا التماس لنبوَّة أو كتاب. إلا مِنَ التوراة ومن ذرية يعقوب.

فإن مجال بحثه: في الموضوع الثالث القادم المخصص «للتنزيل».

٣ ـ القرآن تنزيل من التنزيل:

التنزيل والتفصيل:

قال المؤلف: إنَّ تنزيل القرآن هو تعريب التنزيل للكتاب ـ ص ٨٥.

وأوضح مقالته، بتقديم دراسةٍ أفرغها في الموضوعين التاليين:

أ ـ تعريف التنزيل.

ب ـ القرآن وروح القدس.

وسوف نستعرض «دراسةَ المؤلف» ونُخْضِعُها للمناقَشة كالآتي.